نسائم الريحان

في شرح منظومة

رياضة الصبيان

بيانات الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية بالمملكة الأردنية الهاشمية

أبو سنينة، عبد الله بن محمد شاكر.

نسائم الريحان في شرح منظومة رياضة الصبيان، عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٢٦.

٢٨٠ص، قياس القطع: ١٧×٢٤سم.

الواصفات: تربية الأطفال/ التربية الإسلامية/ علاقة الوالدين والأطفال/ علم الاجتماع الإسلامي.

التصنيف العشري (ديوي): ٢١٨,٣

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٨١/ ١/ ٢٠٢٦).

الرقم المعياري الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٧٧٨-٣



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٧هـ = ٢٠٢٦م

تم الإخراج الفني والتنفيذ الطباعي لدى



دار الفتح للدراسات والنشر

رقم الهاتف : ٦٤ ٣٥ ٥١٦ ٦ (٠٠٩٦٢)
رقم الجوال : ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@daralfath.com
الموقع الإلكتروني : www.daralfath.com

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من المؤلف. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved for the author. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the author.

نسائم الريحان

في شرح منظومة

رياضة الصبيان

لشيخ الشافعية الإمام شمس الدين الرملي

تأليف

عبد الله بن محمد أبو سنينة

تقديم

الشيخ علي هاني العقرباوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى مربِّينا الأول وطبيب قلوبنا ونور أبصارنا وغذاء أرواحنا، سيدنا رسول الله ﷺ.

- إلى مَن الجنة عند قدمَيها، معلمتي الأولى ومدرستي المتميزة، التي أخذت بيدي إلى الله وشجعتني على ارتياد المساجد ودُور القرآن الكريم وطلب العلم والدعوة إلى الله؛ أمي نور قلبي ملأ الله قبرها رَوحًا وريحانًا، وجعل هذا الكتاب هدية لها ونورًا لها في برزخها.

- إلى مَن هو أوسط أبواب الجنة؛ أبي المبارك الطيب النقي صاحب الخُلُق الحسن وحسن الظن بعباد الله، أطال الله في عمره في عافية، ورزقنا حسن الأدب في خدمته إلى أن نجتمع به مع الحبيب المصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى.

- إلى شيوخي ومربِيَّ، وعلى رأسهم وسيلتي إلى الله ودليلي إليه، سيدي الحبيب عمر بن حفيظ، من شجعني على طباعة هذا الكتاب وغيره، وقال لي: ألِّف للنفع لا للجمع.

- وشيخي الشيخ حسن رزوق والشيخ ممدوح أبو الشامات والشيخ نوح القضاة رحمهم الله جميعًا، العلماء العاملين الربانيين من علَّمونا بحالهم قبل مقالهم.

- إلى كل من أحسن بي الظن، وجلس أمامي طالبًا النفع والانتفاع من الكبار والصغار، ومُوصيهم بقراءة هذا الكتاب المتمخِّض عن تجربة طويلة لسنوات عديدة، نسأل الله أن تكون حجة لنا لا علينا.

- وإلى كل مربٍّ لأولاده ومربِّية، وكل أب وأُم ومعلم ومعلمة وشيخِ مَسلَكٍ وشيخ قرآن وفقه وعقيدة وسلوك، وغيرها من العلوم الشرعية والكونية.

- وإلى روح والدَي الأستاذ مجدي عبد الرحمن جزاه الله خير الجزاء، الذي ساهم مع الفقير بنشر هذا الكتاب.

أهدي كتابي هذا



تقديم وتقريظ

شيخنا العلّامة علي هاني العقرباوي

حفظه الله ورعاه ونفعنا بعلومه في الدارين آمين

الحمد لله الذي أكمل لنا دين الإسلام، وأتمَّ علينا نعمته سبحانه، وجعل مكارم الأخلاق تاجًا يزين عقيدة المؤمن وسلوكه، وجعل العلم ميراث الأنبياء ورفعةً لأهل الإيمان، والصلاة والسلام على سيد المربِّين وإمام المرسلين، المبعوث ليتمِّم مكارم الأخلاق، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن الأخلاق في الإسلام ليست فرعًا ثانويًّا أو سلوكًا شكليًّا، بل هي من أهم مقاصد إرسال الرسول ﷺ وإنزال القرآن كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فقد جعل التزكية مقصدًا أساسيًّا لا غنى لأحد عنه، فهو من جوهر الرسالة ومقصد من مقاصد الشرع الحنيف؛ بها تُحفَظ الحقوق، وتزكو النفوس، وتستقيم الحياة، وقد ربط الإسلام بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل حسن الخلق معيارًا لعلوِّ منزلة العبد عند الله تعالى، بل لخَّص النبي ﷺ حكمة بعثته في إتمام الأخلاق فقال: «إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ»، وجعل الله تعالى أطول

قسم في القرآن على تزكية النفس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

ومن هنا جاء كتاب «**نسائم الريحان بشرح رياضة الصبيان**» لفضيلة الشيخ الفاضل المربِّي للأجيال المتحقِّق بالعلم قولًا وفعلًا، ظاهرًا وباطنًا عبد الله بن محمد أبو سنينة حفظه الله؛ ليُبرز مكانة الأخلاق في الإسلام وكيفية غرسها في نفوس الصبيان؛ إذ العلم في الصغر كالنقش على الحجر، جاء هذا الكتاب في زمن طغت فيه المادية، ودرَست فيه الأخلاق والآداب، وغُيِّبت مراكز التعليم الحقيقية، وصارت العلوم جسمًا بلا روح، الشرعية منها وغير الشرعية، فما أشبه زماننا بزمان الإمام الغزالي الذي ألَّف أصل هذا الكتاب.

وقد جمع المؤلف بين متن الإمام العلّامة شمس الدين الرَّملي رحمه الله في منظومته «رياضة الصبيان»، المستمد من وصايا الإمام أبي حامد الغَزالي في «إحياء علوم الدين»، وشرح تربوي وسلوكي ثري بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء، ونماذج عملية من سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام، نماذج للأخلاق الرفيعة، ممزوجة بروح عالية صافية للشيخ عبد الله حفظه الله.

يقدِّم المؤلف طرحًا علميًّا متينًا يجمع بين أصالة التراث الإسلامي وعمق الرؤية التربوية المعاصرة، ويعالج قضايا العقيدة الصحيحة، والفقه العملي، والتربية الإيمانية، وآداب السلوك، وأسس تزكية النفس، وأهمية الصحبة

الصالحة، بأسلوب سهل وعبارة واضحة تجمع بين الفائدة والمتعة، كما يتناول أثر الأخلاق في الفرد والمجتمع، وكيفية تحصين النشء ضد الانحرافات والتحديات المعاصرة.

وهذا الكتاب ـ بأسلوبه الميسر وعمق محتواه ـ يمثِّل إضافة قيِّمة للمكتبة التربوية الإسلامية، ومرجعًا للآباء والأمهات والمربِّين والمعلمين، ولكل من يسعى إلى إعداد جيل صالح ثابت على منهج السلف الصالح، وقد رأيت الشيخ عبد الله ـ حفظه الله ـ كيف يُحفِّظ الأطفال هذه القصيدة عن ظهر قلب بأسلوب ممتع لهم، ويلقِّنهم رُوح هذا الكتاب قبل أن يلقِّنهم كلماته، ويحبِّبهم في الدين والتربية ويزرع فيهم أدبًا يصاحبهم طوال حياتهم، فقد كتب الشيخ هذا الكتاب في الواقع قبل أن يكتبه في الكتب، فما أسعد هذه الأمة بمثل هذا الكتاب القصير في أوراقه العظيم في نفعه!

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به القراء، ويجعله سببًا لإحياء القيم الفاضلة في الأمة الإسلامية، وسببًا لإحياء هذه الأمة ونصرتها ونجاتها في الدنيا والأخرى من كل بلاء، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء.

كتبه

عليّ هاني العقرباويّ

مدرس اللغة العربية والتفسير

تقديم وتقريظ
فضيلة الدكتور الداعية صهيب بن محمد الفائقي
حفظه الله ورعاه ونفعنا بعلومه في الدارين آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ لله ربّ العالمين، حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، سبحانه لا يسأم من كثرة السؤال والطلب، يُعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحب.

وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُ الله ورسوله خاتم المرسلين وحبيب ربِّ العالمين من جاء بأفصح الكلام وبأعدل الأحكام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما تردَّد ذكره على ألسنة الأنام وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

فقد منّ الله عليّ في بداية عُمري أن تعرَّفت إلى مولانا وشيخنا المربِّي الشيخ عبدِ الله أبو سنينة الذي أخذ بيدي إلى الله ورسوله، وبذل وقته وماله في سبيل نشر القرآن والعلم والفائدة، ونشر مذهب أهل الحق مذهب أهل السنة والجماعة، في زمن قلّ فيه ظهور مذهب أهل السنة والجماعة، وانتشر مذهب أهلِ البدعِ والضلالة، ومن ثمّ أكرمني الله تعالى على يديه بالتعرف إلى علماء المسلَمين وأخذ العلم عنهم في بلدنا الحبيب الأردن والبلدان الإسلامية، كالسعودية واليمن وغيرها، فكان مثال المرشد والأب الموجِّه لي حتى أكرمني الله تعالى بمواصلة دراسة العلوم الشرعية.

ثمّ أحسن بِيَ الظن فطلب منّي أن أقرأ كتابه الموسوم بـ«نسائم الريحان»، وأن أكتب تقريظًا له. لقد جاء هذا الشرح شرحًا لمنظومة «رياضة الصبيان» للإمام الرَّملي، هذا الإمام الكبير الذي نظمها وأخذها من كتاب الإمام الغَزالي حُجّة الإسلام ـ عليه رحمة الله ـ «إحياء علوم الدين»، الذي كان يقول عنه علماؤنا وشيوخنا: «من لم يقرأ «الإحياء» فليس من الأحياء».

وعلامة عُلماء الآخرة أنهم يحبون كتب الإمام الغَزالي، وعلامة عُلماء الدنيا أنّهم يكرهون كتب الإمام الغَزالي، فجاء شيخنا حفظه الله إلى هذه المنظومة الهامّة فشرحها فجمع بين شتاتها وبين ما يحتاج إلى بيان وإرشاد، فذكر حفظه الله تعالى الآداب النبويّة وما يحتاج إليه المسلم من معرفة الحلال والحرام، وما يتعلَّق باللعب والضرب، وذكَر نصائح هامّة للأم والأب، وذكر أن الحياء زينة الأخلاق للرجال والنساء وصورة من حياةِ الصحابةِ رضوان الله عليهم، ثم ذكر الآفات، وأعظمها آفات اللسان وما يتعلَّق بالكفر وأنواعه القولي والفعلي الذي ربّما وقع فيه المسلم من حيث لا يدري.

فكان الكتاب كما ذكر رَوحًا وريحانًا، وأسأل الله تعالى أن يجزل له المثوبة، وأن يُعظِم له الأجر والثواب، وأن يجعله في ميزان حسناته وحسنات والديه؛ إنّه نِعم المولى ونِعم النصير، وما كنت لأكتب هذا التقريظ إلا امتثالًا لأمره وهبة له... حفظ الله شيخنا بحفظه ومتّعه بوافر الصحّة والعافية.

والحمد لله رب العالمين

كتبه

العبد الفقير إلى عفو ربه ومولاه

صهيب بن محمد الفائقي

تقديم وتقريظ
فضيلة الدكتور الداعية ضيف الله أحمد العنازة
حفظه الله ورعاه

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وجعله تبيانًا لكل شي، وشفاءً لكل عيّ، وهداية من كل غيّ، والصلاة والسلام على خير مرسل وأكرم نبيّ، سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه ما اشتاق ظامئ لريّ، وعلى أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، صلاة نلتمس بها اجتماعًا بحضرته، وشربة من راحته، والتحاقًا بحزبه وزمرته، ولذّة برؤيته، ونصرةً لأمّته.

وبعد؛ فإن رياضة الصبيان من أكبر هموم الأمة اليوم في ظل هجمات التغريب والتخريب، على عقول أبنائنا، لا سيما الأطفال منهم، ذكورًا وإناثًا، حتى حار المربّون في شأن هذا الجيل، الذي ابتُلي بالاتصال والتواصل مع مِلَل الكفر ونِحَلِ الانحراف والزيغ، ورَكبِ الشهوات والشبهات، وصارت دعوة الأبناء إلى الله من أهم أبواب الدعوة، والجهاد فيهم من أصعب أنواع الجهاد، فالكيِّس الفطين من لزم أسرته وخُوَيصته، وتنبَّه لأحوالهم، وانتبه لهمومهم وأحلامهم، وسايرهم بالحسنى، وقوَّمهم بالترغيب والترهيب، وحذَّرهم من شياطين الإنس والجن، وحبَّبهم إلى الرحمن والصلة بالقرآن والنبي المصطفى العدنان وأصحابه الكرام البررة، حتى يرغبوا عما ابتُلي به أبناء جيلهم من التعلُّق بالأشقياء، واتباع سبيلهم الذي ساء سبيلًا.

وهذا الكتاب القيِّم، يشرح لنا منظومة عظيمة لإمام عظيم من أئمة الإسلام، وأعلام الهدى، شمس الدين الرَّملي، الفقيه الحاذق صاحب التصانيف النافعة، الذي كتب هذه المنظومة يلخِّص فيها أصول تربية الأبناء في الإسلام، بطريقة لطيفة موجزة، يجمع فيها خلاصات الهدي النبوي في تأديب الصبية وتوجيههم إلى الخير والهدى وسعادة الدارين.

ونحن بأمسِّ الحاجة في هذا العصر إلى إحياء هذه السنن المباركة والكتب النافعة، وهذا ما انبرى له جماعة من أهل الصدق والحرص على تربية الأبناء، ومنهم صاحب هذا الشرح القيِّم، سيدي وشيخي الشيخ عبد الله محمد أبو سنينة، الذي ربّانا منذ نعومة أظفارنا على محبة الله ورسوله، وعلى كتاب الله وسنة نبيه، وعلى الصلة بأهل الصلاح والنور، وكان له الأثر الطيب على أجيال من الخلق ممن نهلوا من مجالسه وحلقاته العلمية ورحلاته الدعوية ومواقفه التربوية، فكان لي غامر الفرح والسرور أن أقدِّم لهذا العمل العظيم، عسى أن يكون لي سهم في هذا الكتاب عند الله تعالى، وعسى أن ينفعني الله تعالى بصحبة الصالحين.

العبد الفقير الأقل

ضيف الله أحمد العنانزة

الدوحة ٦ جمادى الآخرة

عام ١٤٤٧ من هجرة الحبيب ﷺ

المقدمة

الحمـدُ لله الـذي زَيَّن قلـوبَ أوليائه بأنوارِ الوِفاق، وسَـقى أسـرارَ أحبّائه شرابًا لذيذَ المَذاق، وألزَم قلوبَ الخائفِين الوجَلَ والإشفاق، فلا يعلمُ الإنسانُ في أيِّ الدواوينِ كُتب، ولا في أيِّ الفريقَين يُساق.

فإن سامَح فبفضلِه، وإن عاقَب فبعدلِه، ولا اعتراضَ على الملكِ الخلّاق.

نَحمدُه تعالى ربَّ الأرضِ وربَّ السماء، خلَق آدمَ وعلَّمه الأسماء.

وأسجَد له ملائكتَه، وأسكَنه الجنةَ دارَ البقاء.

وحذَّره من الشـيطانِ ألدِّ الأعداء، ثم أنفَذ فيه ما سـبَق به القضاء، فأهبَطه إلى دارِ الابتلاء.

وجعَـل الدنيا لذريّتِـه دارَ عملٍ لا دارَ جزاء، وتجلَّـت رَحمتُه بهم فتوالَت الرسلُ والأنبياء.

وما منهم أحدٌ إلا جاء معه بفرقانٍ وضِياء، ثم خُتمت الرسالاتُ بالشريعةِ الغـرّاء، ونـزَل القـرآنُ لمـا فـي الصـدورِ شِـفاء، فأضاءت بـه قلـوبُ العارفِين والأتقياء.

وترطَّبـت بآياتِه ألسـنةُ الذاكرِين والأوليـاء، ونهَل من فيضِ نـورِه العلماءُ والحكماء.

نحمدُه تبارك وتعالى على النَّعماءِ والسرّاء، ونستعينُه على البأساءِ والضرّاء، ونعوذُ بنورِ وجهِه الكريمِ من جَهدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وعُضالِ الداء، وشماتةِ الأعداء.

ونسألُه عيشَ السُّعداء، وموتَ الشُّهداء، والفوزَ في القضاء، وأن يسلكَ بنا طريقَ الأولياءِ الأصفياء، وأن يُحقِّقنا بالمعرفةِ الخاصةِ والمحبةِ الخالصة، وعلمِ اليقينِ وحقِّ اليقينِ وعينِ اليقين.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده ليس له أندادٌ ولا أشباهٌ ولا شركاء، ليس كمثلِه شيءٌ وهو السميعُ العليم، كلُّ ما خطَر ببالِك، فهو جل جلاله بخلافِ ذلك.

له الملكُ وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، علِم ما كان وما يكونُ وما لا يكونُ لو كان كيف كان يكون، إلهٌ عزَّ مَن اعتزَّ به فلا يُضام، وذلَّ مَن تكبَّر عن أمرِه ولقِي الآثام.

خلَق السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكان عرشُه على الماء.
خلَق الخلقَ فمنهم السُّعداءُ ومنهم الأشقياء.
محيطٌ بخلقِه فليس لهاربٍ منه نَجاء.
قادرٌ مقتدرٌ فكلُّ الممكناتِ في قدرتِه سَواء.

سميعٌ بصير، يَعلمُ ويَرى ويسمعُ أيَّ همسةٍ على أديمِ الأرضِ وأيَّ حركةٍ في عَنانِ السماء، لا تقعُ ولا تحدثُ إلا تحت سمعِ وبصرِ الخالقِ جل شأنُه.

يعلمُ دبيبَ النملةِ السوداءِ تحت الصخرةِ الصمّاءِ في الليلةِ الظلماء، ويعلمُ جميلَ فِعالِنا وقبيحَها، ويسمعُ شريفَ كلامِنا ونقيضَه، ويعلمُ خفايا صدورِنا

ونوايانا، فأيُّ غفلةٍ وأيُّ نسيانٍ يقعُ فيه مَن يُبارِزُه بالمعصيةِ أو يصدُّ الخلقَ عن منهجِ خالقِهم أو يشوِّهُ أولياءه؟!

أجرى الأمورَ بحكمتِه وقسَّم الأرزاقَ وفقَ مشيئتِه بغيرِ عناء.

لا يشغلُه شأنٌ عن شأن، فكلُّ شيءٍ خُلق بقدَر، وكلُّ أمرٍ جَرى بقضاء.

وأشـهدُ أنّ سـيِّدَنا وحبيبَنا وشـفيعَنا محمدًا عبدُ الله ورسـولُه، وصفيُّه من خلقِه وحبيبِه، خاتمُ أنبيائه، وسيِّدُ أصفيائه.

وإمامُ المجاهِدين والأتقِياء.

وقائدُ الغرِّ المُحجَّلِين.

والشهيدُ يومَ القيامةِ على الشُّهداء.

المعصومُ ﷺ فما أخطَأ قطُّ وما أساء.

دعا أصحابَه إلى الهدى فلبَّوُا النِّداء.

فإذا ذاتُه رحمةٌ لهم ونور، وإذا سلوكُه إشراقٌ وضياء.

هو القدوةُ النيِّرةُ في الصبرِ على البلاء، والعملِ لدارِ البقاء.

وهو الأسوةُ المشرقةُ في الزهدِ في دارِ الفَناء.

فكم مَرَّت شهورٌ ولا طعامَ له ولأهلِ بيتِه إلا التمرُ والماء.

صلَّى الله عليه قديمًا، وكذا الملائكةُ في السماء.

وصلَّى هو في المسجدِ الأقصى بالرسلِ والأنبياء.

سبَّح الحصى في كفِّه بخيرِ الأسماء.

وحين ظمِئ أصحابُه نبَع من بين أصابعِه الماء.

المخصوصُ بالمقامِ المحمود، في اليومِ المشهود، الذي جُمع فيه الأنبياءُ تحت لوائه:

آيَاتُ أحمَــدَ لَا تُحَدُّ لِواصِفٍ ولَو انَّــهُ أُملِي وعَــاشَ دُهُورَا
بُشــرَاكُمُ يَا أُمَّــةَ المُختَارِ في يَــومِ القِيَامَــةِ جَنَّــةً وحَرِيــرَا
فُضِّلتُمُ حَقًّا بِأشــرَفِ مُرسَــلٍ خَيــرِ البَرِيَّــةِ بَادِيًــا وحُضُورَا
صَلَّــى عَليــهِ اللهُ رَبِّــي دَائمًا مَــا دَامَــتِ الدُّنيَــا وزَادَ كَثِيرَا

وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن سار على نهجِه، وتمسَّك بسنتِه، واقتدى بهديِه وبخُلُقِه وبرحمتِه، واتَّبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين، ونحن معهم يا أرحمَ الراحمِين.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آلِه وصحابتِه الأجلّاء.

وعلى السائرِين على دربِه والداعِين بدعوتِه إلى يومِ اللِّقاء.

ما تعاقَب الصبحُ والمساء، وما دام في الكونُ ظلمةٌ وضياء... صلاةً تُرضِيك وتُرضِيه وتَرضى بها عنا يا رَبَّ العالمِين كلما ذكَرك الذاكرون وغفَل عن ذكرِك وذكرِه الغافلون.

وبعد،

فهذا شرحٌ لطيفٌ للقصيدةِ المبارَكةِ «رياضة الصبيان» لمُؤلِّفِها الإمامِ الرَّمليِّ صاحبِ كتابِ «نهاية المحتاج بشرح المنهاج» في الفقهِ الشافعي، وهو أحدُ أعلامِ الشافعيّةِ في القرنِ العاشر.

ومن العجيبِ أنّ الإمامَ ابنَ حجرٍ الهَيتَميَّ (ت٩٧٤هـ) ألَّف كتابًا اسمُه «تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال»، والكتابُ في التربيةِ والتعليمِ، يُعدُّ من خيرةِ الكتبِ التي تحدَّثت عن جوانبَ

مختلفـةٍ تتعلَّقُ بإرشـاداتٍ وتنبيهاتٍ مُوجَّهةٍ للمُعلِّمِين بشـكلٍ خاص، ولطلبةِ العلمِ بشكلٍ عام.

والكتـابُ نـادرُ المثال، ألَّفه الإمـامُ ابنُ حجرٍ الهَيتَميُّ رَدًّا على أسـئلةٍ من شيخٍ قاضٍ شغَل منصبَ القضاءِ ثم تَرَكه ورعًا، وعُرِض عليه أن يُعلِّمَ أيتامًا في كُتّابٍ موقوفٍ للأيتامِ(١).

وابنُ حجرٍ والرَّمليُّ هما الشيخان في المَذهبِ الشافعيِّ.

وأصـلُ كتـابِ «رياضـة الصبيان» للإمـامِ الغَزالـيِّ من كتابِـه «إحياء علوم الدين»، لكن النظمُ للرَّمليِّ.

ولمّـا كانت هذه الـدرّةُ بحاجةٍ إلى ما يُجلِّي قِيمتَها، ويَكشـفُ الخِدرَ عن ضيائها وبريقِها؛ استعنتُ بالله الكريمِ بوضعِ نِقاطٍ على حروفِها، وإبرازِ فوائدِها وعلومِها، شرحًا تربويًّا موافقًا لِما عليه عُلماءُ السُّلوكِ مع الحرصِ قدرَ الإمكانِ على التذليلِ والتسهيل، وإلحاقِ المسائلِ بما تحتاجُ إليه من التدليلِ والتعليل،

(١) يقول ابن حجر الهيتمي في مقدمة الكتاب: «قد ورد من بعض مؤدبي الأطفال ثاني جمادى الأولى سـنة سبع وخمسين وتسعمئة أسئلة مفحمة، وتدقيقاتٌ الأجوبةُ عنها متحتمة، فلما أردت الجواب عنها طال الكلام، وانتشر واحتاج إلى مقدمات وأقيسة، أنتجها خاصة واضح البرهان، ودقيق النظر. فلما تمت مصونة عن سفساف المكثرين، مصحوبة بتحقيقات طبق تحقيقـات المتقدميـن والمتأخرين، دعاني ذلك إلى جعلها تأليفًا لطيفًا، وأنموذجًا شـريفًا، تقـر بـه عيون المتقين، وتفـرغ إليه عند تحير الأفهام أفئدةُ المؤمنين، فاسـتخرت الله تعالى، الذي ما خاب من استخاره، وضممت إليه تتماتٍ مَن لجأ إليها وُقي عثاره، وسميته «تحرير المقـال فـي آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال»، ورتبتها على سـبعة مقاصد وخاتمة».

فغدا الشرحُ للناظرِ فيه سلوةٌ، وللمُستفيدِ منه مَنُوَّةٌ، وسَمَّيتُه:

نسائم الريحان
في شرح منظومة
رياضة الصبيان

والله تعالى أسألُ أن يَجعَلَ عملَنا فيه خالصًا لوجهِ الله الكريمِ، وأن ينفعَ بها الآباءَ والمُربِّين والمُعلِّمين والمعلِّماتِ، والمُقرئين والمُحفِّظين، وكُلَّ مَن يَسيرُ في هذا الطريقِ طريقِ تربيةِ الأولادِ، وإعدادِ الأجيالِ على ما يُرضِي الرحمنَ ويُفرِحُ قلبَ الحبيبِ المصطفى ﷺ.

وصلى الله على سيِّدِنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وسَلَّم تَسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وهذا أوَّلُ الشروعِ بالمقصود، ومنه التوفيق، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

قاله بلسانِه وخَطَّه ببَنانِه
العبدُ الأقل
عبد الله بن محمد أبو سُنَيْنَة

منظومة رياض الصبيان
للفقيه الإمام
شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرَّملي الشافعي

[١] الحَمــــــــدُ لله ولِيِّ الحَمــــــــدِ ... مُوفِّـــقِ الخَلْــقِ لِكُلِّ رُشْـــدِ
[٢] عَلَى الَّذِي بِـــهِ عَلَينَــا أنعَمَــا ... حَمــدًا يَعُمُّ الأرضَ طُرًّا والسَّــمَا
[٣] ثُــمَّ الصَّــلاةُ بَعدَمَــا قُلنَــا بِهِ ... عَلَى النَّــــبِي وآلِهِ وصَحبِـــــهِ
[٤] وبَعــدُ: فَالتَّأدِيــبُ لِلصِّبيَــانِ ... مِــن أوَّلِ النَّشــوِ أتَمُّ الشَّــانِ
[٥] وقَــد بِــذَاكَ صَرَّحَ الغَــزَالِي ... بَحــرُ العُلُــومِ صَــادِقُ المَقَالِ
[٦] وحَــثَّ في «إحيَا عُلُــومِ الدِّينِ» ... على قِيَــامِ الأهــلِ بِالبَنِـــينِ
[٧] لِأنَّ تَأدِيــبَ الصَّــبِي في صُغرِهِ ... زِيَـــادَةٌ لِحَظِّــــهِ في كُـــبرِهِ
[٨] يَنَــلْ بِذَلِــكَ الحُظُــوظَ الوافِرَهْ ... ورَاحَــةَ الدُّنيَــا وخَــيرَ الآخِرَهْ
[٩] فَيَنبَــــغِي لِـــكُلِّ جَـــدٍّ وأبِ ... وقَيِّــمِ الحَاكِمِ تَأدِيــبُ الصَّبِي
[١٠] لِأنَّــــهُ أمَانَـــةٌ عِندَهُــــمُ ... وقَلبُــــهُ يَقبَـــلُ تَأدِيبَهُــــمُ
[١١] والأُمُّ لِابنِهَــا تُهــدِّدْ بِــالأبِ ... زَجــرًا له عَــنِ الخَنَــا واللَّعِبِ
[١٢] إذ قَلبُــهُ كَالشَّــمعَةِ المَقصُورَهْ ... مُجوهَــرٌ يَقبَــلُ كُلَّ صُــورَهْ
[١٣] وَيَنبَــغِي لَهُــم بِــأن يُعَــوِّدُوا ... أولَادَهُــم فِعلَ التُّقَى لِيَسْــعَدُوا
[١٤] وأوَّلُ الأشــيَا هِيَ الحَضَانَـــهْ ... لِأنَّـــهُ مَـــعْ أهلِـــهِ أمَانَـــهْ

[١٥] فَيَنبَـغِي إرضَـاعُ كُلِّ طِفـلِ صَالِحَـــةً بِقَولِهَـــا والفِعـــلِ
[١٦] تَـأكُلْ حَلَالًا لَا مِـن الحَرَامِ فَالطَّبـعُ قَالُـوا تَابِـعُ الطَّعَـامِ
[١٧] إذَا خَبُـثْ رَضَاعُـهُ مَـالَ إلى فِعـلِ الخَبِيـثِ آخِـرًا وأوَّلَا
[١٨] وبَعـدَ فَطِمِـهِ تَجِدْهُ يَشـتَهِي أكلَ الطَّعَـامِ دَائمًـا لَا يَنتَـهِي
[١٩] فَعَلِّمُــوهُ الأكلَ بِاليَمِيـــنِ والبَسـمَلَهْ حَتمًا بِـكُلِّ حِينِ
[٢٠] ولَا يُبَـادِرْ قَبـلَ أكلِ صَاحِبِهْ ويَـأكُلُ العَيـشَ الذِي بِجَانِبِـهْ
[٢١] ويَمضَغُ اللُّقمَـةَ مَضغًا مُحكَمَا ولَا يُسَـارِعْ أو يُـوالِي اللُّقَمَـا
[٢٢] ويَـأكُلُ اليَابِسْ مِـنَ الطَّعَامِ تَعَلُّمًـــا بَحتًـــا بِـــلَا إدَامِ
[٢٣] حِينًا فَحِينًا فِي العَشَـاءِ والغَدَا كَي لَا يَـرَى الإدَامَ حَتمًـا أبَـدَا
[٢٤] وأن يُجَنِّبْـهُ فُنُـونَ الزِّينَـهْ وجُملَـةَ المَلَابِـسِ الرَّزِينَــهْ
[٢٥] ويَكسُـهُ لَونَ بَيَاضِ القُطنِ حَتَّى بِـهِ عَن غَـيرِهِ يَسـتَغنِي
[٢٦] وإن طَلَـبْ مَنقُوشًـا او مُلَوَّنَا يَقُـولُ: ذَاكَ لِلنِّسَـاءِ لَا لَنَـا
[٢٧] لِبَاسُ أهلِ الفِسـقِ والتَّخنِيثِ وأحمَـقٍ وفَاجِـرٍ خَبِيـثِ
[٢٨] ولَا يُنَعِّـمْ جِسـمَهُ بِمَلبَـسِ طُولَ المَدَى ولَا فِـرَاشٍ أملَسِ
[٢٩] بَـل كُلَّمَـا كَانَت به خُشُـونَهْ فَإنَّـهُ أخَـفُّ لِلمُؤُونَــهْ
[٣٠] يُصَلِّـبُ الأعضَـاءَ لَا يُبَـالِي بِالمَـشِي أو بِسَـائرِ الأفعَـالِ
[٣١] ويَمتَنِـعْ نَـومُ النَّهَـارِ قَطعَا خَوفَ الكَسَـلْ أو يَتَّخِذْهُ طَبعَا
[٣٢] وإن بَـدَت أمَـارَةُ التَّمِيـيزِ وَكُلِّ فَهـمٍ فَاضِـلٍ عَزِيـزِ
[٣٣] وصَارَ يَسـتَحِي مِـن الأُمُورِ فَـذَاكَ مِـن أوَّلِ بُـدُوِّ النُّـورِ
[٣٤] هَدِيَّـةٌ مِـن رَبِّـهِ أهدَاهَـا عَـرِّفْ بِهَـا الأشـيَا بِمُقتَضَاهَا
[٣٥] فَـذَاكَ أوَّلْ وَقـتِ فَهمِ الطِّفلِ أشرَقْ بِهَـا عليـه نُـورُ العَقلِ

[٣٦] فَليُلزِمُــوهُ الدَّرسَ لِلقُــرآنِ فَإنَّــهُ عِلــمٌ عَظِيــمُ الشَّــانِ
[٣٧] أيضًا وشُغلٌ شَاغِلٌ قَلبَ الصَّبِي عَن كُلِّ مَا يُوجِــبُ نَقصَ الأدَبِ
[٣٨] وإن ضَرَبْ مُعَلِّــمُ الصِّبيَــانِ أو والِدٌ بَعضًــا مِــنَ الــوِلدَانِ
[٣٩] فَلَا يَكُنْ مِثلَ النِّسَــاءِ يَبكِي ويَشــتَفِع بِغَــيرِهِ ويَشــتَكِي
[٤٠] فَعَــادَةُ الشُّــجعَانِ ألَّا يَذكُرُوا كُلَّ الذِي جَرَى لَهُــم بَل يَصبِرُوا
[٤١] ورَاحَــةُ الصِّبيَانِ بَعدَ المَكتَبِ أن يَــأذَنَ الــولِي لَهُــم بِاللَّعِبِ
[٤٢] فَإنَّــهُ عِنــدَ الصِّبَــا مَحبُــوبُ وقَلبُــهُ أيضًــا بِــهِ يَطِيبُ
[٤٣] فَكَــثرَةُ التَّعلِيمِ مَــوتُ القَلبِ ويُذهِــبُ الذَّكَا وبَعــضَ اللُّــبِّ
[٤٤] فَيَطلُبُــونَ لِلخَــلَاصِ حِيلَهْ تُنــجِي مِــنَ التَّعلِيمِ أو وَسِــيلَهْ
[٤٥] والرِّفقُ فِي كُلِّ الأُمُورِ أحسَــنُ قَالُــوا بِــذَا وصَرَّحُــوا وبَيَّنُــوا
[٤٦] وبَعدَمَــا يُــشرِقُ نُــورُ العَقلِ عَلَى الصَّــبِي يُؤمَــرْ بِــأن يُصَلِّ
[٤٧] وليَلــتَزِمْ فِعلَ الكِــرَامِ الشُّرَفَا المُتَّقِــينَ الصَّالِحِــينَ الأولِيَــا
[٤٨] ويَعتَمِــدْ جُلُوسَــهُ بَينَهُــمُ حَــتَّى يُوافِــقْ طَبعُــهُ طَبعَهُــمُ
[٤٩] ويَنغَــرِسْ بِقَلبِــهِ مَا يَســتَمِعْ ويَنطَبِــعْ فِي قَلبِــهِ مَــا يَنطَبِــعْ
[٥٠] ويَحتَفِــظْ بِــهِ عَــنِ الجُهَّــالِ وكُلِّ أهــلِ الفِســقِ والضَّــلَالِ
[٥١] ومَن عُــرِفْ بِالكِذبِ والخِيَانَهْ وكُلِّ مَــن لَيسَــت لَهُ أمَانَــهْ
[٥٢] فَــإنَّ أصــلَ أدَبِ الأخيَــارِ حِفظُ الصَّبِي عَن صُحبَةِ الأشرَارِ
[٥٣] إذِ الطِّبَــاعُ تَــسرِقُ الطِّبَــاعَا وكُلُّ مَــن جَالَسْ خَبِيثًــا ضَاعَا
[٥٤] وقَــد أتَى نَــصٌّ عَنِ الرَّسُــولِ بِــأنَّ طَبــعَ المَــرءِ كَالخَلِيلِ
[٥٥] ويَمنَعُــوهُ كَــثرَةَ الــكَلَامِ لِأنَّــهُ مِــن عَادَةِ اللِّئَــامِ
[٥٦] أيضًا وَمِن أن يَبتَــدِي خِطَابَا إلَّا يَكُــونُ قَــولُهُ جَوابَــا

[٥٧] ثُـمَّ اليَمِـينُ يَمنَعُـوهُ مِنهَـا بَتًّـا دَوامًـا دَهـرَهُ يَدَعْهَـا
[٥٨] وجُملَـةُ الأشـعَارِ والأغَانِي يُمنَـعُ مِنهَـا دَائِـمَ الزَّمَـانِ
[٥٩] والبَصـقُ والمُخَـاطُ والتَّنَخُّمُ عِندَ الجَلِيـسِ لَا عَلَيـهِ يُقدِمُ
[٦٠] واللَّعنُ والسَّـبُّ وشَتمُ النَّاسِ والاختِـلَاطُ بِـذَوِي الأدنَاسِ
[٦١] وليُلزِمُـوهُ كَـثرَةَ التَّواضُـعِ وتَـركَ مَـا بَـدَا لَهُ مِـن طَمَعِ
[٦٢] فإنَّـهُ مِـن أعظَـمِ الآفَـاتِ حَكَيتُـهُ نَقـلًا عَـنِ الثِّقَـاتِ
[٦٣] أيضًا وَمِن حُبِّ الذَّهَبْ والفِضَّةِ يُحَـذِّرُوهُ فَهْـوَ شَرُّ آفَـةِ
[٦٤] مِنَ السُّـمُومِ القَاتِلَـهْ حُبُّهُمَا فَالـرَّأيُ تَحذِيـرُ الصَّـبِيِّ مِنهُمَا
[٦٥] ويُكـرِمُ الإخـوانَ بِالتَّأدُّبِ وكُلَّ مَـن عَاشَرَهُ مِـن صَاحِبِ
[٦٦] وَأن يُوسِّـعْ لِـلَّذِي يَأتِيـهِ مَجلِسَـهُ الَّذِي اسـتَقَرَّ فِيـهِ
[٦٧] ويُكـرِمُ الواصِـلَ بِالقِيَـامِ لِأنَّـهُ مِـن أدَبِ الكِـرَامِ
[٦٨] ويَسـتَمِعْ كَلَامَ كُلِّ عَاقِـلِ ويُحسِـنُ الإصغَا لِقَـولِ القَائِلِ
[٦٩] لَا يَفتَخِـرْ بِمَطعَـمٍ أو مَشرَبِ ولَا بِشَيءٍ صَـارَ مِن مِلكِ الأبِ
[٧٠] ثُـمَّ لِيُعظِـمْ غَايَـةَ الإعظَامِ مَـن كَانَ ذَا دِيـنٍ مِـنَ الأنَامِ
[٧١] والوالِدَيـنِ الـكُلَّ والمُؤَدِّبَـا والأقرَبِـينَ نِسـبَةً والصَّاحِبَـا
[٧٢] وَإن ظَهَـر فِعـلُ الجَمِيلِ مِنهُ فَيَنبَـغِي بِـأن يُجَـازَى عَنـهُ
[٧٣] وأن يُجِـلَّ قَـدرَهُ ويَمـدَحْ بِمَـا بِـهِ مِـن الأنَـامِ يَفـرَحْ
[٧٤] وإن فَعَـلْ فِعـلًا ذَمِيمًـا سِرًّا فَيَنبَـغِي ألَّا يُعَاتَـبْ جَهـرَا
[٧٥] ولَا يُـذَمَّ بَينَ أصنَـافِ الوَرَى فَإنَّـهُ يُخـشَى بِـأن يَتْجَاسَرا
[٧٦] ولَا يُبَـالِي بَعـدَهُ بِالعَـذلِ وبِالمَـلَامِ عِنـدَ كُلِّ فِعـلِ
[٧٧] بَـل يَنبَـغِي عِتَابُـهُ بِحَيثُ لَا يَظهَـرْ عليـه أحَدٌ مِـنَ المَلَا

[٧٨] يَقُـولُ: هَذِي ـ إن عَلِمْ عَلَيهِ ـ فَضِيحَـةٌ، فَـلَا يَعُـد إلَيـهِ
[٧٩] ولَا تُكَـثِّرْ عِنـدَهُ الكَلَامَـا فَإنَّـهُ يُهَـوِّنُ المَلَامَـا
[٨٠] يُخْـشَى بِـأن يَجـزِمْ ولَا يُبَالِي بِمَـا أتَـاهُ بَعـدُ مِـن أفعَـالِ
[٨١] يُحَـذِّرُوهُ غَايَـةَ التَّحذِيـرِ مِنَ الكَـذِبْ والفُحشِ والفُجُورِ
[٨٢] وسِرقَـةٍ والأكلِ لِلحَـرَامِ فَإنَّـهُ مِـن مُوجِـبِ الآثَـامِ
[٨٣] فإن أتَى وَقـتُ البُلُوغِ والصَّبِي بِهَـذِهِ الأشـيَا خَبِـيرٌ لَا غَـبِي
[٨٤] يُعَرِّفُـوهُ مَقصِـدَ الأشـيَاءِ بِمُـدَّةِ الدُّنيَـا ولِلأُخـرَاءِ
[٨٥] فَإنَّ طِيبَ عِيشَـةِ الإنسَـانِ عَـونٌ على عِبَـادَةِ الرَّحمَـنِ
[٨٦] أقوَى لِذِي تَقـوَى عَلَى العِبَادَهْ وَهْيَ الَّـتِي تَحصُلْ بِهَا السَّـعَادَهْ
[٨٧] والمَـوتُ أقرَبْ كُلِّ شَيءٍ يُنتَظَرْ وهَـذِهِ الدُّنيَـا لَنَـا دَارُ مَمَـرّْ
[٨٨] والآخِـرَهْ دَارُ مَقَـرٍّ بَـاقِي والآدَمِي لِفِعلِـهِ مُـلَاقِي
[٨٩] فَيَنبَـغِي التَّكثِـيرُ لِلطَّـاعَاتِ تَـزَوُّدًا فِي مُـدَّةِ الحَيَـاةِ
[٩٠] وحِينَمَـا يَنشَـا الـولَدْ مُؤَدَّبَا يَكُـونُ فِي بُلُوغِـهِ مُهَذَّبَـا
[٩١] تُؤَثِّـرُ الأشـيَا بِـهِ فِي القَلبِ تَأثِيرَ حَدِّ السَّـيفِ عِندَ الضَّربِ
[٩٢] وتَنتَقِـشْ فِي قَلبِـهِ مَحَبَّـهْ لِرَبِّـهِ وطَاعَـةٌ ورَغبَـهْ
[٩٣] لِـكُلِّ مَـا يُـدنِي مِـنَ الجِنَانِ ويَلتَزِمْهَـا دائِـمَ الزَّمَـانِ
[٩٤] وإن وَقَعْ نَشـو الـوَلَدْ بِغَيرِ مَا قُلنَـا بِهِ أضـحَى كَذُوبًـا نَهِمَا
[٩٥] مُفَاخِـرًا مُبَاهِيًـا لِلنَّـاسِ مُلَازِمًـا طَبَائِـعَ الخِسَـاسِ
[٩٦] كَلَامُنَـا لِنَفسِـهِ لَا يَتَّسِـعْ قَد صَارَ طَبعُ الشَّرِّ فِيـهِ مُنطَبِعْ
[٩٧] فَيَنبَـغِي لِلـوالِدِ التَّعَـنِّي بِـكُلِّ بِنـتٍ وبِـكُلِّ إبـنِ
[٩٨] صونًا لَهُم عَـن مُوجِبِ المَآثِمِ لَا تُهمِلُـوا الصِّبيَـانَ كَالبَهَائِـمِ

[٩٩] فَفِي كِتَابِ اللهِ: (قُوا أنفُسَكُمْ) مَفهُومُــهُ: وكُلَّ مَــن يَلزَمُكُمْ

[١٠٠] مُــرَادُهُ بِالفِقــهِ والتَّأدِيــبِ وكَــثرَةِ التَّعلِيــمِ والتَّهذِيــبِ

[١٠١] وفِي الحَدِيــثِ لِلنَّبِيِّ المُرسَــلِ مُحَمَّــدِ المُعَظَّــمِ المُبَجَّــلِ

[١٠٢] أنَّ الوَلَدْ بِالفِطرَةْ الإســلَامِيّهْ يُــولَدْ ويَرجِــعْ بَعــدُ للهودِيّــهْ

[١٠٣] يُهَــــوِّدَاهُ والِدَاهُ تَاعِسَــــا وقَــد يُنَــصِّرَاهُ أو يُمَجِّسَــا

[١٠٤] فَــإن هُمَــا سَــاقَاهُ لِلصَّوابِ يُشَــارِكَانِ الــكُلَّ فِي الثَّــوابِ

[١٠٥] وإن شَــقِي وضَاعَ مِن يَدَيهِمَا وفَرَّطَــا فَــوِزرُهُ عَلَيهِمَــا

[١٠٦] فَهَــذِهِ «رِيَاضَــةُ الصِّبيَــانِ» جَمَعتُهَــا مَنظُومَــةَ المَعَــانِي

[١٠٧] مُفِيــدَةٌ لِــكُلِّ مَــن قَرَاهَــا ودَبَّــرَ الأشــيَا بِمُقتَضَاهَــا

[١٠٨] واللهُ يَهــدِي الــكُلَّ لِلرَّشَــادِ بِهِ اســتَعَنتُ وَهْوَ خَــيرُ هَادِي

[١٠٩] ثُــمَّ الصَّــلَاةُ بَعدَ حَمــدِ رَبِّي عَلَى النَّبِيِّ المُصطَــفَى مِن كَعبِ

[١١٠] وكُلِّ آلٍ لِلنَّــــبِي وتَابِــــعِ مَا لَاحَ بَرقٌ فِي السَّــحَابِ الهَامِعِ



هذا الكتاب

عبارةٌ عن شرحٍ وجيزٍ لمنظومةِ الإمامِ شمسِ الدينِ الرَّمليِّ، المنظومةِ الشهيرةِ التي اعتَنى بها الكثيرُ من الشيوخِ، خاصةً في حَضرَموتَ، وجَعَلوها من أوائلِ السُّلَّمِ التعليميِّ للأطفالِ، لا سيما الذين يَدرُسون في الأربطةِ والمعاهدِ العلميّةِ التي تقومُ على حفظِ المتونِ، وتحوي منهجًا فريدًا في التربيةِ والسلوكِ على طريقةِ الشيوخِ في التوجيهِ والإرشادِ، منهجًا نبويًّا فريدًا ليس له مَثيلٌ في المناهجِ التربويةِ الحاليةِ، لا سيما وأغلبُها مستمِدّةٌ مَرجعيّتَها من المناهجِ الغربيّةِ مناهجِ الضلالِ والكفرِ، بسببِ الأفكارِ المستوردةِ من الدولِ الأوروبيّةِ، مما دعا العلماءَ الصادقِين إلى العودةِ إلى المنهجِ النبويِّ الذي سار إليه أهلُ العلمِ وأئمةُ المذاهبِ الأربعةِ وأهلُ السلوكِ والتربيةِ بعيدًا عن التُّرَّهاتِ وسفاسفِ الأمورِ، وهي منظومةٌ رجزيّةٌ سهلةُ الألفاظِ، مُيسَّرةُ الحفظِ للصغارِ، وقد طُبِعت مراتٍ عديدةً بعنايةِ مفتي الديارِ المصريةِ السابِقِ الشيخِ حسنين مخلوف المالكي (ت١٤١٠هـ) رحمه الله تعالى.

وصدَرت عن دارِ المدنيِّ منظومتان في هذا الموضوع:

١ـ مَنظومة «هدية الرفيق للأخِ والصديقِ» للعلّامةِ الحبيبِ عبدِ الله بنِ حسينِ بنِ طاهرٍ الحَضرَميِّ الشافعيِّ (ت١٢٧٢هـ) وهي (٥٨١) بيتًا.

٢ـ الفصلُ الأخيرُ من (نظم الخطبة الطاهرية) للأديبِ الفقيهِ الشيخِ أحمدَ ابنِ عمرَ باذيب الشِّباميِّ الحَضرَميِّ وليدِ شِبامِ حَضرموتَ سنة (١٢١١هـ)

ودفيـنِ سـنغافورا ١٢٨٦هـ، وهـو فصـلٌ مـن منظومتِـه «الألفيـة فـي الأخلاق النبوية» نَظَم بها خطبةَ شـيخِه السـيدِ المجاهدِ الإمامِ طاهرِ بنِ حسينِ بنِ طاهرٍ العَلَويِّ الحُسَينيِّ (ت١٢٤١هـ) التي تضمَّنت إرشادَ العامةِ إلى الأخلاقِ النبويةِ والآدابِ الإسلاميةِ وجملةً من الأحكامِ الفقهيةِ.



تمهيد

إنّ مـن جواهـرِ الإمامِ الغزالـيِّ رحمه الله هذا الكتـابَ «**رياضة الصبيان**»، الذي اعتَنى فيه بالطفلِ منذ اللحظةِ الأولى في حياتِه منذ اختيارِ الأُمِّ الصالحةِ، فجَزى الله هذا الإمامَ العَلَمَ حُجّةَ الإسلامِ خيرَ الجزاءِ على جهودِه المباركةِ في خدمةِ الإسلامِ والمسلمِين، وقد قال فيها عن مقصدِه في تعليمِ أبناءِ المسلمِين في «رياضةِ الصِّبيانِ»:

مُـرَادُهُ بِالفِقـهِ والتَّأدِيــبِ   وكَثرَةِ التَّعلِيـــمِ والتَّهذِيبِ

فهذا واجبٌ شرعيٌّ؛ فقد أوجَبَتِ الشريعةُ الإسلاميةُ على الآباءِ أن يُحسِنوا تربيةَ أبنائهم ورعايتَهم، وحرَّمت تَضييعَهم وتضييعَ حقوقِهم، وشَرَعت الكثيرَ مـن الأحـكامِ لحفظِ الأبناء؛ ليـؤدِّيَ هذا الحفظُ المعضدَ الـذي وجَب لأهلِه، وإنّ الله تعالـى أوجَـبَ علـى الوالدِ أن يقـيَ أهلَه من النار، ومـا يكونُ ذلك إلا بالتربيـةِ الصالحة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

«فالأولادُ عند والِدِيهم موصًى بهم:

فإمّا أن يقوموا بتلك الوصيةِ، وإمّا أن يُضيِّعوا؛ فيَستَحِقوا بذلك الوعدَ والعقابَ.

ووقايةُ الأهلِ والأولادِ بتأديبِهم وتربيتِهم، على أمرِ الله» بالتعليمِ والتأديبِ.

فصاحبُ الهمّةِ العالية:

هو الذي يَقِي نفسَه وأهلَه من العذابِ؛ وذلك:

بتَركِ المَعاصِي وفِعلِ الطاعات؛ فالمسلمُ الواجبُ عليه أن يُصلِحَ نفسَه أولًا، ويقيَ نفسَه شرَّ النارِ وغضبَ الجبار، ثم يتجهَ ثانيًا إلى تكوينِ أُسرتِه على مبادئِ الدينِ الحنيف، ويغرسَ في نفوسِهم أدبَ القرآنِ الكريم، والفضائلَ الإسلاميةَ العليا.

وهذا حثٌّ من الله تعالى للآباءِ على تربيةِ أبنائهم وأهلِيهم تربيةً إيمانية، نابعةً من كتابِ الله وسنّةِ رسولِه ﷺ من أجلِ المحافظةِ عليهم في الدُّنيا من الانحرافاتِ والفتنِ التي عَمَّت البلادَ والعباد، وفَوزِهم في الآخرةِ برضوانِ الله تعالى وبُعدِهم عن سخطِه وغضبِه.

إنّ مبادرةَ الفردِ المسلمِ في إصلاحِ مجتمعِه ـ ولا سِيَّما ذويه المُقرَّبين ـ له أكبرُ الأثرِ في نهضتِه وارتقائه؛ فالقرآنُ الكريمُ لَمّا دَعا إلى علوِّ الهمةِ دَعا لها بشتّى صُورِها وأشكالِها، لم يجعَلها في نطاقِ الأفرادِ فحَسب؛ وإنما وسَّع دائرةَ الهمّةِ والمبادرةِ في مجتمعِه الذي يعيشُ فيه.

ولا يمكنُ أن تكونَ مهمّةُ الأسرةِ هي عمليةَ الإنجابِ والمحافظةِ على النوعِ البشريِّ فحسبُ؛ بل هي مهمّةٌ تتعدّى مهمةَ الإشباعِ إلى مهمّةِ الإبداعِ في إخراجِ أجيالٍ مسلمةٍ صالحة، يتباهى بها الحبيبُ ﷺ يومَ القِيامة.

ولا نجدُ تصويرًا لأثَرِ الأسرةِ في تنشئةِ الطفلِ السليمِ أبلغَ في التعبيرِ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

فما أشبهَ الأسرةَ بالأرضِ الخِصبةِ الطيبةِ التي تُنبِتُ أطفالًا ذوي طباعٍ خيِّرةٍ نقية، وسلوكٍ نبيل! وما أشبهَ الأسرةَ المنهارةَ في أخلاقِها وسلوكِها بالأرضِ الخبيثةِ التي لا تُنبِتُ إلا نباتًا قليلًا حجمُه ونفعُه! فتَخرجُ أطفالُها بطباعٍ قاسيةٍ وسلوكٍ سيِّئٍ.

فالتربيةُ بصفةٍ عامةٍ تُعَدُّ تنميةً ورعايةً لكلِّ جوانبِ الإنسان؛ سواءٌ العقليةُ أو النفسيةُ أو الوجدانيةُ أو الجسميةُ أو الخُلقيةُ، وفي جانبِ التربيةِ الخُلقية، ولكي يكونَ الخُلُقُ الجيدُ راسخًا في النفس؛ فَإنّهُ يجبُ تكرارُه حتى يصبحَ عادة؛ وذلك بالتدريب، ولا يكونُ ذلك إلا بالتربية.

وهذه القصيدةُ تُعطِيك الطريقةَ والأسلوبَ والقواعدَ، وتهديك للطريقِ الذي سار عليه الصالحون من أمةِ الحبيبِ ﷺ.

وقد ضَرَب لنا أنبياءُ الله أعظمَ مَثَلٍ في سعيِهم المستمرِّ لتأديبِ أبنائهم، وعَلِموا أنّهم قدوةٌ متَّبعةٌ لأبنائهم ولكلِّ البشر؛ فكانوا كبارًا بِهِمَمِهم، وبنَوا مجدَهم بأنفسِهم، وعلَّموا أولادَهم ألا يفتخِروا بنسبٍ أو بعِرق، بل معيارُ التفاخرِ هو هممُهم الموصلةُ إلى مرضاةِ الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: يقتدون بك في الهدى، ويَمشون خلفك إلى سعادتِهم الأبدية، ويحصلُ لك الثناءُ الدائم، والأجرُ الجزيل، والتعظيمُ من كلِّ أحد.

وهذه ـ لعمرُ الله ـ أفضلُ درجةٍ تَنافَس فيها المتنافسون، وأعلى مقامٍ شمَّر إليه العاملون، وأكملُ حالةٍ حصَّلها أولو العزمِ من المرسلِين وأتباعِهم، من كلِّ

صدِّيقٍ متَّبع لهم، داعٍ إلى الله وإلى سبيلِه، فلمّا اغتَبط إبراهيمُ عليه السلام بهذا المقام، وأدرَكَ هذا، طَلَب ذلك لذريتِه؛

لتعلوَ درجتُه

ودرجةُ ذريتِه

وهذا أيضًا من إمامتِه

ونصحِه لعبادِ الله

ومَحبّتِه أن يكثُرَ فيهم المُرشِدون

فلله عَظمةُ هذه الهِممِ العالية، والمقاماتِ السامية».

فانظُر إلى همّةِ إبراهيمَ عليه السلام وعلوِّها؛ بأن دعا الله تعالى وسأله أن يُخرِج من صُلبِه ذريةً تطيعُ الله تعالى وتعبُدُه، ولا يكتفي بذلك؛ بل همتُه أن يكونَ إمامًا يُقتدى به في الخير، وأحبَّ أن تكونَ عبادتُه متصلةً بعبادةِ أولادِه وذريتِه، وأن يكونَ هداهم متعدِّيًا إلى غيرِهم بالنفع، وذلك أكثرُ ثوابًا وأحسنُ مآبًا، فلله دَرُّه ما أعظمَ هِمتَه!

وحرَص إبراهيمُ عليه السلام كُلَّ الحرصِ على تربيةِ أبنائه على هذا المبدأ العظيم، الذي هو التوحيد، وذلك في دعواته: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي موضع آخر: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فكان هذا أسلوبَ إبراهيمَ عليه السلام في تربيةِ أبنائه، فأوّلُ أمرٍ هو الأهلُ والأولاد، فصبَّ همتَه على إصلاحِهم ودعوتِهم، فكان هذا الأسلوبُ وتلك

الوصايا الميمونةُ في عقِبه ونسلِه، فكلٌّ واحدٍ من أبنائه كان موحِّدًا يعبدُ الله ويُربِّي على ذلك ولَدَه، ويعرفُ طريقَ الاستقامةِ والتوبةِ إذا زَلَّت الأقدام.

ولنتأمَّل مسيرةَ يعقوبَ بنِ إسحاقَ عليهما السلام وهو في سياقِ الموت، لقد جمَع أولادَه الاثني عشرَ وراح يُوصِيهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وهكذا فإنّ تربيةَ الأولادِ على الإيمانِ بالله تعالى دأبُ المرسلِين، ونهجُ الأنبياء، وهو النهجُ القويم، والصراطُ المستقيمُ، والعبوديةُ التي من أجلِها خُلِقنا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

وكان ذلـك دأبَ الأنبيـاءِ جميعِهم، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

أوصَـى لُقمـانُ ابنَه بجملةٍ مـن الوصايـا المتضمِّنةِ القيامَ بأعمـالٍ صالحةٍ عديدة، ومنها:

التوحيدُ، وذلك بقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

حيث أمرَ ابنَه أن يعبدَ الله عزّ وجلّ وحدَه، ونهاه أن يعبدَ غيرَه، وأخبَره أنّ الشـركَ ظلمٌ عظيم؛ فهو ظلمٌ لما فيه من وضعٍ للشـيءِ في غيرِ مكانِه، وعظيمٌ لمـا فيـه من التسـويةِ بيـن المُدبِّرِ لكلِّ شـيءٍ ومَـن لا يملكُ نفعًـا ولا ضَرًّا من الأصنام.

التذكيـرُ بالحسـابِ وعلـمِ الله الواسـعِ، وذلك بقـولِ الله تعالـى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فإلـى الله عـزّ وجلّ المرجِع، لا ملجأ منـه سـبحانه إلّا إليـه، فينبِّئُ الإنسـانَ بما غـاب عنه من أمورٍ فـي الدنيا؛ حيث إنّ الإنسـانَ ينسـى، والله لا يخفى عليه شيء، ولا ينسـى ما اقترفَه الإنسانُ من الذنوب، كما لا يخفى عنه ما أدّاه من العبادات.

ومـن الوصايـا المُتعلِّقةِ بالأعمـالِ الصالحةِ أوصى لقمـانُ ابنَه بجملةٍ من الوصايا التي فيها أعمالٌ صالحة، ومنها:

البِرُّ بالوالدَين، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۞ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾؛

حيث حَمَلت الآيةُ إشاراتٍ عديدةً للأسبابِ الدافعةِ إلى برِّ الوالدَين، والجهدِ المبذولِ منهما تجاهَ أولادِهما، وخاصّةً الأم، وما تُعانِيه من جهدِ الحمل، وتعبِ الإرضاع، بالإضافةِ إلى طلبِ الشكرِ للوالدَين؛ لأنّه من الشكرِ لله، وأمرٌ لمَن كان أبواه على الشركِ بالإحسانِ إليهما، وعدمِ طاعتِهما في شركِهما.

إقامةُ الصلاة، وذلك بقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ وكان ذلك انتقالًا منه إلى تعليمِ ابنِه أصولَ الأعمالِ الصالحةِ بعد أن كان يُعلِّمُه أصولَ العقيدة؛ فبدأ بأهمِّ الأعمالِ وهي الصلاة، والتي هي عمودُ الدين، وأمَره بأن يبقى مُقيمًا للصلاة، ومُحافظًا عليها؛ لأنّها من أعظمِ القُرباتِ إلى الله عزّ وجل.

الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، وذلك بقولِه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، وهذه هي وظيفةُ الرُّسلِ عليهم السلام ومهمّتُهم في الأرض؛ فالاقتداءُ بهم من أعظمِ القُرباتِ عند الله تعالى، وتكمنُ أهمّيةُ الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكرِ في حفظِ مصالحِ العباد، وحقوقِهم، فالضروراتُ الخمسُ المعروفةُ لا يكونُ الحفاظُ عليها إلا من خلالِ الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المُنكر، وهي سبيلُ صَونِ العقيدة، وحفظِ الفضيلة، وفلاحِ الأمّة، ونَصرِها.

الصبرُ، وذلك بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ إذ أمَرَ ابنَه بأن يتحمَّلَ ما ينزلُ به من مصائبَ وحوادث، وأوصاه بالصبرِ بعد الأمرِ بالمعروف، والنهيِ عن المنكر؛ لأنّه سوف يتعرَّضُ للإيذاء؛ جرّاءَ هذين الأمرَين، فإن صَبَر فإنّ الله سيجزيه الأجرَ العظيم.

وكذلك الوصايا المُتعلِّقةُ بالعلاقةِ مع الناسِ، إذ ورَد العديدُ من الوصايا فيما يتعلَّقُ بالروابطِ مع الناس، ومنها:

التنفيرُ من الكبرِ وازدراءِ الناسِ، وذلك بقولِه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ إذ نهاه عن احتقارِ الناس، وازدرائهم، والميلِ عنهم بوجهِه، أو إظهارِ هيئةِ المُستخِفِّ بهم.

تركُ الخُيَلاءِ والفخرِ، وذلك بقولِه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وفي هذا نهيٌ صريحٌ عن عمومِ التكبُّر؛ سواءٌ كان في المشي، أو في غيرِه، ونهيٌ عن الفرحِ المُفرِطِ الذي يَظهرُ فيه الكِبر، وبيانُ أنّ الله عزّ وجلّ يُبغِضُ أهلَ التكبُّرِ والخُيَلاء.

الوقارُ والتوسُّط، وذلك بقولِه: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾، وفي هذا أمرٌ له بالاعتدالِ في المَشي، وذلك بالتوسُّطِ فيه؛ دون إسراعٍ أو إبطاءٍ مُخِلَّين.

أدبُ الحديثِ، وذلك بقولِه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، أمَرَه هنا بخفضِ الصوتِ أثناءَ الكلام؛ لِما في ذلك من الوقار، وعدمِ إيذاءِ الناس، وضَرَب له مثلًا بعُلوِّ الصوت، ألا وهو صوتُ الحمير؛ لِما كان معروفًا بين العربِ من قُبحه.

ومن أهم ما ينبغي أن نربي عليه أبناءنا:

أولًا: العقيدة الصحيحة السليمة

عقيدةُ التنزيهِ لله سبحانه وتعالى، لا سيما وقد انتَشرت عقائدُ المشبِّهةِ في هذا الزمنِ، وطَعَنوا في السلفِ الصالحِ من أصحابِ المذاهبِ الأربعةِ، وقَلَّلوا من شأنِهم وحَرَّموا اتِّباعَهم، زاعِمين أنّهم متبِعون للرسولِ ﷺ لا للمذاهبِ، مع أنّ مَراجِعَهم أشخاصٌ في هذا القرن، فهم يتَّبعون عددًا يسيرًا من شيوخِ هذا

العصرِ، ويَأخذون بكلامِهم، ويُحرِّمون الأخذَ من المذاهبِ الأربعة.

إضافة إلى دعواتِ الإلحادِ والعلمانيّةِ والحداثةِ والفجور، والنَّسَويَة وغيرها مما بدأت خيوطه في بلاد أوروبا والدول الإسكندنافية.

والأسرةُ هي المؤسَّسةُ التربويةُ الأولى التي تحملُ على عاتقِها تربيةَ الأبناء؛ فهي تتولَّى تشكيلَ المعتقَدِ والقِيَمِ والأفكار؛ وذلك مصداقًا لقولِ الحبيبِ المصطفى ﷺ: «ما من مولُودٍ إلا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبواهُ يُهوِّدانِهِ أو يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسانِهِ، كما تُنتَجُ البهِيمةُ بَهِيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فِيها من جدعاء؟»[١]. وفي الحديثِ تأكيدٌ لدَورِ الوالدَين في تربيةِ الأبناء، وتحميلُهم تَبِعاتِ مسؤوليةِ التربية.

وما دامت عقيدةُ الأُمةِ ومنهجُها الإسلامَ، فإنّه يجبُ أن تأخذَ هذه العقيدةُ التي هي مقياسُ صلاحِ الإنسانِ حظًّا وافرًا داخلَ الأسرة.

ومن المُسلَّمِ به لدى علماءِ التربية: أنّ التربيةَ التي يتعرَّضُ لها الإنسانُ في بدايةِ نشأتِه مسؤولةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ عمّا يَطرأُ للإنسانِ من اعتقادٍ سليمٍ أو خاطئ، وعلى الآباءِ تقعُ مسؤوليةٌ كبيرةٌ تجاهَ أبنائهم.

فمن الواجبِ على الأسرةِ المسلمةِ ـ ونحن في عصرٍ اختلطَت فيه المفاهيمُ والقِيَمُ لدى كثيرٍ من أبناءِ المسلِمين ـ أن تعمِدَ إلى ترسيخِ المفاهيمِ الصحيحةِ السليمةِ التي سار عليها علماءُ الإسلامِ من أصحابِ المذاهبِ الأربعةِ وأتباعِهم لدى أبنائها منذ السنواتِ الأولى، وتُرضِعُه العقيدةَ كما

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) مطولًا، ومسلم (٢٦٥٨) مطولًا باختلاف يسير.

ترضعُه الحليب؛ فالتربيةُ العقائديةُ السليمةُ لها دورٌ كبيرٌ في تربيةِ الطفلِ المسلم، وإكسابِه المناعةَ اللازمةَ ضدَّ الأفكارِ والعقائدِ المنحرفة؛ ولذلك لا بدَّ من التركيزِ على البناءِ العقائديِّ السليمِ للأبناء؛ لمنحِهم الحصانةَ الكافيةَ لمواجهةِ التحدياتِ والمغرياتِ التي يُعايِشونها في واقعِهم.

ومن مقترحاتِ الكتبِ التي تُعلَّمُ للأطفال:

- «بداية الهداية» للإمامِ الغَزالي؛ فهو شاملٌ للعلومِ الضرورية.
- و«عقيدةُ العوام» للعلّامةِ أحمدَ المَرزُوقي.
- و«عقيدةُ أهلِ الإسلام» للإمامِ الحدّاد.
- و«سُلَّمُ التوفيق» للحبيبِ عبدِ الله بنِ حسينِ بنِ طاهر.
- و«الخريدةُ البهية» للدَّردير.
- و«جوهرةُ التوحيد» للَّقاني، وله مختصرٌ اسمُه «مختصر جوهرة التوحيد» لشيخِنا العلّامةِ الشيخِ نوح القضاة رحمه الله تعالى رحمةَ الأبرار.
- و«سمط الدرر في عقيدة أهل السنة الغرر» وهو كتاب من جمع الفقير لله تعالى.

وغيرُها كثيرٌ من كتبِ أهلِ السنةِ الأشاعرةِ والماتُريديةِ جزاهم الله عن الإسلامِ والمسلمِين خيرَ الجزاء.

ثانيًا: الفقه الإسلامي

فيما يتعلّق في العبادات والمعاملات:

فيبدؤون معهم بتعليمِ الطهارةِ والصلاةِ والصيامِ، وإذا كان عندهم المالُ يعلِّمونهم الزكاة، ويَربُطونهم بالفقهاءِ المعتبَرين، وأهلِ العلمِ المُسنِدِين

بأسانيدَ صحيحةٍ إلى النبيِّ ﷺ؛ ليعبدوا الله حقَّ عبادتِه بالشكلِ الصحيحِ الذي يُرضي الله عنهم.

ومن أهمِّ كُتبِ الشافعيّةِ للمبتدئين:

- «الرسالةُ الجامعةُ» للحبيبِ أحمدَ بنِ زينٍ الحَبشيِّ.
- و«سفينةُ النجا» للشيخِ سالمِ بنِ سميرٍ الحَضرَمي، وهو من الكتبِ المهمّةِ للمبتدئين في تعلُّمِ شرائعِ الدين.
- و«المختصرُ اللطيفُ» للعلّامةِ عبدِ الله بنِ عبدِ الرحمنِ بافضل (ت٩١٨هـ).
- و«متنُ أبي شُجاع» للعلّامةِ أحمدَ بنِ الحسينِ الأصفَهانيِّ (٤٣٣-٥٠٠هـ) المشهورِ بأبي شُجاع.
- وكذا كتابُ «الياقوت النفيس» لمؤلِّفه أحمدَ بنِ عمرَ العَلَويِّ الحَضرَميِّ الشاطِري، وهو مؤلَّف حافل، جمَع أُسسًا وقواعدَ وأصولًا تضبطُ جميعَ الأبوابِ الفقهيةِ وحدودَها الجامعةَ المانعة، كتَبه العلّامةُ الشريفُ أحمدُ بنُ عمرَ الشاطِريُّ باختصارٍ غيرِ مُخِلّ، وعبارةٍ سهلةٍ جَزلة، وتعليقُه لم يَترُك شيئًا يحتاجُ إليه الطالبُ إلا ووفَّى به.
- وكتابُ «عمدة السالك» لابنِ النقيبِ الشافعيِّ (٧٠٢هـ-٧٦٩هـ).

ثالثًا: التربية والسلوك

اهتمَّ الإسلامُ بالأخلاق، واعتبرَها الأساسَ الذي تَستندُ إليه كلُّ المعاملاتِ الإنسانية، وقد أثنى الله عز وجل وامتدحَ نبيَّه ﷺ بقولِه سبحانه

وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقد وجَّه النبيُّ ﷺ الآباءَ إلى ممارسةِ دورِهم التربويِّ الأخلاقي؛ فالأسرةُ مأمورةٌ أن تُعوِّدَ أبناءها السلوكَ الأخلاقي، وتعديلَ السلوكِ الذي يتنافى مع الأخلاقِ الإسلاميةِ بالممارساتِ والإجراءاتِ التي يمكنُ إجمالُها فيما يأتي:

١ـ ترسيخُ خُلُقِ الأمانةِ في نفوسِ الأبناء؛ حيث إنّ الإنسانَ وحده هو المؤهَّلُ لحملِ الأمانة، وهذه التبعةُ الثقيلةُ هي مناطُ التكريمِ الذي أعلنَه الله في الملأ الأعلى، وعليه أن ينهضَ بتلك الأمانة؛ حتى يصلَ إلى مقامٍ كريم؛ وذلك مصداقًا لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ـ غرسُ خُلُقِ الصبرِ في أنفُسِهم؛ وذلك أسوةً بالحبيبِ ﷺ الذي أُوذِي في مكة، وهَجَر بيتَه ووطنَه، وحُوصِر في شِعبِ أبي طالب، وبيانُ أجرِ الصابرين؛ وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

٣ـ غرسُ خُلُقِ الصِّدقِ في نفوسِ الأبناء؛ فالمسلمُ صادقٌ ظاهرًا وباطنًا، وقولًا وفعلًا، فإنّ الصدقَ أصلٌ من أصولِ الأخلاق، وهو المحكُّ لمعرفةِ درجةِ الإيمانِ.

كذلك في المجال الاجتماعي:

تُعتبَرُ الأسرةُ حلقةَ وصلٍ بين النشءِ والمجتمع الكبير، ولها دورٌ مهمٌّ في التنشئةِ الاجتماعيةِ الصحيحةِ للأبناء؛ فالشخصيةُ لا تُولَدُ مع الفرد، ولكنّها

تُولَدُ تدريجيًّا بتفاعُلِه في المحيطِ الاجتماعيِّ الذي يَنشَأُ فيه والأسرة، ويمكنُ إجمالُ دَورِ الأسرةِ في هذا المجالِ من خلالِ ما يأتي:

١ـ تعليمُ الأبناءِ ردَّ السلام، كما ورَد بالصيغةِ المتعارَفِ عليها؛ لِما فيه من شيوعِ المحبّةِ والتآلُفِ في الأسرةِ والمجتمعِ ومواطنِ الرباط، ومصداقُ ذلك قولُه ﷺ: «لن تدخُلوا الجنَّةَ حتى تُؤمنُوا، ولن تُؤمنُوا حتى تحابُّوا، أوَلا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتُموه تحاببتُم؟ أفشُوا السَّلام بينكُم»[1].

٢ـ تعويدُ الأبناءِ على آدابِ الاستئذانِ داخلَ البيتِ قبل البلوغ وبعده؛ وذلك مصداقًا لقولِه سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

٣ـ لفتُ انتباهِهم إلى غضِّ البصرِ عن المحرَّمات؛ إذ لا بد للحياةِ من ضوابطَ مع الفرد؛ فالإسلامُ يهدفُ إلى إقامةِ مجتمعٍ نظيفٍ لا تهيجُ فيه الشهواتُ كلَّ حين؛ وذلك مصداقًا لقولِه سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

٤ـ ربطُ الأبناءِ بالصحبةِ الصالحة، وقد دلَّت نتائجُ الدراساتِ أنّ للصحبةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨)، وابن ماجه (٦٨) واللفظ له، وأحمد (٩٧٠٩).

أثـرًا بالغًـا فـي نموِّ الطفـلِ النفسـيِّ والاجتماعي؛ فهـي تُؤثِّرُ في قِيَمِـه وعاداتِه واتجاهاتِـه، وقـد حذَّر القرآنُ الكريمُ من رُفقاء السـوء؛ وذلـك مصداقًا لقولِه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٨].

ولقولِه ﷺ: «لا تُصاحِب إلا مُؤمِنًا، ولا يَأكُل طَعامَكَ إلا تَقِيٌّ»(١).

وفي التعامل الروحي والنفسي:

يُشكِّلُ المجالُ النفسيُّ الوجدانيُّ مساحةً واسعةً في نفسيّةِ الطفل(٢)، فإذا سلَّمنا بأهميّةِ مرحلةِ الطفولة، فإنّنا نُسلِّمُ أيضًا بقدرِ الأهميةِ للأسرة؛ باعتبارِها الوسـطَ البيئيَّ الذي يعيشُ فيه الفرد، ويكتسبُ من خلالِها اتجاهاتِه الأساسيةَ التـي تُعتبَـرُ محـدِّداتٍ لسـلوكِه، والتي يُفضِّـلُ أن يتفاعلَ معهـا، وبالتالي فهي العامـلُ البيئـيُّ الأوَّلُ بـلا منازعٍ. ويمكنُ إجمالُ دورِ الأسـرةِ فـي هذا المجالِ من خلال:

١ـ إرواءِ الحاجـةِ إلـى الحـبِّ والحنـان، وقـد أثنـى النبيُّ ﷺ على نسـاءِ قريـش؛ لحنانِهـن على أولادِهن، ومصـداقُ ذلك قولُه ﷺ: «خيرُ نسـاءٍ ركِبنَ الإبِلَ صالـحُ نساءِ قُرَيـشٍ؛ أحناهُ على ولَدٍ فـي صِغَرِه، وأرعـاه على زوجٍ في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥) واللفظ لهما، وأحمد (١١٣٣٧) باختلاف يسير.

(٢) انظـر: كتـاب نمـو الإنسـان من مرحلـة الجنين إلـى مرحلة المسـنين، لآمال صـادق ـ فؤاد أبو حطب (ص١٢٢).

ذات يدِهِ»(١).

٢ـ غرسِ الثقةِ بالنفسِ مُبكِّرًا، فلا بُدَّ من تعويدِهم على حملِ المسؤولية، وهـذا ما يُستدَلُّ عليه من الهدي النبويِّ في حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: «أتى علَيَّ رسولُ الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغِلمان، فسلَّم علينا، فبعَثني إلى حاجَةٍ، فأبطأتُ على أمِّي، فلمّا جِئتُ قالت: ما حبَسك؟ قلتُ: بعَثني رسُولُ الله ﷺ لِحاجَةٍ، قالت: ما حاجتُهُ؟ قلتُ: إنَّها سِرٌّ، قالت: لا تحدِّثنَّ بسرِّ رسُولِ اللهِ ﷺ أحدًا»(٢).

٣ـ تحذيرِ الأمِّ لأبنائها من التكبُّرِ والخُيَلاءِ إلا أمامَ صفوفِ الأعداء، ومصداقُ ذلك قولُه ﷺ لأبي دُجانة: «إنَّها لَمِشيةٌ يُبغِضُها الله، إلا في مثلِ هذا المَوضِع»(٣).

٤ـ إرواءِ حاجةِ الأبناءِ في الملاطفةِ والممازحة؛ فعن أنسٍ قال: «كان

---

(١) انظر: كتاب إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، لابن حجر العسقلاني (١٥: ١٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٨٢).

(٣) قال ابن إسحاق في حديثه عن غزوة أحد: وقال رسول الله ﷺ: «من يأخذ هذا السيف بحقّه؟» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، أخو بني ساعدة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني». قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إيّاه. وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أُعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين.
قال ابن إسحاق: فحدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، عن رجل من الأنصار من بني سلمة، قال: قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن». انظر: الروض الأنف (٥: ٤٢٧).

النَّبيُّ ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقًا، وكان لي أخٌ يقالُ له: أبو عُمَير، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عُمير، ما فعَل النُّغير؟». نُغَرٌ كان يلعبُ به، فربما حضَر الصلاةَ وهو في بيتِنا، فيأمُرُ بالبِساطِ الذِي تحتهُ فيُكنَسُ ويُنضَحُ، ثُم يقُومُ ونقُومُ خلفهُ فيُصلِّي بِنا»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ. وفي روايةِ الترمذيِّ: «قال أنس: إن كان النبيُّ ﷺ لَيُخالِطُنا حتى يقولَ لأخٍ لي: «يا أبا عُمَير، ما فعَل النُّغَير؟»»[١].

مات نُغَرُه، فقال له: «يا أبا عُمَير، ما فعَل النُّغَير؟» ملاطفةً وتأنيسًا له وتسليةً، وفيه جوازُ تكنيةِ مَن لم يُولَد له، وتكنيةُ الطفل، وأنّه ليس كذبًا، وجوازُ المزحِ فيما ليس بإثم، وجوازُ السجعِ في الكلامِ الحسنِ بلا كُلفة، وملاطفةُ الصبيانِ وتأنيسُهم، وبيانُ ما كان عليه المصطفى من حُسنِ الخُلُق، وكَرَمِ الشَّمائلِ والتواضُع.

قال الجَوهريُّ: النُّغير: تَصغِيرُ نُغَر، والنُّغَرُ جَمعُ النُّغَرة، وهو طائرٌ صغيرٌ كالعصفور، والجمعُ نِغرانٌ مِثلَ صُرَدٍ وصِردانٍ[٢].

ومن كتب السلوك للمبتدئين:

- هذا المتنُ الذي بين أيدينا: «رياضة الصبيان».
- وأيضًا كتابُ «بداية الهداية»، وكتابُ «أيها الولد» كلاهما للإمامِ الغزاليِّ رحمه الله تعالى.

---

(١) وهذا الحديث استنبط منه الإمام الشافعي سبعين مسألة فقهية.

(٢) رواه البخاري في الأدب وغيره، ومسلم في الصلاة والاستئذان، وفضائل النبي، والترمذي في الصلاة، وابن ماجه في الأدب، وفي رواية الترمذي وكذا البخاري في الأدب، بهذا اللفظ أيضًا، ومسلم. انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للزرقاني المالكي (٦: ٧٠).

ـ وكذلك كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» للإمام النَّوَوي.

ـ و«سُلَّم التوفيق» الذي ذكَرناه سابقًا للحبيبِ عبدِ الله بنِ حسينِ بنِ طاهرٍ،

ـ وكذلك كتابُه «هدية الرفيق».

ـ وكتابُ «الأخلاق للبنات»، مُكوَّنٌ من ثلاثةِ أجزاءٍ.

ـ وكتاب «المعاونة والمؤازرة» للإمام الحدّاد.

ـ وكتاب «مع الصادقين» وهو كتاب من جمع الفقير لله تعالى.

وغيرُها كثيرٌ.

فبهذه النقاطِ الثلاثِ نكونُ قد طَبَّقنا ما ورَد في حديثِ جبريلَ عليه السلام حينما سأل النبيَّ ﷺ عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، ومن هذا الحديثِ أخَذ العلماءُ أنّ أركانَ الدينِ ثلاثةٌ: الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ.

مع كلِّ ما ذكَرنا، إذا قام الأبُ بفعلِه أو المؤدِّبُ ربما يتأثَّرُ الأبناءُ بالأصحابِ، ويكونون على غيرِ مرادِ والِدِيهم ومُعلِّمِيهم، ويُبتلَون بهم حتى إنّ بعضَ أبناءِ الأنبياءِ والصالحِين والعُلَماءِ كانوا فاسدِين لسُوءِ اختيارِهم، وهذا لا يُبطِلُ أجر الوالِدِين والمعلِّمِين؛ فالأعمالُ بالنيّاتِ، وهذا قليلٌ، والغالبُ أنّ الأبناءَ إذا عاشوا في البيئةِ التي ذكَرناها وسنذكرُها فيكونون صالحِين إن شاء الله، وركَّز في القصيدةِ على الأولادِ الذكورِ؛ لأنّ تربيتَهم أصعب؛ قالوا: تربيةُ الصبيانِ كقُرطِ الصوانِ، إلا مَن رحِم ربي.

قال حكيمٌ: «الأبناءُ خمسة:

١ـ **أحدهم**: لا يفعلُ ما يأمرُه به والداه، فهذا (عاقٌّ).

٢ـ والثاني: يفعلُ ما يُؤمَرُ به وهو كاره، فهذا (لا يُؤجَر).

٣ـ والثالث: يفعلُ ما يُؤمَرُ به، ويُتبِعهُ بالمنِّ والأذى والتأفُّفِ ورَفعِ الصوتِ، فهذا (يُؤزَر).

٤ـ والرابع: يفعلُ ما يُؤمَرُ به بطيبةِ نفس، فهذا (مأجور)، وهذا قليل.

٥ـ والخامس: يفعلُ ما يُريدُه والداه قبل أن يأمُراه به، فهذا هو (البارُّ الموفَّق)، وهذا نادر.

والصِّنفان الأخيران؛ لا تسأل عن بركةِ أعمارِهم، وسَعةِ أرزاقِهم، وانشراحِ صُدورِهم، وتيسيرِ أمورِهم».

قال الشاعرُ الميدانيُّ رحمه الله تعالى: [الوافر]

فَيَا عَجَبًا لِمَن رَبَّيتُ طِفلًا ... أُلَقِّمُهُ بِأطرَافِ البَنَانِ
أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَومٍ ... فَلَمَّا استَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
أُعَلِّمُهُ الفُتُوَّةَ كُلَّ وقتٍ ... فَلَمَّا طَرَّ شَارِبُهُ جَفَانِي
وكَم عَلَّمتُهُ نَظمَ القَوافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

ربَّنا هَب لنا من أزواجِنا وذُرياتِنا قرة أعين.

والحمدُ لله ربِّ العالمِين، وصلى الله على سيِّدِنا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وسلم.



مراد الإمام الغزالي بـ«رياضة الصبيان»

وأراد بالصِّبيانِ ـ كما يَظهرُ من التسميةِ ومما حواه النظمُ ـ الأولادَ الذكورَ والإناثَ، وبَعضُ النقاطِ تخصُّ الذكورَ لكن ما تطرَّق للأمورِ الخاصةِ بالبناتِ، لكن إن شاء الله سنذكرُ في الشرحِ ما يتعلَّقُ بالبناتِ من الأخلاقِ.

وفيه القواعدُ التربويةُ النبويةُ والآدابُ والأخلاقُ الدينيةُ للصبيانِ مُقسَّمةً حسبَ المراحلِ التي يمرُّ بها الصبيُّ؛ من مرحلةِ الحملِ إلى ما بعد الولادةِ والبلوغِ.

جعَلها الناظمُ خمسَ مراحلَ؛ كما سيأتي، يذكرُ في كلِّ مرحلة: ما الأمورُ التي يُعلَّمُها الطفلُ ويؤدَّبُ عليها؟ وما أفضلُ طريقةٍ للتربيةِ في هذه المرحلةِ؟

ناظم هذه القصيدة:

وأمّا ناظمُها فهو شمسُ الدينِ الرَّمليُّ، محمدُ بنُ أحمدَ بنِ حمزةَ، فقيهُ الديارِ المصريةِ في عصرِه، ومرجِعُها في الفتوى، يُقال له: الشافعيُّ الصغير، وكان مولدُه بالقاهرةِ سنة ٩١٩هـ، ووفاتُه بها كذلك سنة ١٠٠٤هـ، ومن مؤلَّفاتِه: «غايةُ البيانِ في شرحِ زبدِ ابنِ رسلان»، و«نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج»، وتجدُ له ترجمةً في «خلاصة الأثر» للمُحبِّي، و«الأعلام» للزِّرِكْلي[١].

(١) تراجم موجزة للأعلام (١: ٢٣١)، موقع وزارة الأوقاف المصرية.

وقـد نظَـم ما قـرَّره الغزاليُّ رحمـه الله في «إحياء علوم الديـن»، من قوله: «بيـانُ الطريـقِ في رياضةِ الصبيانِ في أوَّلِ نُشُـوِّهم، ووجهُ تأديبِهم، وتحسـينِ أخلاقِهم» إلى آخرِه، مع بعضِ التقديمِ والتأخير، وحذَف مواضعَ يسيرةً منه.

قال رحمه الله تعالى:

[١] الحَمـــــدُ للهِ وليِّ الحَمـــــدِ مُوفِّــقِ الخَلْــقِ لِكُلِّ رُشْــدِ
[٢] عَلَى الَّذِي بِــهِ عَلَيْنَــا أنعَمَــا حَمْــدًا يَعُمُّ الأرضَ طُرًّا والسَّــمَا
[٣] ثُــمَّ الصَّــلاةُ بَعدَمَــا قُلنَــا بِهِ عَلَى النَّـــــبِي وآلِهِ وصَحبِـــــهِ

بدَأ الناظمُ بحمدِ الله تعالى، وبيَّن أنَّ الله مُسـتحِقٌّ للحمدِ سـبحانه؛ لأمورٍ ثلاثة:

- لأنّه وليُّ الحمدِ ومُستحِقُّه سبحانه.
- ولأنّه مُوفِّقُ كُلِّ الخلائقِ لكلِّ رُشدٍ.

فمعنى التوفيقِ يدورُ حول إلهامِ الخير، وتيسيرِه؛ جاء في «لسان العرب»: ووفَّقه الله سُبحانَهُ لِلخَيرِ: ألهَمَه، وهو من التَّوفيق، وجاء في «المعجم الوسيط»: «التَّوفِيق» من الله للعَبدِ: سدُّ طَرِيقِ الشَّرِّ وتسهيلُ طَرِيقِ الخَير. انتهى.

وقـد يكـونُ قصـدُك بالتوفيقِ أعمَّ من ذلـك أو بما يشـملُ التوفيقَ لخيرَي الدُّنيا والآخرةِ، ومِثالُه ما ورَد في قصةِ أرطغرل وبدايةِ ظُهورِه[١].

(١) لقد نزحت أسـرٌ مسلمةٌ من خراسـان إبان الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي، وبعد موت جنكيـز خـان أراد البعـض العودة إلى الأرض الأمّ، أرض الآبـاء، وفي طريقهم لقي قائدهم سـليمان بن قيالب مصرعه، وانقسـموا من بعده، فمنهم من واصل سـيره إلى خراسـان، =

ـ ولأنّه المُنعِمُ علينا بسائرِ أنواعِ النِّعَم، ومنها نعمةُ الإيجادِ ونعمةُ الإمدادِ.

ـ ووصَف هذا الحمدَ بأنّه حمدٌ عامٌّ؛ يعمُّ الأرضَ والسماء.

ـ ثم صَلَّى على ثلاثة: على النبيِّ صلى الله عليه، وعلى آلِه، وعلى صَحبِه، وسَلَّم.



= ومنهم من اتجه نحو الغرب ينشدون المقرّ الأمين، وكان القائد لهذه الأسر ـ نحو أربعمئة أسرة ـ هو أرطغرل بن سليمان، ولقد لاحت له من بعيد هذه المعركة بين جيش علاء الدين سلطان دولة سلاجقة الروم المسلمة وجيش المغول، لم يكن أرطغرل يعرف الجيشين المتقاتلين، ولكن أخذته النخوة بإعانة الجيش الأضعف فانقضّ على جيش المغول وقاتلهم حتى انهزموا، وكم كانت فرحة الفريقين بالنصر! فقد تبين له أن الجيش الذي نصره هو جيش المسلمين، وبالطبع صارت له مكانةٌ عند علاء الدين فأقطعه جزءًا من الأرض، واستعان به بعد ذلك في حروبه، وورث عثمانُ أرطغرلَ، وعثمان هذا هو من تُنسَب إليه الدولة العثمانية. فتأمل في التوفيق، وتذكّر قول الله تعالى ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، توافق مجيء هذه الأسر مع توقيت المعركة وظهور الضعف في الجيش المسلم، توفيقًا من الله للجيش المسلم للنصر، وتوفيقًا لعباده المؤمنين لتأسيس دولة مسلمة تحيا بها هذه الأمة من جديد، وتصير يومًا أقوى وأوسع دولة في العالم. وما كانت هذه الوصية إلا وصية محمد الفاتح لابنه، فتأمل فيها تحقير نفسه ورؤية فضل الله ورحمته ومنّته وتوفيقه، ولو بحثنا في بعض الملامح من التوفيق له، أو لبعض آبائه، أو لرجل من ذريته وهو السلطان سليمان القانوني لطالت بنا الصفحات..

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى:

[١] الحَمــــــدُ لله وليِّ الحَمــــــدِ   مُوفِّـــقِ الخَلـــقِ لِكُلِّ رُشـــدِ
[٢] عَلَى الَّذِي بِــهِ عَلَينَــا أنعَمَــا   حَمــدًا يَعُمُّ الأرضَ طُرًّا والسَّــمَا

الشرح:

الحمد لله: تعني الثناءَ على الله لكمالِ صفاتِه وعلوِّ شأنِه سبحانه وتعالى، فهي تُعبِّرُ عن شكرِ الله على نعمتِه، وتُعبِّرُ كذلك عن الثناءِ على الله لغيرِ نعمةٍ، بـل لجميلِ صفاتِـه، فيُحمَدُ الله علـى عظمتِه وجلاله كما يُحمَدُ على إحسـانِه وإكرامِـه؛ قال تعالـى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨].

أقسام الحمد:

أقسامُ الحمدِ أربعةٌ، وهي:

حَمدُ قَدِيمٍ لقَدِيمٍ.
وحَمدُ قديمٍ لحادِثٍ.
وحمدُ حادثٍ لحادِثٍ.
وحمدُ حادِثٍ لقَدِيمٍ.

* * *

بيان تقويم الأركان في الأقسام:

١ـ حَمدُ قديمٍ لقديمٍ:

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، فكلٌّ من الحامدِ والمحمودِ هو الله سبحانه وتعالى، والمحمودُ به الكمالاتُ الإلهية، والمحمودُ عليه الحكمةُ المنطويةُ تحت ذلك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى مُنزَّهٌ عن الأغراضِ في الأفعالِ والأحكام، وصيغةُ الحمدِ هي قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

٢ـ وحَمدُ قديمٍ لحادث:

كقوله عز وجل: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

فالحامدُ هو الله سبحانه وتعالى، والمحمودُ هو العبدُ في الظاهرِ والله سبحانه تعالى في الحقيقةِ؛ لأنّه جلّ شأنه خالقٌ للعبدِ وما عَمِل؛ كما قال جل وعز: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال صاحبُ «جوهرة التوحيد» الشيخُ إبراهيمُ اللَّقانيُّ رحمه الله تعالى ونفَعنا بعلومه آمين:

فَخَالِقٌ لِعَبدِهِ ومَا عَمِلْ　　مُوفِّقٌ لِمَن أرَادَ أن يَصِلْ
وخَازِلٌ لِمَن أرَادَ بَعدَهُ　　ومُنجِزٌ لِمَن أرَادَ وعدَهُ
فوزُ السَّعِيدِ عِندَهُ في الأزَلِ　　كَذَا الشَّقِيُّ ثُمَّ لَم يَنتَقِلِ

٣ـ وحَمدُ حادثٍ لحادث:

كما إذا أكرَمَك زيدٌ فقلت: زيدٌ عالم. فأنت حامدٌ وزيدٌ محمودٌ، والكرمُ محمودٌ عليه، والعِلمُ محمودٌ به، وكريمٌ صِيغةُ الحَمدِ.

٤ـ وحمدُ حادثٍ لقديم:

كقولـك: الحمـدُ لله ربِّ العالَمِين، فأنت حامدٌ، والله سـبحانه وتعالى هو المحمود، والمحمودُ عليه هي نِعمتَي الإيجادِ والإمدادِ وما بينهما، وهي النعمُ التي لا تدخلُ تحت حَصرٍ، والمحمـودُ به هو مدلول قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وهـي الكمـالاتُ الإلهيـةُ التـي لا حصـرَ لهـا. والله سبحانه وتعالى لمّا علِم عجزَ خلقِه عن كُنهِ حمدِه حمِد نفسَه بنفسِه أزلًا، ولمّا خلَـق الخلـقَ فيما لا يـزالُ أمَرهم تفضُّـلًا ورحمةً منه أن يَحمَدوه على سـبيلِ الحكايـةِ بحمـدِه القديـمِ؛ لينالوا عظيـمَ الأجرِ والتكريـمِ، جلّ الكريـمُ المنّانُ الرؤوفُ الحنانُ.



قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٣] ثُــمَّ الصَّــلاةُ بَعدَمَــا قُلنَــا بِهِ عَلَى النَّـــــبِي وآلِهِ وصَحبِـــــهِ

الشرح:

الصلاةُ من الله: الرحمةُ.

ومن الملائكةِ: الاستغفارُ.

ومن المؤمِنين: الدعاءُ(١)، وتُستحَبُّ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ في:

- بداياتِ الحديثِ.
- والمقدِّمات.
- والخطبِ، وفي خطبةِ الجمعةِ واجبةٌ، وفي الصلاةِ ركنٌ من أركانِها، وهذا دليلُ فضلِ الحبيبِ ﷺ؛ قال الله له: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ أي: لا يُذكَرُ الحقُّ سبحانه وتعالى إلا ويُذكَرُ معه رسولُ الله ﷺ.

الفرق بين النبي والرسول:

أنَّ الرسولَ: إنسانٌ أُوحيَ إليهِ بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغِه.

والنبيُّ: إنسانٌ أُوحيَ إليهِ بشرعٍ فلم يُؤمَر بتبليغِه، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا.

---

(١) شرح السنة، للبغوي (٣: ١٨٩).

وعند علمائنا الأشـاعرةِ الذين هم أهلُ السـنّةِ والجماعـةِ: أنّ أوَّلَ واجبٍ علـى المكلَّـفِ أن يعرفَ ما يجبُ في حقِّ الله تعالى وما يستحيلُ وما يجوز، وأن يعـرفَ مـا يجـبُ وما يسـتحيلُ وما يجوزُ في حـقِّ الرسُـلِ عليهم الصلاة والسلام.

فمـا الواجـبُ فـي حقِّ الرسُـلِ عليهم الصلاة والسـلام؟ ومـا المُحالُ في حقِّهم؟ وما الجائزُ في حقِّهم؟ وما برهانُ ذلك؟

قال الناظمُ ابنُ عاشرٍ رحمه الله:

أمــانَــةٌ تَـبـلِـيـغُـهُـم يَـحِـقُّ ... يَجِبُ لِلرُّسْــلِ الكِرامِ الصِّدقُ
كَعَــدَمِ التَّبلِيــغِ يــا ذَكِــيُّ ... مُحــالٌ الكَــذِبُ والمَنهِــيُّ
ليس مُؤَدِّيًا لِنَقــصٍ كَالمَرَضْ ... يَجُــوزُ في حَقِّهِــمُ كُلُّ عَرَضْ
أن يَكــذِبَ الإلَهُ في تَصدِيقِهِمْ ... لَو لَــم يَكُونُوا صادِقِيــنَ لَلَزِمْ
صَدَقَ هَذا العَبــدُ في كُلِّ خَبَرْ ... إذ مُعجِزاتُهُــم كَقَولِــهِ وبَــرّْ

الشَّرحُ:

الصدق: مطابقةُ الكلامِ للواقِع.

العَرَض: ما لا يَقومُ بنفسِه ولا يُوجدُ إلا في مَحَلٍّ يَقوم به؛ كحُمرةِ الخَجَلِ وصُفرةِ الوجَل.

أولًا: ما يجبُ في حقِّ الرسُلِ عليهم الصلاة والسلام

قال الناظمُ رحمه الله:

أمــانَــةٌ تَـبـلِـيـغُـهُـم يَـحِـقُّ ... يَجِبُ لِلرُّسْــلِ الكِرامِ الصِّدقُ

أ ـ الصدق:

في كلِّ ما يُبلِّغون عن المولى تبارك وتعالى؛ بألا يكونَ خبرُهم في ذلك إلا مطابقًا لِما في نفسِ الأمر، ولا يقعَ منهم الكذبُ في شيءٍ من ذلك، لا عمدًا ولا سهوًا إجماعًا عند المحقِّقين. وقد أوصانا ربُّنا باتِّباع الأنبياءِ والرسُلِ؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله: «واختُلِف في المُرادِ هُنا بالمُؤمِنينَ والصادِقِينَ على أقوال، قيل: هم الأنبياء؛ أي: كُونوا مَعَهم بالأعمالِ الصالحةِ في الجَنَّة»[١].

ب ـ الأمانة:

وهي حفظُ جميعِ الجوارحِ الظاهرةِ والباطنةِ من التلبُّسِ بمنهيٍّ عنه نهيَ تحريمٍ أو كراهة، ويُسمّى صاحبُها أمينًا؛ للأمنِ في جهتِه من المخالفةِ لِما حُدَّ له وأُوصِيَ به. وقد قال النبيُّ ﷺ: «ألا تَأمَنُوني وأنا أمِينُ مَن في السَّماءِ؛ يَأتِينِي خَبَرُ السَّماءِ صَباحًا ومَساءً»[٢]. أي كيف لا تأمنوني على تبليغ رسالة الله وأنا أمين على ما جاءني من السماء، أي من طريق جبريل الوحي، وفي تفسير الطبراني: «في السماء» أي قدرته وملكه، وقال القرطبي: هو الملك الموكل بالعذاب، ويطلق لفظ السماء لعلو المكانة لا المكان.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨: ٢٨٨).

(٢) صحيح البخاري، باب بعث علي بن أبي طالب.

ج ـ تبليغ كل ما أمرهم الله سبحانه بتبليغه:

اتَّفقت الأمةُ على أنّ الرسُلَ معصومون في تحمُّلِ الرسالة، فقد بَلَّغوا كلَّ ما أُمِروا بتبليغِه، ولم يَترُكوا شيئًا منه لا نِسيانًا ولا عَمدًا، فلم يَنسَ الرسُلُ شيئًا مما أُوحِي إليهم من عند رَبِّهم، إلا ما أراد الله نَسْخَه؛ قال تعالى عن سيدِنا مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وقد بَلَّغوا ما أوحاه الله إليهم ولو عِتابًا نَزَل في حقِّهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قالت عائشةُ رضي الله عنها: لو كان النبيُّ ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحيِ لكتَم هذه الآيةَ(١).

د ـ الفطانة:

أي: ضُمَّ لِما تَقدَّم مما يجبُ لهم: الفطانةَ، وهي التفطُّنُ والتيقُّظُ لإلزامِ الخصومِ وإبطالِ دعاويهم الباطلة. والدليلُ على وجوبِ الفطانةِ لهم

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤: ١٨٩).

عليهـم الصلاةُ والسـلامُ آياتٌ؛ كقولِه تعالـى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والإشارةُ عائدةٌ إلى ما احتجَّ به إبراهيمُ على قومِه في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلـى قولـه: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وكقولِه تعالى حكايةً عـن قـومِ نـوحٍ: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]؛ أي: خاصَمتَنا فأطَلـتَ جدالَنـا، أو أتيتَ بأنواعِه. وكقولِه تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: بالطريقِ التي هي أحسنُ بحيث تشتملُ على نوعِ إرفاقٍ بهم.

ومَـن لـم يكن فَطِنًـا بأن كان مُغفَّـلًا لا تُمكِنُه إقامةُ الحجّةِ ولا المجادلةُ، **لا يقـال**: هـذه الآياتُ ليسـت واردةً إلا في بَعضِهم فلا تدلُّ على ثبوتِ الفطانةِ لجميعِهـم؛ **لأنّـا نقول**: ما ثبَت لبعضِهم من الكمالِ يثبتُ لغيرِه، فثبَتت الفطانةُ لجميعِهم وإن لم يكونوا رسُلًا بل أنبياءَ فقط، فاللائقُ بمنصبِ النبوّةِ أن يكونَ عندهم من الفطانةِ ما يَردُّون به الخصمَ على تقديرِ وقوعِ جدالٍ منهم، ففي قولِ الشـارحِ: «والظاهرُ اختصاصُ هذا الواجبِ بالرسُلِ» نظرٌ، بل الظاهرُ العمومُ، نعم الواجبُ للأنبياءِ مطلقُ الفطنة، وأما الرسلُ فالواجبُ لهم كمالُ الفطنة.

ثانيًا: ما يستحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام

قال الناظمُ رحمه الله في «متنِ ابنِ عاشر»:

كَعَـدَمِ التَّبلِيـغِ يـا ذَكِـيُّ   مُحـالُ الكَـذِبُ والمَنهِـيُّ

ذكَـر الناظـمُ فـي هـذا البيتِ ما يسـتحيلُ فـي حقِّ الرسُـلِ عليهـم الصلاةُ والسلامِ، وهو أضدادُ الصفاتِ السابقةِ، وهي:

أ ـ الكذب:

الـذي هـو عدمُ مطابقةِ الخبرِ لِما في نفسِ الأمر، فيسـتحيلُ وقوعُ الكذبِ منهـم عليهم الصلاة والسـلام؛ لإخلالِـه بالصدقِ والأمانـةِ الواجبةِ في حقِّهم

عليهم الصلاة والسلام.

ب ـ **الخيانة:**

بفعلِ شــيءٍ مما نُهوا عنه نهيَ تحريمٍ أو كراهة؛ لإخلالِها بالأمانةِ الواجبةِ لهم عليهم الصلاة والسلام.

ج ـ **عدم التبليغ:**

وهو كتمانُ شيءٍ مما أُمروا بتبليغِه للخلق.

د ـ **البلادة:**

ويستحيلُ عليهم البلادةُ وهي ضعفُ الفهمِ؛ يعني الكلامَ من المرةِ الأولى إلا بعـد أن يتكـرَّر عليه عدةَ مراتٍ، فهذا كلُّه يسـتحيلُ في حـقِّ الأنبياء، فليس في الأنبياءِ نبيٌّ خائنٌ أو رذيلٌ أو سـفيهٌ أو بليدُ الذهن، والله تعالى حفِظهم من الكفـرِ قبـل النبوّةِ وبعدها، وحفِظهـم من الكبائرِ كالزنـا، وحفِظهم من صغائرِ الخسّةِ كسرقةِ حبةِ عنبٍ.

ثالثًا: ما يجوزُ في حقِّهم عليهم الصلاة والسلام

قال الناظمُ رحمه الله:

يَجُـوزُ في حَقِّهِـمُ كُلُّ عَرَضْ   ليس مُؤَدِّيًا لِنَقْـصٍ كَالمَرَضْ

يجوزُ في حقِّ الرسـلِ عليهم الصلاة والسـلام الأعراضُ البشـريةُ التي لا تُنافي عُلوَّ رتبتِهم، كالمرضِ والفقرِ من الأعراضِ الدنيويةِ مع الغنى عنها بالله تعالـى، وكالأكلِ والشـربِ والنكاحِ والنسـيانِ بعد التبليغِ، أو فيمـا لـم يُؤمَروا بتبليغِه، والنومِ إلا أنّه تنامُ أعينُهم ولا تنامُ قلوبُهم.

الاحتلام والإغماء في حق الرسل:

ولا يجوزُ الاحتلامُ عليهم كما صَحَّحه النووي؛ لأنّه من الشيطانِ، وقد ورَد: «ما احتَلم نبيٌّ قط». نعم إن كان مُجرَّدَ فيضانِ ماءٍ من غيرِ تلاعُبٍ من الشيطانِ فلا مانعَ منه، ومثلُ ما ذكَره المصنفُ من الأكلِ والجماعِ سائرُ الأعراضِ البشريةِ التي لا تؤدِّي إلى نقصٍ في مراتبِهم العليّةِ كالمرض، ومنه الإغماءُ فيجوزُ عليهم.

حُكمه في حق الرسل:

وقيَّد أبو حامدٍ الإغماءَ بغيرِ الطويل، وجزَم به البُلقينيُّ، بخلافِ الجنونِ قليلِه وكثيرِه؛ لأنّه نقصٌ.

وكالجنون: الجُذامُ والبَرَصُ والعمى وغيرُ ذلك من الأمورِ المنفِّرة، فلم يَعمَ نبيٌّ قط، ولم يَثبُت أنّ شُعيبًا كان ضريرًا، وما كان بيعقوبَ فهو حجابٌ على العينِ من تواصُلِ الدموع، ولذلك لمّا جاءه البشيرُ عاد بصيرًا، وما كان بأيوبَ من البلاءِ فكان بين الجلدِ والعظم، فلم يكن مُنفِّرًا، وما اشتُهر في القصةِ من الحكاياتِ المنفِّرةِ فهي باطلة.

حكم السهو في حق الرسل:

وأمّا السهوُ فممتنعٌ عليهم في الأخبارِ البلاغيّةِ؛ كقولهم: الجنّةُ أُعدَّت للمتقين، وعذابُ القبرِ واجبٌ، وهكذا. وغيرِ البلاغيةِ كـ«قام زيدٌ وقعد عمرٌو» وهكذا، وجائزٌ عليهم في الأفعالِ البلاغيةِ وغيرِها كالسهوِ في الصلاةِ للتشريع، لكن لم يكن سَهوُهم ناشئًا عن اشتغالِهم بغيرِ رَبِّهم، ولذا قال بعضُهم:

يَا سَائِلِي عن رَسُولِ الله كَيفَ سَهَا ... والسَّــهوُ من كُلِّ قَلْــبٍ غَافِلٍ لَاهِ
قَد غَابَ عن كُلِّ شَيءٍ سَرَّهُ فَسَها ... عَمَّــا سِــوى الله فَالتَّعظِيــمُ للهِ

حكم النسيان في حق الرسل:

وأمّا النسـيانُ فهو ممتنعٌ في البلاغياتِ قبل تبليغِها، قوليةً كانت أو فعلية، فالقوليـةُ كـ«الجنـةُ أُعدَّت للمتقيـن»، والفعليةُ كصلاةِ الضحـى إذا أمَرهم الله بفعلِهـا ليُقتدى بهم فيها، فلا يجوزُ نسـيانُ كلٍّ منهمـا قبل تبليغِ الأولى بالقولِ والثانيةِ بالفعل، وأما بعد التبليغِ فيجوزُ نسيانُ ما ذُكر من الله تعالى.

وأمّا نسـيانُ الشـيطانِ فمسـتحيلٌ عليهم، إذ ليس للشـيطانِ عليهم سبيل. وقول يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] تواضعٌ منه، أو قبل نبوّتِه وعلمِه بحالِ نفسِه، وإلا فهو رحمانيٌّ بشهادةِ ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ [الكهف: ٦٤]، ووسوسـةُ الشـيطانِ لآدمَ بتمثيلٍ ظاهري، والممنوعُ لعبُه ببواطنِهم، وبالـجملةِ فيجـوزُ علـى ظواهرِهـم مـا يجـوزُ على البشـرِ مما لا يـؤدِّي إلى نقـص. وأمّا بواطنُهم فمنزَّهةٌ عن ذلك متعلِّقةٌ بربِّهم.

وفي «المنن»: كان معروفٌ الكَرخيُّ يقول: لي ثلاثون سنةً في حضرةِ الله تعالى ما خَرَجت، فأنا أُكلِّمُ الله والناسُ يظنون أنِّي أُكلِّمُهم. اهـ.

فـإذا كان هـذا حالَ أحـدِ الأتبـاع، فما بالُـك بالأنبياء، خصوصًا رئيسَـهم الأعظمَ ﷺ؟

رابعًا: حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام

من حقوق الرسل عليهم السلام:

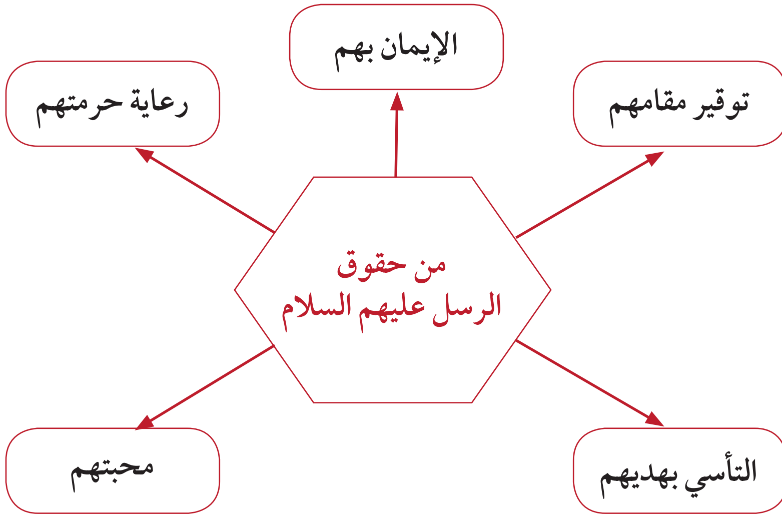
الإيمان بهم.

توقير مقامهم.

التأسِّي بهديهم.

رعاية حرمتهم.

محبتهم.



وآل النبي ﷺ:

عند الإمامِ الشافعيِّ: آلُ البيتِ بنو هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ، وبنو المُطلِبِ بنِ عبدِ منافٍ، بناءً على الحديثِ الذي يرويه البخاريُّ: «إنّما بنو المطلِبِ وبنو هاشمٍ شيءٌ واحدٌ».

كما يُطلَقُ إطلاقًا أخصَّ على أهلِ العباءةِ، وهم: عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحُسين؛ ففي «صحيح مسلم» عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرَجَ النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرطٌ مُرحَّلٌ من شعرٍ أسودَ، فجاء الحسنُ بنُ عليٍّ فأدخَله،

ثم جاء الحُسينُ فدخَل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخَلها، ثم جاء عليٌّ فأدخَله، ثـم قـال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣][١].

وبما أنّها جاءت في نساءِ النبيِّ ﷺ فتشملُهن.

وفي مقامِ التقوى فهو كلُّ تقيٍّ؛ لحديث: «أنا جَدُّ كلِّ تقيٍّ».



(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٧٦٥)، وإسحاق في مسنده (١٢٧١) واللفظ لهما، وأبو داود (٤٠٣٢) مختصرًا.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٤] وبَعــدُ: فَالتَّأدِيــبُ لِلصِّبيَــانِ   مِــن أوَّلِ النَّشــوِ أتَمُّ الشَّــانِ
[٥] وقَــد بِــذَاكَ صَرَّحَ الغَــزَالِي   بَحــرُ العُلُــومِ صَــادِقُ المَقَالِ

الشرح:

بدَأ بقوله: وبعد.

فقد ذهَب جماعةٌ من المحقِّقين إلى استحباب قولِ الخطيبِ بعد الحمدِ والثناء: «أما بعد»، وذلك تأسِّيًا بالنبيِّ ﷺ. وقد عقَد البخاريُّ في «صحيحه» بابًا في استحبابِه فقال: «بابُ مَن قال في الخطبةِ بعد الثناءِ: «أما بعد»»، وذَكر فيه جملةً من الأحاديثِ[١].

فبيَّن أنّ الموضوعَ بعدها هو ما يتعلَّقُ بأهميةِ موضوعِ تأديبِ الصبيانِ من ذكورٍ وإناثٍ، كما صرَّح بذلك الإمامُ حجّةُ الإسلامِ الغَزاليُّ[٢] في كتابِه «إحياء

(١) فتح العلام في دراسة أحاديث بلوغ المرام «حديثيًّا وفقهيًّا مع ذكر بعض المسائل الملحقة»، لأبي عبد الله محمد بن علي بن حزام الفضلي البعداني (٣: ٢٠٠).

(٢) هو الإمام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الملقب بحجة الإسلام، زين الدين الطوسي، الفقيه الشافعي، ولد بطوس، سنة خمسين وأربعمئة.

ويحكى أن والده كان صالحًا، لا يأكل إلا من كسب يده، يعمل في غزل الصوف ويبيعه في دكانه؛ ولما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له: إن لي لتأسُّفًا عظيمًا على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين، =

= فعلِّمهما، ولا عليك أن تُنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي خلّفه لهما أبوهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر، لا مال لي أواسيكما به، فأرى أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما. وكان الغزالي يحكي ذلك ويقول: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

وقد كان والد الغزالي رحمه الله يطوف على المتفقهة، ويجالسهم، ويتوفر على خدمتهم، ويجدُّ في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابنًا واعظًا، ويجعله فقيهًا، فاستجاب الله دعوتيه، أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه؛ وأما أحمد فكان واعظًا، تلينُ الصُّمُّ الصخور عند سماع تحذيره، وترتعد فرائصُ الحاضرين في مجالس تذكيره.

قرأ الغزالي في صباه طرفًا من الفقه على أحمد محمد الراذكاني، ثم قدم بعد ذلك إلى نيسابور، ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجُويني، وجد واجتهد حتى برع في المذهب، والخلاف، والجدل، والمنطق، وقرأ الحكمة، والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أهل هذه العلوم، وتصدى للردّ عليهم وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من هذه العلوم كُتبًا أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان الغزالي رضي الله عنه شديد الذكاء، سديد النظر، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصًا على المعاني، مُناظرًا محجاجًا.

ولما مات إمام الحرمين «الجُويني» خرج الغزالي قاصدًا الوزير «نظام الملك». وكان مجلسه مجمع أهل العلم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته «النظامية» ببغداد سنة أربعٍ وثمانين وأربعمئة، فقدمها في تجمُّل كبير، وتلقاه الناس، ونفذت كلمته، وعظمت حشمته حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء، وأعجب الخلقَ حسنُ كلامه، وكمالُ فضله، وفصاحةُ لسانه، ونُكتُه الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه. وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفُتيا والتصنيف مُدةً. كان عظيم الجاه، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، =

= مشهور الاسم، تُضرَب به الأمثال، وتُشَد إليه الرحال، حتى شرُفت نفسه عن كل جاه، وترك ذلك كله وراء ظهره ورحل إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، فخرج إلى الحج في شهر ذي الحجة سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمئة واستناب أخاه في التدريس ببغداد.
ودخل دمشق بعد عودته من الحج في سنة تسع وثمانين وأربعمئة، فلبث فيها أيامًا يسيرة، ثم توجه إلى بيت المقدس، فجاور ربه مدةً، ثمّ عاد إلى دمشق، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته.
وقد صادف دخوله يومًا المدرسة الأمينة فوجد المدرس يقول: قال الغزالي وهو يدرس كلامه، فخشي الغزالي على نفسه العُجب ففارق دمشق، وأخذ يجول في البلاد، فدخل مصر، وتوجه إلى الإسكندرية، فأقام بها مدة، وقيل: إنه عزم على المضي إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله، فبلغه موته، واستمر يجول في البلدان حتى عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة، ثم رجع إلى طوس، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء، وخانقاهًا للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن، ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ورضوانه. قال ابن الجوزي في كتاب «الثبات عند الممات»: «قال أحمد أخو الإمام الغزالي: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه وقبَّله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعًا وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الإسفار، قدس الله روحه».
هذا وقد رثاه الأديب أبو المظفر محمد الأبيوردي، الشاعر المشهور، بأبيات فائية منها:

مَضَى وأعظَمُ مَفقُودٍ فُجِعتُ بِهِ ... مَن لَا نَظِيرَ لَهُ فِي النَّاسِ يَخلُفُهُ

وتمثَّل الإمام إسماعيل الحاكمي بعد وفاته بقول أبي تمام من جملة قصيدة مشهورة له:

عَجِبتُ لِصَبرِي بَعدَهُ وهْو مَيِّتٌ ... وكُنتُ امرَأً أبكِي دَمًا وهْو غَائِبُ
عَلَى أنَّهَا الأيَّامُ قَد صِرنَ كُلُّهَا ... عَجَائِبَ، حَتَّى لَيسَ فِيهَا عَجَائِبُ

وقد دُفن الغزالي رحمه الله بظاهر الطابَران، وهي قصبة طوس، رحمه الله تعالى.
من كتاب: جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، المحقق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

علوم الدين»(١) عن رياضةِ الصبيانِ، وكيف تكونُ من أوّلِ نَشأتِهم حتى يكونوا

(١) «إحياء علوم الدين» لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، هو أحد أعرق كتب المكتبة الإسلامية على اتساعها وثرائها، وسردُ حكايته في هذه النّشرة اليسيرة أمر شاقّ يضعنا أمام تحدٍّ كبير، وإن كنا لن نفي بكل ما يخصُّ الكتاب وكاتبه؛ فهذا لن يمنعنا من محاولة جادّة للوقوف مع محطات حكايته، والاستفادة من دروسها. ويكفينا شرف المحاولة.

سبب تأليف الكتاب: رأى الإمام الغزالي أنّ كثيرًا من المشتغلين بالعلم في زمانه قد اتجهوا إلى اكتساب الوظائف به، واشتغلوا بصورته عن تحقيقه، ومنهم من اكتفى بظواهره، وغفل عن أسراره ومقاصده؛ فأراد الإمام أن يُوقظ النُّفوس، ويُحيي روح العُلوم، ويكشف اللطائف والدّقائق؛ فشمّر عن ساعد الجدّ، فكان هذا الكتاب العظيم. ويُحدّثنا الإمام عن هذا فيقول: «فأمّا علمُ طريق الآخرة وما درج عليه السّلفُ الصّالحُ ممّا سمّاه الله سُبحانه في كتابه فقهًا وحكمةً وعلمًا وضياء ونورًا وهداية ورشدًا فقد أصبح من بين الخلق مطويًّا، وصار نسيًا منسيًّا، ولما كان هذا ثلمًا في الدين ملمًّا، وخطبًا مُدلهمًّا، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمًّا؛ إحياءً لعلوم الدين، وكشفًا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحًا لمباهي العلوم النّافعة عند النّبيين والسّلف الصالحين».

بين يدي الكتاب: جاء الإسلام لتهذيب النّفس، وتزكيتها، وإصلاح علاقاتها على جميع المُستويات: بالله، وبالنّفس، وبالخلق. واهتم علماء الإسلام ببيان وسائل هذه التّزكية، وعوامل تقويتها، وموانعها، وحقيقتها، ودقائقها، وقدّموا في ذلك جُهودًا غزيرة، إلا أنّ كتاب «إحياء علوم الدّين» يُعدُّ بمثابة دُرّة التّاج في هذا الباب، ومع أنّ الغزالي كتب عشرات المصنفات، إلا أن هذا الكتاب قد حاز شهرةً واسعة، وانتشر انتشارًا لم يقاربه كتابٌ آخر من كُتُبه. ولا غرو فهو من أهم كتب المكتبة الإسلامية التي تُبيّن منهج الإسلام كأنه صورة مُصغّرة للتّعريف به في شتى جوانبه. إضافةً إلى ما اتّسم به من تناول أسرار العبادات كما لم يتناولها الفقهاء؛ مبينًا المعاني الرُّوحيّة الكامنة فيها، وسُبُل القُرب إلى الله عز وجل من خلالها، وتركيزه على الجانب التّطبيقي الذي ينبغي أن يكون عليه المُسلم، مع بيان الإرشادات العملية المُعينة على ذلك؛ حتى قيل فيه: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء». كما يُبيّن أنّ علوم المعاملة التي يُتقرّبُ بها إلى الله قسمان: ظاهرة وباطنة، والظاهرة قسمان: معاملة بين العبد وربه، ومعاملة بين العبد والخلق، والباطنة قسمان: =

= ما يجب تخلية القلب عنه من الصفات المذمومة، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة. وقد بنى الغزالي كتابه على هذه الأقسام الأربعة، فقال: «أسسته على أربعة أرباع: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات».
وكان يشرع في سرد الأبواب التي تضمنها «الإحياء»؛ مُصدّرًا إياها بالآيات ثم بالأحاديث والآثار، ومحاولًا الجمع والاستقصاء لما ورد فيها من أخبار وآداب، ومبينًا حدود ما يذكر وشروطه وما يتعلق به، على غايةٍ من الحسن في الجمع والتسلسل والأسلوب. قال رحمه الله بعد أن ذكر تقسيمه ومبناه: «فأما ربع العبادات فأذكر فيه خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها، وما يضطر العالم العامل إليه؛ بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أُهمِلَ في فن الفقهيات. وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، وأغوارها، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنها متدين. وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خُلُق مذموم ورد القرآن بإماطته، وتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده، وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص، كل ذلك مقرونًا بشواهد الآيات والأخبار والآثار. وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها، وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشّرع والعقل».
ولا نقول: إن هذه المعاني كانت غائبة عمن سبقه، بل كانت مستقرة في بواطنهم، تنطق بها أفعالهم؛ غير أنه أبرزها للسالك والمريد، وسلكها في سياق متصل فريد، وجمع شتاتها، وعبر عنها تعبيرًا بليغًا سلسًا ينفذ إلى القلوب، فجدّد طرح ما كان كامنًا، وأحيا ما بات دارسًا، وهو الخبير بهذا الباب ذوقًا وسلوكًا وأخذًا وتعليمًا، ولذا كانت تسميته لكتابه «إحياء علوم الدين» تسمية دقيقة.
وبهذا نرى أن الكتاب يُعدُّ نموذجًا تطبيقيًّا بارزًا للتجديد في الخطاب والفكر الديني. ورغم كلّ المحاسن التي حوتها صفحات الكتاب؛ إلا أنّه كطبيعة أيّ عمل بشريٍّ؛ ـ مهما بُذل فيه =

= مـن جهـودٍ ـ لا يصـل إلى درجة الكمال؛ ولا يخلو من انتقـادات، ومن بين هذه الانتقادات مـا طُعـن عليه به من كثـرة إيراد الضعيف، وبعـض الموضوع من الأحاديـث؛ إلا أن الإمام الغزالـي كان لـه منهـج في ذلك؛ حيث كان يروم اسـتقصاء كل ما ورد فـي الباب، ويُصدّرُه بأصحّه، ثم يورد الأقل صحة على سبيل المتابعات والشواهد؛ لما تشتمل عليه من فوائد، كمـا أن أكثـر إيراده في باب الترغيب والترهيب، والمعمـول به عند المحدثين جواز الأخذ بالضعيف في فضائل الأعمال. وقول الإمام الغزالي عن نفسه في قانون التأويل: «وبضاعتي فـي علـم الحديـث مزجاة» لا يُفهَم منـه قلة درايته بهذا الفـن، أو عدمها، وإنمـا قاله مقارنة بتبحره في العلوم الأخرى، وبأهل الصنعة الحديثية.

مع الأخذ في الاعتبار أن الله سـبحانه قد قيّض لهذا الكتاب من أهل العلم من كرّس جهده لخدمتـه؛ دراسـةً لمعانيـه، وتحقيقًا لمسـائله، وتخريجًـا لأحاديثه؛ بل إن الغزالي نفسـه قد أجاب عن بعض ما ورد في الكتاب من إشكالات في رسالته المسماة «الإملاء على مشكل الإحيـاء» وكذلـك صنـع غيره من العلماء. وقـد أُخذ عليه أيضًا إيـراده بعض القصص التي اعتبرهـا مخالفـوه من قبيل الخرافات، وغير ذلك من الانتقادات المتعلقة بمسـائل في علم الكلام، تناولها العلماء بالبيان والتحليل في مواطنها.

وهذا لا يمنع أن يشيد منتقدوه بمكانته وعلمه؛ حتى اعتبره كثير منهم مجدد المئة الخامسة؛ بل نقل السيوطي اتفاق العلماء على ذلك.

وختامًـا: لا يخفـى على القارئ أننا لم نقصد في هذا المقال تتبع جميع ما للكتاب أو عليه؛ وإنما قصدنا إعطاء القارئ تصوُّرًا عامًّا عن الكتاب ومُؤلفه، يدعوه إلى قراءته، ويعينه على فهم الكتاب وأسلوب كاتبه.

فحتم على كُلّ ذي حزمٍ آمن بالله واليوم الآخر؛ ألا يغفُل عن مُحاسبة نفسه، والتّضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها وخُطُواتها، فإنّ كُلّ نفسٍ من أنفاس العُمُر جوهرةٌ نفيسةٌ، لا عوض لها، يُمكنُ أن يُشترى بها كنزٌ من الكُنُوز لا يتناهى نعيمُهُ أبد الآباد؛ فانقباض هذه الأنفـاس ضائعـةً أو مصرُوفـةً إلى ما يجلبُ الهلاك خُسـرانٌ عظيمٌ هائلٌ لا تسـمحُ به نفس عاقل. فإذا أصبح العبدُ وفرغ من فريضة الصُّبح ينبغي أن يُفرّغ قلبه ساعةً؛ لمُشارطة النّفس، كما أنّ التّاجر عند تسـليم البضاعة إلى الشّـريك العامل يُفرّغ المجلس لمُشارطته. فيقول =

صالحِيـن وموفَّقِيـن، وقولُه عن الإمامِ الغَزاليِّ: «بَحـرُ العلومِ» كنايةٌ عن غَزارةِ علمِه رحمه الله تعالى.



= للنفـس: مـا لي بضاعةٌ إلا العُمُرُ، ومهما فني فقد فني رأسُ المال، ووقع اليأسُ عن التّجارة وطلـب الرّبـح، وهذا اليومُ الجديدُ قد أمهلني الله فيه، وأنسـأ في أجلـي وأنعم عليّ به، ولو توفّانـي لكُنـتُ أتمنّـى أن يرجعني إلـى الدُّنيا يومًا واحدًا؛ حتّى أعمل فيه صالحًا، فاحسـبي أنّك قد تُوُفّيتِ ثُمّ قد رُددت؛ فإيّاك ثُمّ إيّاك أن تُضيّعي هذا اليوم، فإنّ كُلّ نفسٍ من الأنفاس جوهـرةٌ لا قيمـة لها. وصلى الله على سـيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسـلم، والحمد لله رب العالمين.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٦] وحَـــثَّ في «إحيَا عُلُـــومِ الدِّينِ» على قِيَـــامِ الأهـــلِ بِالبَنِـــينِ
[٧] لِأَنَّ تَأدِيـــبَ الصَّـــبِي في صُغرِهِ زِيَـــادَةٌ لِحَظِّـــهِ في كُـــبرِهِ

الشرح:

حـثّ: أي: ألـحَّ علـى مواصلةِ هذا الواجـبِ على الأهلِ بتأديـبِ الأولادِ وإرسـالِهم إلى المؤدِّبين وأهل العلمِ والصلاحِ من الصغر، فالعلمُ في الصغرِ كالنقـشِ على الحجرِ، كما أرسَـلت الإمامَ الشـافعيَّ أمُّه وهو صغيـرٌ، والإمامُ الغزالـيُّ أرسَـله صديقُ والدِه إلى المدرسـةِ، فأخَذ الفقهَ فـي «طُوس» على يدِ الشيخِ «أحمد الراذَكاني» وهكذا سائرُ العلماءِ.

والإنسانُ يكونُ في أوَّلِ عُمرِه شديدَ الحفظِ أكثَرَ من الكبارِ، ويكونُ بعضُ الأطفالِ نوابِغَ.

مثـال ذلك: الإمامُ الشـافعيُّ رحمـه الله تعالى، كان يتميَّزُ بسـرعةِ الحفظِ، عاش الشـافعيُّ فقيرًا ويتيمًا، وكان حافظًا للقرآنِ الكريمِ بأكملِه وهو في سـنِّ السابعة، وبعد أن أنهى حفظَ القرآنِ الكريمِ توجَّه إلى حفظِ الأحاديثِ النبويةِ، فقد كان يتميَّزُ بقوّةِ الحفظ وسـرعتِه، فعندما كان يستمعُ إلى المحدِّثين يحفظُ بسـرعةٍ ما سـمِعه ثم يكتبُه، إمّا على الخزفِ أو على الجِلد، وقد كان يمارسُ القراءةَ دائمًا ويمارسُـها بطريقةِ القراءةِ التصويرية، وورَد أنّه كان يملكُ القدرةَ

على التقاطِ العديدِ من الكلماتِ التقاطًا سـريعًا، فقد كان يقرأُ صفحةً ويُغطِّي الصفحـةَ المقابلـةَ لها؛ لأنّه لو وقَع نظرُه على كلمةٍ منها لحفِظها قبل أن ينتهيَ من السـطورِ التي يقرؤُها، وقد حفِظ الشـافعيُّ «موطأ الإمام مالك» في مدةٍ لا تزيدُ عن تسعةِ أيامٍ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً[(١)].

و«موطـأ الإمـام مالـك» يتألَّـفُ مـن **٩٥٠٠** حديـثٍ، وقد حفِظهـا الإمامُ الشافعيُّ جميعَها مع أسانيدِها المُرفقةِ وشروحاتِها.



(١) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للمنذري (١ : ١٦).

قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٨] يَنَـلْ بِذَلِـكَ الحُظُـوظَ الوافِرَهْ ... ورَاحَـةَ الدُّنيَـا وخَـيرَ الآخِرَهْ
[٩] فَيَنبَغِي لِكُلِّ جَـدٍّ وأبِ ... وقَيِّـمِ الحَاكِـمِ تَأدِيبُ الصَّبِي
[١٠] وتَنهَـرُ الأُمُّ وَلِيدَهَـا بِالَابْ ... زَجـرًا لَهُ عَـنِ الخَنَـاءِ واللَّعِبْ
[١١] إذ قَلبُـهُ كَالشَّمعَةِ المَقصُورَهْ ... مُجَوهَـرٌ يَقبَـلُ كُلَّ صُـورَهْ
[١٢] وَيَنبَغِي لَهُـم بِأن يُعَوِّدُوا ... أولَادَهُـم فِعلَ التُّقَى لِيَسعَدُوا

الشرح:

بَيَّـن الناظـمُ أهميـةَ تربيةِ الصبيانِ منـذ الصغَرِ - في أبياتِ هـذه المنظومةِ - بالأدلّةِ الآتية:

أ - القرآن الكريم: واستدَلَّ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

وبيَّـن وجـهَ الاستدلالِ من هـذه الآية: فمن مفهـومِ الآيةِ أنّه يجـبُ وقايةُ أنفُسِكم من عذابِ النارِ، وكلِّ مَن يلزمُكم.

ب - والسنة النبوية: واستدَلَّ بحديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلا يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه؛ كما تُنتَجُ (أي: تلدُ) البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ (أي: تامةَ الأعضاءِ سويةً)

هـل تُحِسُّـون فيها من جدعـاءَ؟ (أي: مقطوعةِ الأذنِ أو الأنـفِ، بل الناسُ هم الذين يَفعَلون ذلك)»، ثم يقولُ أبو هريرةَ رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] الآيةَ، متفقٌ عليه.

«أدِّبـوا أولادَكـم علـى ثـلاثِ خِصـال: حُـبِّ نبيِّكـم؛ وحُـبِّ أهـلِ بيتِـه؛ وقـراءةِ القُـرآن؛ فإنّ حَمَلـةَ القرآنِ في ظلِّ الله؛ يومَ لا ظـلَّ إلا ظلُّه؛ مع أنبيائه؛ وأصفيائه»[1]. أبو نَصر؛ عبدُ الكريمِ الشِّيرازي؛ في «فوائده».

ج ـ وآثـار السـلف: وقد اسـتدلَّ علـى تربيةِ الصبـيِّ على تـركِ الطمعِ بما حُكِي عن الثقاتِ من كونِ الطمعِ من أعظمِ الآفات.

د ـ أقوال أهل العلم: ومن ذلك كلامُ أبي حامدٍ الغَزاليِّ في كتابِه «الإحياء»: «اعلَم أنّ الطريقَ في رياضةِ الصبيانِ من أهمِّ الأمورِ وآكَدِها».

هـ ـ أثر التربية في الصغر: وذكَر من آثارِها في هذه الأبيات:

أ ـ أنّها أتمُّ لشأنِ علمِه وخُلقِه.

ب ـ والفوزَ بالحظوظِ الوافرةِ من راحةِ الدنيا، وخيرِ الآخِرة.

ـ ثم انتقل الناظمُ إلى بيانِ مَن المُطالَبُ بتربيةِ الصبيِّ في صغرِه، فذكَر أنّ الولـيَّ هـو المطالبُ بذلك، وهـو الأب، ثم الجدُّ أبو الأبِ، ثـم القيِّمُ من قِبل الحاكِم، وكذا تُطالَبُ الأمُّ بتربيةِ صبيِّها.

(١) قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيتـه، وقـراءة القرآن، فإن حملـة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مـع أنبيائه وأصفيائه. الجامع الصغير (٢: ٦٠٨).

ـ ثم بيَّن رحمه الله أفضلَ وسائلِ التربية:

أـ التربيةُ بالزجرِ عن الخَنا والمعصية، وعن العبثِ واللَّعِب، والأمُّ تُخوِّفُ ابنَها بأبيه.

ب ـ التربيـةُ بالقـدوةِ الحسـنة: فالصبـيُّ يتأثَّرُ بما يراه ويسـمعُه، ويتشـكَّلُ خُلقُه بحسبِ بيئتِه؛ كما تَتشكَّلُ الشمعةُ المذابةُ بحسبِ شكلِ إنائها، وتنعكسُ فيه أخلاقُ مَن حوله؛ كما تنعكسُ الصورُ في المرآة.

ج ـ التعويـدُ والمتابعـةُ التربويةُ حتى تَغدوَ خِصالُ التُّقى خُلقًا راسـخًا في نفسِ الصبي؛ فيسعدَ في دنياه وأُخراه.

صور مشرقة من تربية السلف لأولادهم[1]:

١ـ هـذا الزبيـرُ بـنُ العـوّامِ رضـي الله عنـه تَربَّى في حجـرِ أُمِّه صفيـةَ بنتِ عبدِ المطلبِ رضي الله عنها، ونشَأ على طبعِها وسجيَّتِها، تلك المرأةِ الشجاعةِ الكريمة.

ومـن صُـورِ مـا كان منهـا في معركـةِ أُحُـد، عندما أغـرَت هندُ بنـتُ عتبةَ رضي الله عنها بحمزةَ بنِ عبدِ المطلبِ رضي الله عنه مَن خالَسه فصرَعه، وكان قد قَتَل أباها يومَ بدر، كاد جثمانُ حمزةَ يحيلُ من فرطِ ما مُثِّل به، فلما وقَف به رسولُ الله ﷺ اشتدَّ حزنُه لِما أصاب عمَّه البطلَ الكريمَ، ووقَف بنَجوةٍ منه، ثم أبصَـر فوجَـد عمَّتَه صفيةَ بنتَ عبدِ المطلبِ مُقبلة، لتنظرَ ما فعَل القومُ بأخيها، فقال رسولُ الله ﷺ لابنِها الزبيرِ بنِ العوام: «دونَك أُمَّك فامنَعها». وأكبَرُ همِّه

(١) انظر: الروض الأنف، للسهيلي (٢: ١٧٢).

ألا يجدَّ بها الجزعُ لما ترى. فلما وقَف ابنُها يعترضُها قالت: «دونَك لا أرضَ لك لا أمَّ لك»[(١)].

وهنالك ارتجفَت أحناءُ بطلِ قُرَيش، وزُلزِلت قدَماه، واعتُقل لسانُه، وكرَّ راجعًا إلى رسولِ الله ﷺ فحدَّثه حديثَ أُمِّه فقال: «خلِّ سبيلَها». ثم ارتجفَت صفوفُ الناسِ لعمةِ رسولِ الله ﷺ فسارت حتى أتت أخاها، فنظَرت إليه، فصلَّت واسترجعَت، واستغفرَت له، وقالت لابنِها: «قل لرسولِ الله: ما أرضانا بما كان في سبيلِ الله، لَأَحتَسِبنَّ، ولأصبرنَّ إن شاء الله».

٢ـ وهذا أميرُ المؤمِنين أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه تَنقَّل في تربيتِه بين صدرَين من أملأ صدورِ العالَمِين حِكمةً وأحفَلِها بجليلِ الخِلالِ وكريمِ الخِصال، فكان مَغداه على أمِّه فاطمةَ بنتِ أسد، ومَراحُه على أمِّ المؤمنِين خديجةَ بنتِ خويلدٍ رضي الله عنها.

٣ـ وهذا عبدُ الله بنُ الزبيرِ رضي الله عنه كان وراءه أمٌّ كريمةٌ شجاعةٌ هي أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنهما، وهي القائلةُ وقد نُعِي إليها ابنُها عبدُ الله: «ما يَمنَعُني من الصبرِ وقد أُهدِيَ رأسُ يحيى بنِ زكريّا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل؟».

وهي القائلةُ أيضًا ـ قبل ذلك عندما استشارها ابنُها عبدُ الله بنُ الزبيرِ في قتالِ الحجّاج ـ: «اذهَب، والله لضربةٌ بالسيفِ على عزٍّ أفضلُ من ضربةٍ بالسوطِ على ذلٍّ».

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، لعبد الله بن عفيفي الباجوري (٢: ١٢٩).

٤ـ وهـذا أميرُ المؤمنيـن أعدلُ الملـوكِ وأروعُهم، وأورَعُهـم، وأزهَدُهم أبو حفصٍ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمه الله تعالى، مَن كان وراءه؟ إنّها أمُّه أمُّ عاصمٍ بنتُ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ أكملِ أهلِ دهرِها كمالًا، وأكرمِهم خِلالًا.

٥ـ وهـذا عبدُ الملـكِ بـنُ عمرَ بـنِ عبدِ العزيـز، ذلك الفتى الـذي كَمُلَت مروءتُـه، وتناهى سـؤددُه، فـكان مَضرِبَ المثلِ فـي العلمِ والشـجاعةِ والزهدِ والعبـادة، بالرغـمِ مـن أنّه تُوفِّي وهو في التاسـعةَ عشـرةَ من عمـرِه! فمَن كان وراءه؟ لقـد كان وراءه والـدُه الزاهـدُ عمـرُ بـنُ عبدِ العزيـز، وأمُّـه فاطمةُ بنتُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ[١].

٦ـ وهـذا سـفيانُ الثَّوري، وما أدراك ما سـفيانُ الثَّـوري؟ إنّه فقيهُ العرب، ومُحدِّثُهـم، وأحـدُ أصحابِ المذاهبِ السـتةِ المتبوعة، إنّه أميـرُ المؤمِنين في الحديث، وما كان ذلك العَلَمُ الشامخُ والإمامُ الجليلُ إلا ثمرةَ أُمٍّ صالحةٍ حفِظ لنا التاريخُ مآثرَها وفضائلَها ومكانتَها، وإن كان ضَنَّ علينا باسمِها.

روى الإمامُ أحمدُ في «مسنده» عن وكيعٍ قال: «قالت أمُّ سفيانَ لسفيانَ: يا بُنَيَّ، اطلُبِ العلمَ وأنا أكفيك بمِغزَلِي»[٢].

فكانت رحمها الله تعملُ وتقدِّمُ له؛ ليتفرَّغَ للعلم، وكانت تتخوَّلُه بالموعظةِ والنصيحة؛ قالت له ذات مرةٍ فيما يرويه الإمامُ أحمدُ: «يا بُنَيَّ، إن كَتَبت عشرةَ أحرُفٍ فانظُر هل ترى في نفسِك زيادةً في خشيتِك وحلمِك ووقارِك؟ فإن لم تَرَ ذلك فاعلَم أنّها تضرُّك ولا تنفعُك».

(١) انظر: سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، لابن رجب الحنبلي.
(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٢: ١١٠).

٧ـ وهذا الإمامُ الحبرُ، الفقيهُ البحر، العالمُ النِّحرِير؛ الذي دَنَت له قطوفُ الحكمـة، ودانـت له نواصي البلاغةِ، إنّه محمدُ بنُ إدريسَ الشـافعيُّ الذي مَلأ أقطارَ الأرضِ علمًا وفقهًا وفضلًا، كان ثمرةَ الأمِّ العظيمة؛ فقد مات والدُه وهو جنينٌ أو رضيع، فتولَّته أمُّه بعنايتِها، وأشرَفت عليه بحكمتِها، وكانت امرأةً من فُضلياتِ عقائلِ الأزد.

٨ـ وهـذا أميـرُ المؤمِنيـن عبدُ الرحمنِ الناصر: الذي ولِـي الأندلسَ وهي ولايةٌ تميدُ بالفتن، وتَشـرقُ بالدماء، فما لبِث أن قَرَّت له، وسـكَنت لهيبتِه، ثم خرَج في طليعةٍ من جُندِه، فافتَتح سبعين حصنًا في غزوةٍ واحدة، ثم أمعَن بعد ذلك في قلبِ فرنسـا، وتغَلغَل في أحشـاءِ سويسرا، وضمَّ أطرافَ إيطاليا حتى روَّض كلَّ أولئك له.

وبعد أن كانت قرطبةُ دارَ إمارةٍ يُذكَرُ فيها الخليفةُ العباسـيُّ على منابرِها، وتمضـي باسـمِه أحكامُهـا، أصبَحت مقرَّ خلافتِـه، يحتكمُ إليهـا عواهلُ أوربا وملوكُها، ويختلفُ إلى معاهدِها علماءُ الأممِ وفلاسفتُها.

أتدري ما سرُّ هذه العظمة؟ وما مَهبِطُ وحيِها؟ إنّها المرأةُ وحدها، فقد نشَأ عبدُ الرحمنِ يتيمًا قتَل عَمُّه أباه، فتفرَّدت أمُّه بتربيتِه، وإيداعِ سرِّ الكمالِ ورُوحِ السموِّ في نفسِه، فكان من أمرِه ما عَلمتَ.

مناشدة:

هـذه نمـاذجُ عطرة، وصورٌ مشـرقةٌ من سـيرةِ السـلفِ فـي التربيـة، تأخذُ بالألباب، وتثيرُ في النفسِ دواعيَ الإعجاب.

إنّ الإنسانَ إذا رأى ما عليه الأولادُ في هذه الأزمنةِ من التمرُّدِ والانحراف، ورأى ما عليه الآباءُ من الغفلةِ والإعراض، وقارَن حالَنا بحالِ السلفِ الصالح، إنّ الإنسانَ ـ إزاء هذا ـ ليكادُ اليأسُ يَدِبُّ إلى قلبِه، وينفثُ آثارَه في رُوعِه.

ولكن مهما يكن من شيء، فالمسلمُ لا ييئَس، ولا ينبغي له، فالذي أصلَح السلفَ قادرٌ على إصلاحِ الخلفِ.

وهذه الأمةُ كالمطرِ،
الخيرُ في أولِها وأوسطِها وآخرِها.
فالأمرُ ـ بعد توفيق الله ـ بأيدينا، وذلك إذا أخَذنا بالأسبابِ،
ودخَلنا البيوتَ من الأبواب،
وسعَينا في البحثِ عن العِلاج،
وأصلَحنا الخطأ وقوَّمنا الاعوجاج.
فيا معشرَ الآباءِ والأمهات،
ويا أيُّها المربِّون والمعلِّمون
شَمِّروا عن ساعِدِ الجِدّ،
واقدَحوا لتربيةِ الأولادِ الزَّند،
واستفرِغوا لذلك الطاقةَ والجَهد؛
فوالله لو لم يَأتِكم من تربيةِ الأولادِ إلا أن تُكفَوا شَرَّهم،
وتَسلَموا من تَبِعتِهم لكفى.



المرحلة الأولى

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[١٣] وأوَّلُ الأشـــيَا هِيَ الحَضانَـــةْ لِأنَّــهُ مَــعْ أهلِـــهِ أمَانَـــهْ
[١٤] فَيَنبَــغِي إرضَــاعُ كُلِّ طِفـلِ صَالِحَــةً بِقَولِهَـــا والفِعـــلِ
[١٥] تَــأكُلْ حَلَالًا لَا مــنَ الحَرَامِ فَالطَّبــعُ قَالُــوا تَابِــعُ الطَّعَــامِ
[١٦] إذَا خَبُــثْ رَضَاعُــهُ مَــالَ إلى فِعــلِ الخَبِيـــثِ آخِــرًا وأوَّلَا

الشرح:

من حقِّ الابنِ على أبيه اختيارُ الأُمِّ الصالحةِ،
وأن يُطعِمَه ويُغذِّيَه على الحلالِ.

جـاء رجلٌ إلى أميـرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه يشـكو إليه عقـوقَ ابنِـه، فأحضَر سـيدُنا عمرُ بـنُ الخطَّابِ رضـي الله عنه ابنَـه، وأنَّبه على عقوقِه لأبيه، فقال الابن: يا أميرَ المؤمنِين، أليس للولدِ حقوقٌ على أبيه؟ قال: بلـى، فقـال: فما هي يا أميرَ المؤمنِين؟ قال: أن ينتقيَ أُمَّه، وأن يُحسِـنَ اسـمَه، وأن يُعلِّمَه الكتابَ ـ القرآن ـ فقال الابن: يا أميرَ المؤمنِين، إنّه لم يَفعَل شيئًا من ذلك، أمّا أُمِّي فإنّها زَنجيةٌ كانت لمجوسي، وقد سمّاني جُعلًا ـ أي: خُنفساءَ ـ ولم يُعلِّمني من الكتابِ حرفًا واحدًا، فالتَفت أميرُ المؤمنين إلى الرجل، وقال

له: أجئتَ تشكو عقوقَ ابنِك؟ لقد عَقَقته قبل أن يَعُقَّك، وأسأتَ إليه قبل أن يُسِيءَ إليك[١].

فحقوقُ الابنِ على أبيه من هذا النصِّ: أن ينتقيَ أُمَّه، وأن يُحسِنَ اسمَه، وأن يُعلِّمَه القرآن، فإذا أهمَل الأبُ هذه الأشياء، يكونُ قد عَقَّ ابنَه قبل أن يعقَّه ابنُه، ويكونُ الأبُ قد أساء إليه قبل أن يسيءَ الابنُ إلى أبيه.

فأوَّلُ واجبٍ على الآباءِ تجاهَ الأبناء: أن يُحسِنَ الأبُ اختيارَ الزوجة، إنّ هذا الواجبَ يسبقُ وجودَ الولد، الواجبُ الأولُ بل هو أخطرُ واجبٍ؛ إنّه يسبقُ وجودَ الولد، وهو: أن يُحسِنَ اختيارَ أُمِّه.

صفات الزوجة الصالحة:

النبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول: «خيرُ فائدةٍ أفادها المرءُ المسلمُ بعد إسلامِه امرأةٌ صالحة، تسرُّه إذا نظَر إليها، وتطيعُه إذا أمَرها، وتحفظُه في غيبتِه في مالِه ونفسِها».

فأثمنُ شيءٍ أن تُحسِنَ اختيارَ الزوجة، ينبغي أن تكونَ الزوجةُ صالحة: «تسرُّه إذا نظَر إليها ـ أي: أنّها نظيفةٌ ـ وتطيعُه إذا أمَرها، وتحفظُه في غيبتِه في مالِه ونفسِها».

وفي حديثٍ آخر: عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «يا رسولَ الله، أيُّ النِّساءِ خَيرٌ؟ قال: الَّتِي تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ»[٢].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله علوان (١: ١٢٧، ١٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٥٦) قال: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، قال: سمعت أبي، فذكره. =

في هذا الحديثِ ليس فيه كلمةُ «إليها»؛ أي: إذا نظَر إلى غرفةِ النومِ تسرُّه، منظَّمةٌ ومرتَّبةٌ والملاءةُ نظيفة، وإذا نظَر إلى المطبخِ تسرُّه، وإذا نظَر إلى أولادِه تسرُّه، وإذا نظَر إلى البيتِ إجمالًا تسرُّه، أي: أنّها تقومُ بواجبِها خيرَ قيام، أي: تُحسِنُ تبعُّلَ زوجِها.

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ـ كما تعرفون ـ يقول: «اعلَمي أيتُها المرأة، وأعلِمي مَن وراءك من النساء: أنّ حُسنَ تبعُّلِ إحداكن لزوجِها يعدِلُ ذلك كُلَّه». يعني الجهادَ في سبيلِ الله.

«تسرُّه إذا نظَر، ولا تعصيه إذا أمَر، ولا تخالفُه بما يكرهُ في نفسِها ومالِه».

هذه صفاتُ الزوجةِ الصالحة؛ لأنّ اختيارَ الزوجةِ الصالحةِ أولُ واجبٍ على الآباءِ تجاهَ الأبناءِ الذين سوف يأتون إلى الدنيا.

وفي حديثٍ آخر: عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «تُنكَحُ المرأةُ على إحدى خِصال؛ لجمالِها، ومالِها، وخُلُقِها، ودينِها، فعليك بذاتِ الدينِ والخُلُقِ تَرِبت يمينُك»[1].

وفي حديثٍ آخر عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام، رواه البخاريُّ ومسلمٌ، يقول عليه الصلاة والسلام: «تُنكَحُ المرأةُ لأربع؛ لمالِها، ولخُلُقِها، ولجمالِها، ولدينِها، فاظفَر بذاتِ الدينِ تَرِبت يداك».

= المسند الجامع (١٣٥٥٦)، وأطراف المسند (١٠٠٢١).

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٩: ١٣٢)، باب الأكفاء في الدين، ومسلم في الرضاع (٢: ١٠٨٦)، باب استحباب نكاح ذات الدين.

أي: إن لم تَفعَل ما نِلتَ إلا التُّراب، والترابُ شـيءٌ لا قيمةَ له إطلاقًا، إذا جَهِدتَ، وتَحمَّستَ، وانقضَضتَ، وأمسَكتَ بشيءٍ فإذا هو تراب، يقال: تَرِبت يمينُك؛ أي: لن تأخذَ شيئًا، لم تَنَل شيئًا، لم تُفلِح في هذا الزواج[(١)].

العلماءُ قالوا: يُستحَبُّ أن تختارَ امرأةً تسرُّك إذا نظرتَ إليها.

هـذا من السـنة، لكن العلمـاءُ أيضًا، ومنهم الماوَرديُّ يقـول: كرِه العلماءُ أن يختارَ الإنسانُ امرأةً ذاتَ جمالٍ بارع؛ لأنّها مُتعبةٌ إلى أقصى الحدود، فإنّها تزهو بجمالِها، وتحبُّ أن ينظرَ الناسُ إليها، وربَّما تعاندُ زوجَها، وربَّما تتفلَّتُ من أوامرِ الشرعِ تفلُّتَ البعير.

لذلك هذا رأيُ بعضِ العلماء: أنّه يجبُ أن تختارَ زوجةً تسرُّك إذا نظرتَ إليها، أمّا أن تختارَها فائقةً فاتنةً، فهذا ربما عاد عليك بالمتاعبِ التي لا حصرَ لها.

مَن تزوَّج المرأةَ لجمالِها أذلَّه الله. وقيل: حرَمه الله إياها.

هي تَزهُو عليه بجمالِها، وهو يتصاغرُ أمامَ هذا الجمال، فكأنّها هي الآمرةُ الناهية، وكأنّها هي القَيِّمة، وكأنّ لها القِوامةَ؛ لذلك: مَن تزوَّج المرأةَ لجمالِها أذلَّه الله؛ أي: لجمالِها فقط.

ومَن تزوَّجها لمالِها أفقَره الله، ومَن تزوَّجها لحسبِها زاده الله دَناءةً، فعليك بذاتِ الدينِ تَرِبت يداك.

(١) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، للسيوطي (٢: ٧١).

لكن لو أنّك تزوَّجتَ امرأةً غنيَّة، وطابت لك عن بعضِ مالِها، فهذا يأكلُه الزوجُ هنيئًا مريئًا، كما قال الله عزَّ وجل في القرآن الكريم: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام: «مَن تزوَّج امرأةً لعزِّها لم يَزِده الله إلا ذُلًّا، ومَن تزوَّجها لمالِها لم يَزِده الله إلا فقرًا، ومَن تزوَّجها لحسَبِها لم يَزِده الله إلا دناءة، ومَن تزوَّج امرأةً لم يُرِد بها إلا أن يَغُضَّ بصرَه، ويُحصِنَ فرجَه، أو يصلَ رحمَه، بارك الله له فيها وبارك لها فيه».

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام كان إذا حضَر عقدَ قِران، يقول: «بارَك الله لكما وعليكما وفيكما»(١).

وعن عبدِ الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَزوَّجوا النساءَ لحُسنِهن»(٢).

فإذا ذُكرت كلمةُ حُسنٍ أو جمال، فالمقصودُ الجمالُ وحده؛ أي: أنّك آثَرتَ الجمالَ على الدين، هناك رقَّةٌ في الدينِ وتفوُّقٌ في الجمال، آثرتَ الجمالَ على الأخلاق، هناك شراسةٌ في الأخلاق، ورقةٌ في الدين، وتفوُّقٌ في الجمال، فالأمرُ فيه نذرُ الشر، إذا ذكَر النبيُّ عليه الصلاة والسلام كلمةَ الجمالِ أو الحُسن، فالمقصودُ به مَن آثَره على بعضِ الشروطِ الأخرى.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب النكاح، باب ما يقال للمتزوج (٢: ٢٤١) (٢١٣٠)، والترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء فيما يقال للمتزوج (٣: ٤٠٠) (١٠٩١)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح (١: ٦١٤) (١٩٠٥)، وأحمد (٣: ٨١) (٨٧٣٤).

(٢) ابن ماجه (١٨٥٩).

يقولون: إنّ واحدًا وضَع عشرةَ شروط:

الأولُ: الجمال.

الثاني: الكمال.

الثالث: الغِنى (المال).

الرابع: الحسَبُ.

الخامس: النَّسَبُ

السادس: الثقافةُ.

السابع... إلى أن صاروا عشرةً، أرسَل والدتَه فلم يَجِد، فتخلَّى عن شرط، عمِل جولةً ثانيةً بعد سنةٍ فلم يَجِد فتخلَّى عن شرطٍ ثانٍ، عمِل جولةً ثالثةً فلم يَجِد فتخلَّى عن شرطٍ ثالث، بعد عشرِ سنواتٍ بقِي على شرطٍ واحد: وهو أن يعثُرَ على امرأةٍ ترضى به، فعلى المرءِ ألا يعقِّدَ الأمورَ كثيرًا.

«لا تَزوَّجوا النساءَ لحُسنِهن فعسى حُسنُهن أن يُردِيَهن»[1].

أي: جميلةٌ وجاهلة، حُسنُها يُردِيها، يجعلُها تستعلي عليه، لا يحتملُها زوجُها فيطلِّقُها، وهذا يحصلُ دائمًا، استعلاؤها على زوجِها يحملُها على أن تكونَ فظَّةً معه، وقد لا يحتملُ الزوجُ هذا، فيكونُ الفراقُ والشِّقاق، إذًا: لا تَزوَّجوا النساءَ لحُسنِهن فعسى حُسنُهن أن يُردِيَهن، ولا تَزوَّجوهنَّ لأموالهن فعسى أموالُهن أن تُطغِيَهن.

المالُ يُطغِي.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٩) واللفظ له، والطبراني (١٤: ٥٥) (١٤٦٤٧)، والبيهقي (١٣٨٥١) باختلاف يسير.

ولكن تَزوَّجوهنَّ على الدين، ولَأمةٌ خَرماءُ ـ أي: أذنُها مشرومةٌ ـ سوداءُ ذاتُ دينٍ أفضلُ.

وكان عليه الصلاة والسلام يأمرُ بالباءةِ ـ أي: بالزواجِ ـ وينهى عن التبتُّلِ نهيًا شديدًا، ويقول: «تزوَّجوا الوَدُودَ الوَلُود، فإنّي مُكاثرٌ بكم الأممَ يومَ القيامة»(١).

النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وهو سيدُ الخلق، وحبيبُ الحقِّ، اختار لنا هذين الشرطَين: الوَدُودَ الوَلُود.

أي: ما من طبعٍ أبغَضَ عند الرجلِ في المرأةِ من أن تكونَ لئيمة، أو قاسية، أو متكبِّرة، أو لها لسانٌ سليط، أو مستعلية.

النبيُ عليه الصلاة والسلام قال: «تزوَّجوا الوَدُودَ» تُحبُّ زوجَها، تتحبَّبُ إليه، ترضيه، تُؤثِرُه على كلِّ شيء، هذه الودود «الوَلُود» لأنّها إذا أنجَبت لك طفلًا، ملَأ هذا الطفلُ البيتَ أُنسًا ولطفًا، ومحبَّةً واشتياقًا، ومتَّن العلاقةَ بين الزوجَين.

«تزوَّجوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فإنّي مُكاثرٌ بكم الأنبياءَ يومَ القيامة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالأبكار، فإنّهن أعذبُ أفواهًا».

أي: كلامُها لطيف، وليست كلما تحدَّثت بكلمتَين، قالت عن زوجِها الأول: المرحومُ ما كان يفعلُ هذا، المرحومُ ما كان يفعلُ هذا، وفي هذا تنغيصٌ لزوجِها الحالي.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٥٩٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥٠٩٩) واللفظ لهما، وابن حبان (٤٠٢٨) باختلاف يسير.

«عليكم بالأبكار؛ فإنّهن أعذبُ أفواهًا ـ أي: كلامُهن لطيف ـ وأنتَقُ أرحامًا، وأرضى باليسير» (ابن ماجه).

هذا كلُّه من حقوقِ الأبناءِ على الآباء، أي: ليُحسِنِ الأبُ اختيارَ الزوجةِ الصالحة.

«الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِها المرأةُ الصالحةُ» (مسلم والنَّسائي).

ففي هذه الأبياتِ يتبيَّنُ لنا مراحلُ التربيةِ وهي:

المرحلة الأولى:

ما بعد الولادةِ إلى الفطامِ (السَّنة الثانية):

- وينبغي لوليِّ الصبيِّ ما يأتي:

١ـ الاهتمامُ بحضانةِ الصبي: والحضانةُ هي حفظُ الصبيِّ ورعايتُه بما يُصلِحُه؛ لأنّه أمانةٌ عند وليِّه، لا يستقلُّ بأموره.

٢ـ الاعتناءُ بإرضاعِه لبنَ مُرضِع صالحةٍ في قولِها وفعلِها، متورِّعةٍ في أكلِها من الحلال؛ لأنّ الطعامَ يؤثِّرُ في الطبع؛ فمَن تغذّى على لحمِ الغنمِ ورِث السكينةَ، ومَن تغذّى على لحمِ الإبلِ ورِث الغِلظةَ، ويؤثِّرُ كذلك في الفعل؛ فالطعامُ الخبيثُ يورِثُ الفعلَ الخبيث، والعياذُ بالله.

وفي ذلك يقولُ الله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ويقول: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

فبيَّن الله عز وجل أحكامَ المُرضِع، ومَن يخلفُها في الإرضاع، ولم يذكُر اللبنَ البديلَ عن الإرضاع، لماذا؟ لأنّه مع كلِّ رضعة: يلقمُ الطفلُ الثديَ،

ويُضـمُّ للصـدر، وقد يُحمَلُ ويُقبَّل، فيشـعرُ الطفلُ بالحنـانِ والمحبة؛ ويقابلُنا كذلك بنفسِ الشعور.

٣ـ ويُعـوَّدُ فـي هـذه السـنِّ علـى النظام؛ فيَجعـلُ لـه أوقاتًا محـددةً وثابتةً للرضاعة، وكذلك لقضاءِ الحاجة.

٤ـ وفي هذه السنِّ لا يُعلَّمُ الصبيُّ شيئًا؛ لعدمِ قدرتِه على الفهمِ أو المحاكاةِ في الغالب، إنما يُزجَرُ عن أكلِ الحرامِ بما يفهَم، كما في قولِ النبيِّ ﷺ للحسنِ لمّا أرادَ أن يأكلَ من الصدقة: «كِخْ كِخْ»، متفقٌ عليه.

وتربيةُ الأبناءِ تبدأُ من قبلِ ولادتِهم وبعدَ الولادةِ إلى أن يصيروا راشدِين، ومما يتعلَّقُ بالتربيةِ النفقةُ عليهم وعلى تربيتِهم من المالِ الحلالِ.

ومَثَلُ الذي ينفقُ على أولادِه مثلُ الذي يسقي زرعَه، فمَن سَقى زرعَه ماءً طيبًا أعطاه ثمرًا طيبًا، ومَن سَقى الزرعَ ماءً آسنًا ساء ثمرُه، وفسَد زرعُه.

وهكـذا، فمَـن أطعَم بَنيه حلالًا طاب معدِنُهم ورقَّ طبعُهم وسـما أدبُهم، ومَن أطعَمهم الحرامَ أفسَد نشأتَهم وأساءَ منبتَهم وأرهَق طلعتَهم.

ولئن كان للوالدِ الأجرُ الكبيرُ في نفقتِه على عيالِه فإنّه يُضيعُ الأجرَ كلَّه إن كانت نفقتُه حرامًا.

ومن نماذجِ النفقةِ الحلالِ وأثرِها في الأبناء، وكذلك النفقةُ الحرامُ وأثرُها في الأبناء:

١ـ الإمامُ محمدُ بنُ إسـماعيلَ البُخـاريُّ، صاحبُ أصحِّ كتابٍ بعد القرآنِ الكريـمِ عنـد المسـلمِين، المعـروفِ بـ«صحيـح البُخـاريِّ»، وهو مـن وفياتِ

عامِ ستّةٍ وخمسين ومئتَين للهجرةِ، ومن ذلك العامِ وإلى يومِنا هذا ما زال العلماءُ والفقهاءُ والوُعّاظُ والخطباء، يعتمدون على كتابِ محمدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ، يترحَّمون عليه، وعلى والدَيه، ويترضَّون عنه، وعن والدَيه اللَّذَين أنشَآه هذه النشأة، ومحمدٌ هذا هو ثمرةٌ من ثمارِ أبيه، عندما نزَلت بإسماعيلَ سكراتُ الموتِ جعَلت ابنتُه تبكي، فقال: يا بُنيّة، لمَ تبكين؟ فوالله ما أدخَلتُ إلى جوفي ولا إلى جوفِكم لقمةً حرامًا.

فكان أن كافأه الله بجعلِ ابنِه محمدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ صاحبَ «صحيحِ البُخاريِّ» أصحِّ كتابٍ بعد القرآنِ الكريمِ.

فهل نستطيعُ أنا وأنت أن نقولَ هذه الكلمةَ قبل موتِنا لأولادِنا؟

قال أبو حسانَ عيسى بنُ عبدِ الله البَصريُّ: سمعتُ الحسنَ بنَ عرفةَ يقول: قال لي ابنُ المباركِ: استَعرتُ قلمًا بأرضِ الشام، فذهَب عليَّ أن أرُدَّه، فلما قدِمتُ مَروَ نظرتُ، فإذا هو معي، فرجعتُ إلى الشامِ حتى رددتُه على صاحبِه.

ورُوي عن امرأةٍ صالحةٍ أنّه قد أتاها نعيُ زوجِها ـ خبرُ وفاتِه ـ وهي تعجنُ العجينَ فرَفعت يدَها، وقالت: هذا طعامٌ قد صار لنا فيه شريكٌ ـ تعني الورثةَ ـ.

ولقد نهى الإسلامُ عن الكسبِ الحرامِ؛ لأنّه شؤمٌ وبلاءٌ على صاحبِه، فبسببِه:

يقسو القلبُ،

وينطفئُ نورُ الإيمان.

ويحِلُّ غضبُ الجبّار.

ويمنعُ إجابةَ الدعاء.

ويكونُ وبالُ الكسبِ الحرامِ على الأمةِ كُلِّها.

فبسببِه تفشو مساوئُ الأخلاق؛

- من سرقةٍ وغصبٍ.
- ورِشوةٍ ورِبًا وغشٍّ واحتكار.
- وتطفيفٍ للكيلِ والميزان.
- وعقوقٍ للآباءِ والأمهات.
- وضياعٍ للحقوقِ والواجبات.
- وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطل.
- وشيوعِ الفواحشِ ما ظهَر منها وما بطَن.

ولقد أخبَرنا الصادقُ المصدوقُ ﷺ بأنّه سوف يأتي على الناسِ زمانٌ يتهاونون فيه في قضيةِ الكسبِ فلا يُدقّقون ولا يُحقّقون في مكاسبِهم، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «يأتي على الناسِ زمانٌ، لا يُبالِي المرءُ ما أخَذ منه، أمن الحلالِ أم من الحرام».

قال ابنُ بطّال: هذا يكونُ لضعفِ الدينِ وعمومِ الفتن، وقد أخبَر عليه السلام أنّ الإسلامَ بدَأ غريبًا وسيعودُ غريبًا، وأنذَر كثرةَ الفساد، وظهورَ المنكر، وتغيُّرَ الأحوال، وذلك من علاماتِ نبوّتِه عليه السلام.

بل إنّ بعضَ الناسِ لطمعِه يفتاتُ على ربِّه فيجعلُ الحرامَ حلالًا والحلالَ حرامًا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

عن ابنِ عباسٍ قال: كان أهلُ الجاهليةِ يأكلون أشياءَ ويتركون أشياءَ تقذُّرًا، فبعَث الله نبيَّه وأنزَل كتابَه، وأحلَّ حلالَه وحرَّم حرامَه، فما أحلَّ فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سكَت عنه فهو عفوٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إلى آخرِ الآيةِ [الأنعام: ١٤٥].

التربية التي تُوجَّه إلى الأبناء نوعان:

- نوع مباشر: وهو التأديبُ والتعليمُ والقدوةُ الحسنةُ.
- ونوعٌ غيرُ مباشر،

وما دام النوعُ غيرُ المباشرِ لا يحدثُ بسببِه صدامٌ بين الأبناءِ والوالدَين، فإنّ له أثرًا ناجعًا وفعّالًا في التأثيرِ في الأبناءِ والبنات، ومن هذه الوسائلِ غيرِ المباشرةِ في تربيةِ الأبناءِ ليصبحوا صالحِين:

١ـ أكلُ الحلالِ.

٢ـ وإطعامُ الأبناءِ من هذا الحلالِ.

٣ـ وإبعادُ الحرامِ عنهم.

ولا يقتصرُ الأمرُ على المَطعَمِ والمَشرَبِ فقط، وإنما في كلِّ نواحي الحياة، فإنّما البركةُ والخيرُ في الحلال، فقد جاء في «سننِ الترمذي»، عن كعبِ بنِ عُجرةَ رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا كعبَ بنَ عُجرةَ، إنّه لا يربو لحمٌ نبَت من سُحتٍ إلا كانت النارُ أولى به».

ومَعنى الحديث: «إنّه لا يَربُو لحم»، أي: لا يرتفعُ ولا يزيدُ لحمٌ، «نبَت»؛ أي: نشَأ، «من سُحت»؛ أي: من الحرامِ من المَكسَب، والمَطعَم، والمَشرَب، «إلا كانت النارُ أولَى به».

قال العلماءُ: الطعامُ يُخالِطُ البدنَ ويُمازِجُه وينبتُ منه فيصيرُ مادةً وعنصرًا له، فإذا كان خبيثًا صار البدنُ خبيثًا، فيستوجبُ النار، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ جسمٍ نبَت من سُحتٍ فالنارُ أولى به»، والجنةُ طيِّبةٌ لا يدخلُها إلا طيِّبٌ.

فهذا الوعيدُ متعلِّقٌ بمَن كسَب الحرامَ وأنفَقه، لكن مع ذلك فإنفاقُه على الأبناءِ فيه مَفسدةٌ لنفوسِهم وعقولِهم ونشأتِهم، فإنّه بمثابةِ السُّمِّ لذواتِهم وأرواحِهم، عن محمدِ بنِ زِياد، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنّ الحسنَ بنَ عليٍّ أخَذ تمرةً من تمرِ الصدقة، فجعَلها في فِيه، فقال النبيُّ ﷺ بالفارسية: «كِخْ كِخْ، أما تعرفُ أنّا لا نأكلُ الصدقة؟»، فالإنفاقُ على الأبناءِ من الحلال، من وسائلِ الحفاظِ على فطرتِهم سليمةً نقيةً من الأمراضِ الحسيّةِ والمعنويّة.

فإذا أردتُم صلاحَ أبنائكم فلا تَكسِبوا إلا حلالًا، ولا تُطعِموا أبناءكم إلا من حلال، فإذا أطعَمتُموهم حرامًا:

- فسيَفسُدون وتفسُدُ أخلاقُهم.
- وستشتكون عندها من فسادِهم وفسادِ أخلاقِهم.
- وسيُصبِحون وبالًا عليكم وعلى المجتمعِ بأكملِه.

وتأمَّلوا عبادَ الله، في فقهِ إسماعيلَ والدِ البُخاريِّ رحمهما الله، أميرِ المؤمنِين في الحديث، وهو على فراشِ الموتِ يقول: والله لا أعلمُ أنّي أدخلتُ على أهلِ بيتي يومًا درهمًا حرامًا أو درهمًا فيه شُبهةٌ.

لهذا كانت ثمرةُ حرصِ والدِ البُخاريِّ على الحلال، أن رزَقه الله من ذلك ولدًا صالحًا عالمًا محدِّثًا هو محمدُ بنُ إسماعيلَ البُخاريُّ رحمه الله أميرُ المؤمنِين في الحديث، الذي جدَّد الله به سنّةَ الرسولِ ﷺ وأبقاها به محفوظةً

في أمّةِ الإسلام، فتأمَّلوا عبادَ الله بركةَ الحرصِ على أكلِ الحلالِ وآثارَها الطيبةَ في الأبناء.

كان المباركُ رحمه الله تعالى ـ والدُ عبدِ الله بنِ المباركِ ـ عبدًا رقيقًا أعتَقه سيدُه، ثم اشتَغل أجيرًا عند صاحبِ بستان، وفي ذات يومٍ خرَج صاحبُ البستانِ مع أصحابٍ له إلى البستان، وقال للمبارك: ائتِنا برُمّانٍ حلو، فقطَف رماناتٍ ثم قدَّمها إليهم، فإذا هي حامضة، فقال صاحبُ البستان: أنت ما تعرفُ الحُلوَ من الحامض؟ قال: لم تَأذَن لي أن آكُلَ حتى أعرفَ الحلوَ من الحامض.

فقال له: أنت من كذا وكذا سنةً تحرسُ البستان، وتقولُ هذا! وظنَّ أنّه يخدعُه، فسأل الجيرانَ عنه فقالوا: ما أكَل رمانةً واحدة، فقال له صاحبُ البستان: يا مباركُ ليس عندي إلا ابنةٌ واحدة، فلمَن أُزوِّجُها؟ فقال له: اليهودُ يزوِّجون للمال، والنصارى للجَمال، والعربُ للحَسبِ، والمسلمون يزوِّجون للتقوى، فمن أيِّ الأصنافِ أنت، زوِّجِ ابنتَك للصنفِ الذي أنت منه، فقال: وهل يوجدُ أتقى لله منك؟ ثم زوَّجه ابنتَه.

سبحان الله!! عفَّ المباركُ عن رُمّانةٍ من البستان، فسِيقَ إليه البستانُ وصاحبتُه، والجزاءُ من جنسِ العملِ، ومَن ترَك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، ومن هذا البيتِ خرَج عبدُ الله بنُ المباركِ الذي كان يقول: لَأن أرُدَّ درهمًا من شُبهة، خيرٌ لي من أن أتصدَّقَ بمئةِ ألفِ درهم، ومئةِ ألفِ درهم... حتى عَدَّ سِتَّمئةِ ألفِ درهم.

والدٌ يتنزَّهُ عن الشبهاتِ، وكذا ابنُه الإمام، مَن كان لله كما يريد، كان الله له كما يريد، نسألُ الله من فضلِه.

إنّ ساحةَ كسبِ الحرامِ تتسعُ لتشملَ:

التهاوُنَ في وقتِ العمل، وذلك بالدخولِ في وقتٍ متأخّر، والخروجِ منه قبل الوقت، فهذا نوعٌ من أنواعِ الكسبِ الحرام،

كما التهاونُ في العملِ نوعٌ من أنواعِ الكسبِ الحرام،

والغشُّ سواءٌ في العمل، أو في المهنة، أو في التجارة، أو في الحرفةِ هو كذلك نوعٌ من أنواعِ الكسبِ الحرام، وسُمٌّ يتناولُه هؤلاء الأشخاصُ، ويُناولونه لزوجاتِهم وأبنائهم، فكيف ترجو منهم صلاحًا؟

إذا كنتُم تَحتاطون على أبنائكم من الفيروساتِ والميكروباتِ والأمراضِ بكلِّ أنواعِها، فإنّ إطعامَهم الحرامَ، هو أشدُّ فتكًا بهم وبحياتِهم، فاحذَروا من الحرامِ واحتاطوا منه وجنِّبوه أبناءكم فإنّه أخطَرُ من كلِّ الأمراضِ حيث تشعرون أو لا تشعرون، وهذا يقتضي منكم الاطلاعَ على المحرَّماتِ في مِهَنِكم وحِرَفِكم ووظائفِكم حفاظًا على سلامةِ حياتِكم وحياةِ أبنائكم وأُسَرِكم.

ومما لا شكَّ فيه أنّ الشجرةَ الطيبةَ ذاتَ الجذورِ الراسخةِ التي تُسقى بماءٍ صافٍ لا تُنبتُ إلا خيرًا.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ غرسًا طيبًا لأسرةٍ كريمةٍ طاهرة؛ فوالدُه هو عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ بنِ الحكم، من خيارِ أمراءِ بني أمية، كان شجاعًا كريمًا، وكان من تمامِ ورعِه وصلاحِه أنّه لمّا أراد الزواجَ قال لخازنه: اجمَع لي أربعَمئةِ دينارٍ من طيِّبِ مالي؛ فإنّي أريدُ أن أتزوَّجَ إلى أهلِ بيتٍ لهم صلاح، فتزوَّج أُمَّ عاصمٍ بنتَ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، حفيدةَ أمير

المؤمنين. إنّ زواجَه من آلِ الخطابِ ما كان ليتمَّ لولا عِلمُهم بحالِه وحُسنِ سيرتِه وخُلقِه؛ فقد كان حسنَ السيرةِ في شبابِه، فضلًا عن التزامِه وحرصِه على تحصيلِ العلمِ واهتمامِه بالحديثِ النبويِّ الشريف؛ فقد جلَس إلى أبي هريرةَ رضي الله عنه وغيرِه من الصحابةِ وسمِع منهم، وواصَل اهتمامَه بالحديثِ بعد ولايتِه مصرَ، فطلَب من كثيرِ بنِ مُرَّةَ في الشامِ أن يبعثَ إليه ما يسمعُه من حديثِ رسولِ الله ﷺ إلا ما كان من طريقِ أبي هريرةَ رضي الله عنه فإنّه عنده.

لذلك لا بدَّ أن ننتبهَ إلى أنّ صلاحَ الأولادِ والذريّةِ مسؤوليةٌ وأمانة، وأنّ لهذا الصلاحِ بعد توفيقِ الله تبارك وتعالى سببَين ظاهرَين:

أولهما: الحرصُ على الحلالِ الطيِّبِ في المَطعَمِ والمَنكَحِ.

وثانيهما: البحثُ عن الأُسَرِ الصالحةِ الطيبةِ عند الزواج، ليُخرِجَ الله لنا أبناءً بررةً غُذُّوا بالحلال، ونَشَؤوا عليه وعلى تعظيمِ الشرعِ الحنيف، وهذا النبتُ هو أساسُ الشجرِ الوارفِ الظلالِ الذي يُنتجُ للأمةِ ثمارًا نافعة، وأطفالُ اليومِ هم قادةُ الغد، فيا ليتنا ننتبهُ إلى بدايةِ الطريقِ الصحيحِ حتى لا نضلَّ ولا ننسى.

وعن أسلَم قال: بينما كنتُ مع عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه وهو يعُسُّ بالمدينةِ إذا هو قد أعيا فاتَّكأ على جانبِ جدارٍ في جوفِ الليل؛ فإذا امرأةٌ تقولُ لابنتِها: يا بنتاه! قُومي إلى اللبنِ فامذُقِيه بالماءِ (أي: اخلِطيه)، فقالت لها ابنتُها: يا أُمتاه! أما علِمتِ ما كان من عزمةِ أميرِ المؤمنِين اليومَ، ألا يُشابَ اللبنُ بالماء؟ فقالت الأمُّ: قُومي إلى اللبنِ فامذُقِيه بالماء؛ فإنّكِ في موضعٍ لا يراكِ فيه عمرُ ولا مُنادِي عمرَ، فقالت البنتُ لأُمِّها: واللهِ ما كنتُ لأُطِيعَه علانيةً

وأعصِيَه سِـرًّا. وكان أميرُ المؤمِنين في اسـتنادِه إلى الجدارِ يسمعُ هذا الحوارَ، فالتَفَت إليَّ يقول:

يا أسلَمُ، ضَع على هذا البابِ علامةً.

ثم مَضى أميرُ المؤمِنين في عَسِّـه، فلمّا أصبَح ناداني: يا أسـلَمُ، امضِ إلى البيـتِ الذي وضعـتَ عليه العلامة، فانظُر مَن القائلة، ومَـن المقولُ لها؟ انظُر هل لهما من رجل؟

يقول أسـلَم: فمضَيـتُ، فأتيتُ الموضع؛ فإذا ابنـةٌ لا زوجَ لها، وهي تُقِيمُ مـع أُمِّها وليس معهما رجل، فرجعـتُ إلى أميرِ المؤمِنين عمرَ فأخبرتُه الخبر، فدعـا إليـه أولادَه، فجمَعهم حوله ثم قال لهم: هـل منكم مَن يحتاجُ إلى امرأةٍ فأُزوِّجَه؟ لو كان بأبيكم حركةٌ إلى النساء، ما سبَقه أحدٌ منكم إلى الزواجِ بهذه المـرأةِ التي أعـرفُ نَبَأها، والتي أُحِـبُّ لأحدِكم أن يتزوَّجَهـا، فقال عاصمٌ: يا أبتاه، تَعلَمُ أن ليس لي زوجةٌ؛ فأنا أحقُّ بزواجِها.

فبعَـث أميـرُ المؤمِنيـن مـن يخطبُ بنـتَ بائعةِ اللبـنِ لابنِ أميـرِ المؤمِنين عاصـم، فزوَّجـه بها، فولَـدت له بنتًـا تزوَّجهـا عبدُ العزيزِ بنُ مـروان، فولَدت لـه خامسَ الخلفاءِ الراشـدِين الخليفـةَ الزاهدَ عمرَ بـنَ عبدِ العزيزِ رضوانُ الله عليهم أجمعين.

كان مـن يُمنِ هـذا التصرُّفِ الكريمِ أن كانت ثمرةُ هـذا الزواج، خليفةً لم تَعرِف الإنسانيةُ بعده نظيرًا له في عدالتِه، وزهادتِه، وسعادةِ رعاياه به، رضي الله عنه ورحمه.

ورحِم الله أهلَ المعرفةِ عندما قالوا: مَن أكَل الحلالَ أطاع الله شاء أم أبى، ومَن أكَل الحرامَ عَصى الله شاء أم أبى.

فإذا أردتَ أن يكونَ أولادُك من أهلِ الطاعةِ والبرِّ فلا تُنفِق عليهم إلا من المالِ الحلالِ الطيِّب.

قال أبو عبدِ الله النِّباجيُّ[1]: خمسُ خصالٍ بها تمامُ العمل:

١ـ الإيمانُ بمعرفةِ الله عز وجل.

٢ـ ومعرفةُ الحقِّ.

٣ـ وإخلاصُ العملِ لله.

٤ـ والعملُ على السُّنّةِ.

٥ـ وأكلُ الحلالِ.

فإن فُقِدت واحدةٌ لم يَرتفِعِ العمل؛ وذلك أنّك إذا عرَفتَ الله عز وجل ولم تَعرِف الحقَّ لم تَنتفِع، وإن عرَفتَ الحقَّ ولم تَعرِف الله لم تَنتفِع، وإن عرَفتَ الله وعرَفتَ الحقَّ ولم تُخلِص العملَ لم تَنتفِع، وإن عرَفتَ الله وعرَفتَ الحقَّ وأخلَصتَ العملَ ولم يكن على السنّةِ لم تَنتفِع، وإن تمَّتِ الأربعُ ولم يَكُن الأكلُ من حلالٍ لم تَنتفِع.

وقال وُهيبُ بنُ الوردِ: لو قُمتَ مقامَ هذه الساريةِ لم يَنفَعك شيءٌ حتى تنظُرَ ما يدخلُ بطنَك؛ حلالٌ أم حرام؟

(١) انظر: كتاب جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي (١: ٢٧٩).

ويقـولُ ميمـونُ بـنُ مِهرانَ: لا يكـونُ الرجلُ تقيًّا حتى يكونَ لنفسِـه أشـدَّ محاسبةً من الشريكِ لشريكِه، وحتى يعلمَ من أين مَلبَسُه ومَطعَمُه ومَشرَبُه؟

وقـال يوسـفُ بنُ أسـباطٍ: إذا تعبَّد الشـابُّ يقـولُ إبليس: انظـروا من أين مطعمُـه؟ فـإن كان مطعمُه مطعمَ سـوءٍ قال: دعُوه لا تَشـتغِلوا به، دعُوه يَجتهِد وينصَب؛ فقد كفاكم نَفسَه.

وقـال سـهلُ بـنُ عبدِ الله: مَن نَظَر فـي مطعمِه دخَـل عليه الزهـدُ من غيرِ دعوى[١].

وسـأل رجلٌ سـفيانَ الثَّوريَّ عن فضلِ الصفِّ الأوَّلِ فقال: انظُر كِسـرتَك التي تأكلُها من أين تأكلُها؟ وقُم في الصفِّ الأخيرِ.

وقـال إبراهيـمُ بـنُ أدهمَ: مـا أدرَكَ مَـن أدرَك؛ إلا مَن كان يعقـلُ ما يدخلُ جوفَه.

لقـد كانـوا رحمهـم الله يؤكِّـدون هـذا المعنـى كثيـرًا؛ حتـى إنّ الفُضَيـلَ رحمه الله لما أرادَ أن يعرفَ أهلَ السنّةِ قال: أهلُ السُّنّةِ مَن عرَف ما يدخلُ بطنَه من حلال.

إنّ كلَّ معاملةٍ ليسـت على أصلٍ شـرعيٍّ واضحٍ هي من أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ الذي حرَّمه الله ونهى عنه.

وكـم تَجـرَّأ الناسُ على الكسـبِ الحرام؛ فهذا عاملٌ لا يـؤدِّي عملَه على

---

(١) انظر: كتاب الزهد الكبير، للبيهقي (ص٤٣).

وجهٍ صحيح، ورَبُّ عملٍ يقتطعُ من حقِّ أجيرِه، وموظَّفٌ لا ينهضُ بمسؤوليةِ وظيفتِه، وتاجرٌ يغشُّ في سلعتِه، ومتجرِّئٌ على التعامُلِ بالربا، ومُتاجِرٌ بما يُفسِدُ عقولَ الناسِ ويدمِّرُ حياتَهم... والكسبُ الحرامُ ينعكسُ على صلاحِ الأولاد.

وفي تصنيفِ المالِ الحرامِ ما يفتحُ أبوابًا للشيطان:

- فيها الشرُّ والفسادُ والهلاكُ وتردِّي الأوضاعِ الأسريّةِ.
- تتحوَّلُ السعادةُ إلى مشاكلَ هي مُنغِّصاتٌ لراحةِ البالِ وصفاءِ الذهنِ وطمأنينةِ الخاطرِ.
- فتنشأُ العداوةُ فيما بين أبناءِ تلك الأسرةِ.
- وتكثرُ القطيعةُ والتنافسُ للظفرِ على مالٍ ليس لهم أصلًا.
- ويفقدُ آكِلُ الحرامِ البَصيرةَ في أكلِ الحرامِ.
- ويُغلَّفُ قلبُه بالرانِ فلا يفقَهُ شيئًا في المحرَّماتِ والممنوعات، ويُزيِّنُ له الشيطانُ هذه السبيلَ فيُحبُّها، بل ويَعشَقُها، ويرى فيها فخرًا واستِحسانًا له ولأسرتِه،
- وهي بلاءٌ من الله ينزلُ بأهلِه.
- والمرضُ ينخُرُ جسدَ كلِّ مَن أكَل مالًا حرامًا؛ مصداقًا لقولِه ﷺ: «كلُّ لحمٍ نبَت من سُحتٍ، فالنارُ أوْلَى به»، ولو أنّ أفرادَ الأسرةِ ليس لهم ذنبٌ في هذا المكسبِ الحرامِ الذي دخَل البيتَ من أبوابِه الواسعة، ولكن صلاةُ الإنسانِ تنهاه عن الفحشاءِ والمُنكَر، ومِن المُنكَرِ عدمُ السؤالِ عن مصدرِ ذاك الرِّزق، خاصةً إن كان كثيرًا في حَجمِه.

تربية الأبناء على حب الحلال:

يجبُ الاتفاقُ بين الزوجَين على تربيةِ الأبناءِ على حبِّ الحلالِ والبعدِ عن الحرام، في بدايةِ الحياةِ الزوجية، مهما كانت الظروفُ وضغوطُ الحياةِ ومتطلَّباتِ الأسرة، ولا بدَّ من التنشئةِ على كراهيةِ الكذبِ لأيِّ سبب، والإقبالِ على قولِ الحقِّ وعدمِ الخوفِ من النتائج، والتوكُّلِ على الله تعالى فهو كفيلٌ بعونِنا على النجاةِ إن اتَّقيناه، ويمكنُ اتِّباعُ هذه الوسائلِ لتنشئةِ الأطفالِ على الحلال:

ـ غرسُ محبةِ الله وتقواه تعالى: فذلك مما يعينُ على طلبِ الحلالِ والبعدِ عن الحرام، فلا نقبلُ أخذَ شيءٍ لا يحقُّ لنا وإن وجَدناه في الطريق، ولا نأكلُ طعامًا لا يحلُّ لنا، ولا نسرقُ شيئًا ليس من حقِّنا.

ـ الأسرةُ هي المسؤولُ الأولُ عن التربية: ومن الضروريِّ عدمُ تركِ قضيةِ تربيةِ أطفالِنا وفقَ مبادئِ الحلالِ والحرامِ على عاتقِ المدرسةِ والرفاقِ ووسائلِ الإعلامِ وحدها؛ لأنّ الأهلَ هم الأولى بالتربيةِ والمتابعةِ والحرصِ على التنشئةِ السليمة، فهي الطريقُ المُوصلُ إلى الجنة، والمُبعِدُ عن النار، لا الانشغالُ بكسبِ المالِ وتوفيرِ احتياجاتِ الأسرةِ كافةً.

ـ استخدامُ وسائلِ الإقناع، وتعزيزُ مبدأي الثوابِ والعقاب: فتعليمُ الأبناءِ حبَّ الحلال، والابتعادَ عن الحرامِ يحتاجُ إلى وسائلَ في التربيةِ والإقناع كتذكيرِ الأبناءِ بأنّ لكلِّ شخصٍ ملكَين يُسجِّلان ما يقولُ وما يفعلُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فلمَ لا يكونُ كلامُنا ذِكرًا وشُكرًا وخَيرًا وعونًا وإبداعًا وإسعادًا للنفسِ وللآخرِين، بدلًا من أن يكونَ كلامَ سوءٍ وشرٍّ وإيذاء؟

استخدامُ المعزِّزاتِ الماديّةِ والمعنويةِ: وذلك كلَّما تلفَّظوا بكلماتٍ يُحبُّها الله تعالى، أو مارَسوا شَيئًا من ذكرِ الله تعالى كالاستغفارِ والتسبيح، ويمكنُ معاقبتُهم أو حرمانُهم من بعضِ ما يُحبُّون إن تلفَّظوا بما حرَّم الله تعالى أو ارتكبوا المحرَّمات، فإن تربّى الأبناءُ على ذلك فلن يقلَقَ الآباءُ عليهم أينما حَلُّوا أو ارتَحلوا.

دوائر الحلال:

ومن رحمةِ الله بعبادِه أن جعَل دائرةَ الحلالِ كبيرة، ودائرةَ الحرامِ ضيقةً قليلة، فمثلًا:

أحلَّ الله جميعَ المالِ عدا الربا أو الرشوةَ أو السرقةَ، وجميعُها إمّا بها إيذاءٌ للآخرِين، أو إيذاءٌ للنفس،

وحلَّل الله جميعَ أنواعِ اللحومِ إلا لحمَ الخنزير، والذي ثبَتت مضارُّه الكثيرةُ على صحّةِ الإنسانِ،

وأحلَّ الله جميعَ المشروباتِ وحرَّم الخمر،

وأحلَّ جميعَ المأكولاتِ إلا ما به مضرّةٌ للإنسان،

وأحلَّ الكلامَ إلا ما كان به أذًى للآخرِين كالغِيبةِ أو النميمةِ أو الكذبِ أو قذفِ المُحصَناتِ.

الآداب النبوية في الطعام:

١ـ **استحضارُ النيّةِ**: نيّةِ التقوِّي على طاعةِ الله وامتثالِ أمرِ الله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

٢ـ التسميةُ في أوَّلِ الطعام: ففي «الصحيحين» عن عمرَ بنِ أبي سلمةَ رضي الله عنه، قال: كنتُ غُلامًا في حِجرِ رسولِ الله ﷺ، وكانت يدي تَطيشُ في الصَّحفة، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «يا غلامُ، سَمِّ الله، وكُل بيَمينِك، وكُل مما يَليك»، فما زالَت تلك طِعمتي بعد(١).

فإذا نسِي أن يُسمِّيَ في أوَّلِ الأكل، فليَقُل: باسمِ الله أوَّلَه وآخِرَه.

قد روى الترمذيُّ ـ وقال: حسنٌ صحيحٌ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أكَلَ أحدُكم طعامًا، فليقُل: باسمِ الله، فإن نسِي في أوَّلِه، فليقل: باسمِ الله في أوَّلِه وآخِرِه». وفي روايةٍ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: كان النبيُّ ﷺ يأكلُ طعامًا في ستةٍ من أصحابِه، فجاء أعرابيٌّ فأكَلَه بلُقمتينِ، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنّه لو سَمَّى لكفاكم».

٣ـ الأكل باليمين: روى مُسلمٌ في «صحيحه» عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أكَل أحدُكم فليأكُل بيمينِه، وإذا شرِب فليشرَب بيمينِه؛ فإنّ الشيطانَ يأكلُ بشِمالِه، ويشربُ بشمالِه»(٢).

وروى عن إياسِ بنِ سَلَمَةَ بنِ الأكوعِ أنّ أباه حدَّثه: أنّ رجلًا أكَل عند رسولِ الله ﷺ بشِمالِه، فقال: «كُل بيمينِك»، قال: لا أستطيعُ، قال: «لا استَطعتَ»، ما منَعه إلا الكِبرُ، قال: فما رفَعها إلى فيه.

٤ـ الأكل من الجانب الذي يليه: ففي «الصحيحين» عن عمرَ بنِ أبي سلمةَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

رضي الله عنه، قال: كنتُ غُلامًا في حِجرِ رسولِ الله ﷺ، وكانت يدي تَطيشُ في الصَّحفة، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «يا غلامُ، سَمِّ الله، وكُل بيَمينِك، وكُل مما يَلِيك»، فما زالَت تلك طِعمتي بعد[1].

٥ـ الأكل من جوانب القصعة أو الطبق: روى أبو داودَ ـ بسندٍ حسنٍ ـ عن عبدِ الله بن بُسرٍ رضي الله عنه قال: كان للنبيِّ ﷺ قَصعةٌ يقال لها: الغَرّاء، يحملُها أربعةُ رجالٍ، فلمّا أضحَوا وسجَدوا الضحى، أُتِي بتلك القصعة، يعني: وقد ثُرِد فيها، فالتفُّوا عليها، فلمّا كثُروا جثا رسولُ الله ﷺ، فقال أعرابيٌّ: ما هذه الجِلسة؟ قال النبيُّ ﷺ: «إنّ الله جعَلني عبدًا كريمًا، ولم يَجعَلني جبّارًا عنيدًا»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «كُلُوا من حواليَها، ودَعُوا ذروتَها[2] يُبارَك فيها».

والبركة: النماءُ والزيادةُ ومحلُّها الوسط، فاللائقُ إبقاؤه إلى آخرِ الطعام؛ لبقاءِ البركةِ واستمرارِها، ولا يحسُنُ إفناؤه وإزالتُه.

وروى الإمامُ أحمدُ بسندٍ صحيحٍ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «كُلُوا في القصعةِ من جوانبِها، ولا تأكلوا من وسطِها؛ فإنّ البركةَ تنزِلُ في وسطِها»[3].

٦ـ عدم الأكل متكئًا: روى البخاريُّ في «صحيحه» عن أبي جُحَيفة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا آكُلُ مُتَّكِئًا»[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٢) ذروتها: الذروة ـ بالضم والكسر ـ: أعلى الشيء، والمراد الوسط.
(٣) رواه أحمد (٢٣٧٥)، بسند صحيح.
(٤) رواه البخاري (٥٣٩٨).

٧ـ **ألا يعيب طعامًا**: ففي «الصحيحين» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: ما عاب النبيُّ ﷺ طعامًا قط، إن اشتَهاه أكَله، وإلا ترَكه[١].

٨ـ **ثُلُث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه**: فقد روى الترمذيُّ ـ وقال: حسنٌ صحيحٌ ـ عن مِقدامِ بنِ مَعدِي كَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، بحسبِ ابنِ آدمَ أكلاتٌ يُقِمن صُلبَه، فإن كان لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامِه، وثلثٌ لشرابِه، وثلثٌ لنفَسِه»[٢].

٩ـ **عدم النفخ في الطعام والشراب**: روى الإمامُ أحمدُ بسندٍ صحيح عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: نَهى رسولُ الله ﷺ عن النفخِ في الطعامِ والشرابِ[٣]. وروى الترمذيُّ ـ وقال: حسنٌ صحيحٌ ـ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: أنّ النبيَّ ﷺ نَهى عن النفخِ في الشُّرب، فقال رجلٌ: القذاةُ أراها في الإناءِ، قال: «أهرِقها» ـ أي: صُبَّها ـ قال: فإنِّي لا أُروى من نَفَسٍ واحد، قال: «فأبِنِ القَدَحَ إذًا عن فيك»[٤].

١٠ـ **عدم ترك اللقمة الساقطة**: روى مُسلمٌ في «صحيحه» عن جابرٍ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٠٦٤).
وقوله: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، كان إذا اشتهى شيئًا أكله، وإن كرهه تركه»، هذا من آداب الطعام المتأكدة، وعيبُ الطعام؛ كقوله: مالح، قليل الملح، حامض، رقيق، غليظ، غير ناضج، ونحو ذلك، وأما حديث ترك أكل الضب، فليس هو من عيب الطعام، إنما هو إخبار بأن هذا الطعام الخاص لا أشتهيه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢٨١٣) وقال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس به، وهذا سند صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٣٧٢٢) والترمذي (١٨٧٧) وقال: حسن صحيح.

رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنّ الشيطانَ يحضُرُ أحدَكم عند كلِّ شيءٍ من شأنِه، حتى يحضرُه عند طعامِه، فإذا سقَطت من أحدِكم اللقمةُ فليُمِط ما كان بها من أذًى، ثم ليأكُلها، ولا يدَعها للشيطان، فإذا فرَغ فليَلعَق أصابعَه؛ فإنّه لا يَدري في أيِّ طعامِه تكونُ البركةُ»(١).

١١ـ عدمُ القِرانِ في التمرِ ونحوِه إذا كان يأكلُ مع أحدٍ إلا بإذنِه: ففي «الصحيحين» عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: نَهى النبيُّ ﷺ أن يقرِنَ الرجلُ بين التمرتينِ جميعًا حتى يستأذنَ أصحابَه(٢).

١٢ـ الحمد بعد الطعام: في «سنن أبي داود» بسندٍ صحيح عن أبي أيوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أكَل أو شرِب قال: «الحمدُ لله الذي أطعَمَ وسَقى وسوَّغه وجعَل له مَخرَجًا»(٣).

أطعَم وسقى: رزَقنا الطعامَ والشراب.
سوَّغه: سهَّل دخولَه وجعَل الجسمَ يقبلُه ولا يتضرَّرُ به.
مخرجًا: أي: من السبيلَين؛ فيخرجُ منهما الضارُّ وتبقى منافعُه.

وروى البُخاريُّ في «صحيحه» عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه: أنّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفَع مائدتَه قال: «الحمدُ لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غيرَ مَكفيٍّ ولا مُودَّعٍ ولا مُستغنًى عنه، رَبُّنا»(٤).

طيبًا: أي: خالصًا من الرياءِ والسمعةِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٣).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٨٩)، ومسلم (٢٠٤٥).
(٣) رواه أبو داود (٣٨٥١) بسند صحيح. (٤) رواه البخاري (٥٤٥٨).

مباركًا: حَمدًا ذا بركةٍ دائمًا لا ينقطعُ؛ لأنّ نعمَه لا تنقطعُ عنا، فينبغي أن يكونَ حمدُنا غيرَ منقطعٍ أيضًا، ولو نيةً واعتقادًا.

غيرَ مكفي: لا يكفيه أحدٌ رزقَ عبادِه؛ يعني أنّه تعالى هو المُطعِمُ لعبادِه، والكافي لهم، فالضميرُ راجعٌ إلى الله تعالى.

ولا مودَّع: غيرَ متروكٍ.

ولا مُستغنًى عنه: غيرَ مطروحٍ ولا مُعرَضٍ عنه، بل محتاجٌ إليه.

ربُّنا: بالرفعِ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هو ربُّنا.

وروى الإمامُ أحمدُ بسندٍ حسنٍ عن عبدِ الرحمنِ بنِ جُبيرٍ: أنّه حدَّثه رجلٌ خدَم رسولَ الله ﷺ ثمانيَ سنين، أنّه سمِع النبيَّ ﷺ إذا قُرِّب إليه طعامُه، يقول: «باسم الله»، وإذا فرَغ من طعامِه، قال: «اللهمَّ أطعمتَ وأسقيتَ، وأغنيتَ وأقنيتَ وهديتَ وأحييتَ، فلك الحمدُ على ما أعطيتَ»[١].

أقنَيتَ: أرضَيت.

فالحمدُ بعد الطعامِ من أسبابِ رضا الله عن العبد، وقد روى مسلمٌ عن أنسٍ رضي الله عنه: أنّ النبيَّ ﷺ، قال: «إنّ الله لَيرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ، فيحمَدَه عليها، ويشربَ الشربةَ، فيحمَدَه عليها»[٢].



(١) رواه أحمد (٤: ٥٦٢) (٣٧٥) بسند حسن.
(٢) رواه مسلم (٥٠٢٢).

المرحلة الثانية

قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[١٧] وبَعـــدَ فَطمِـــهِ تَجِدْهُ يَشـــتَهِي ... أكلَ الطَّعَـــامِ دَائمًـــا لَا يَنتَـــهِي
[١٨] فَعَلِّمُـــــوهُ الأكلَ بِاليَمِـــــينِ ... والبَســـمَلَهْ حَتمًا بِـــكُلِّ حِينِ
[١٩] ولَا يُبَـــادِرْ قَبـــلَ أكلِ صَاحِبِهْ ... ويَـــأكُلُ العَيـــشَ الذِي بِجَانِبِـــهْ
[٢٠] ويَمضَغُ اللُّقمَـــةَ مَضغًا مُحكَمَا ... ولَا يُسَـــارِعْ أو يُـــوالِي اللُّقَمَـــا
[٢١] ويَـــأكُلُ اليَابِسْ مِـــنَ الطَّعَامِ ... تَعَلُّمًـــــا تَحتُّـــــا بِـــــلَا إدَامِ
[٢٢] حِينًا فَحِينًا في العَشَـــاءِ والغَدَا ... كَي لَا يَـــرَى الإدَامَ حَتمًـــا أَبَـــدَا
[٢٣] وأن يُجَنِّبْـــهُ فُنُـــونَ الزِّينَـــهْ ... وجُملَـــةَ المَلَابِـــسِ الرَّزِينَـــهْ
[٢٤] ويَكسُـــهُ لَونَ بَيَاضِ القُطنِ ... حَتَّى بِـــهِ عَن غَـــيرِهِ يَســـتَغنِي
[٢٥] وإن طَلَـــبْ مَنقُوشًـــا او مُلَوَّنَا ... يَقُـــولُ: ذَاكَ لِلنِّسَـــاءِ لَا لَنَـــا
[٢٦] لِبَاسُ أهلِ الفِســـقِ والتَّخنِيثِ ... وأحمَـــقٍ وفَاجِـــرٍ خَبِيـــثِ
[٢٧] ولَا يُنَعِّـــمْ جِســـمَهُ بِمَلبَـــسِ ... طُولَ المَدَى ولَا فِـــرَاشٍ أملَسِ
[٢٨] بَـــل كُلَّمَـــا كَانَت به خُشُـــونَهْ ... فَإنَّـــهُ أخَـــفُّ لِلمَؤُونَـــهْ
[٢٩] يُصَلِّـــبُ الأعضَـــاءَ لَا يُبَـــالِي ... بِالمَـــشي أو بِسَـــائِرِ الأفعَـــالِ
[٣٠] ويَمتَنِـــعْ نَـــومُ النَّهَـــارِ قَطعَا ... خَوفَ الكَسَـــلْ أو يَتَّخِذْهُ طَبعَا

* * *

الشرح:

من بعد الفطامِ إلى سنِّ تمييزِ الصبيِّ ما يُستحَى منه، ويَحفظُ عَورتَه (السَّنة الرابعة):

- وينبغي تعليمُ الصبيِّ فيها ما يأتي:

أولًا: يُعلِّمُه آدابَ الطعامِ.

لأنَّه بدَأ أوَّلَ أكلِه الطعامَ بعد فطامِه، وذكَر منها ستةَ آداب: وقد ذكَرنا آدابَ الطعامِ آنفًا.

ثانيًا: ويُعلِّمُه آدابَ اللباسِ.

لأنَّه بدَأ يَستحيِي من ظهورِ عورتِه، وذكَر منها ستةَ آداب:

١ـ يُجنِّبُه فنونَ الزينةِ[١].

(١) الصبيان يمنع إلباسهم ما يحرم على الرجال في المعتمد من مذهب الحنفية والحنابلة، ويكره عند المالكية على المعتمد، ويجوز على الأصح عند الشافعية، قال ابن قدامة في «المغني»: فصل: وهل يجوز لولي الصبي أن يلبسه الحرير؟ فيه وجهان، أشبههما بالصواب تحريمه؛ لعموم قول النبي ﷺ: «حُرِّم لباس الحرير على ذكور أمتي، وأُحِلَّ لإناثهم»، وروى أبو داود بإسناده عن جابر، قال: كنا ننزعه عن الغلمان، ونتركه على الجواري، وقدم حذيفة من سفر وعلى صبيانه قُمُص من حرير، فمزّقها على الصبيان، وتركها على الجواري. أخرجه الأثرم، ورُوي أيضًا عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنت رابع أربعة، أو خامس خمسة، مع عبد الله، فجاء ابن له صغير عليه قُمُص من حرير فدعاه فقال له: من كساك هذا؟ قال: أمي، فأخذه عبد الله فشقه. والوجه الآخر، ذكره أصحابنا، أنه يباح؛ لأنهم غير مكلفين، فلا يتعلق التحريم بلبسهم، كما لو ألبسه دابة، ولأنهم محل للزينة فأشبهوا النساء، والأول أصح؛ لظاهر الحديث، وفعل الصحابة، ويتعلق التحريم بتمكينهم من المحرمات كتمكينهم من =

٢ـ ويُبغِّضُ إليه الملابسَ الفاحشةَ المبتذَلة.

= شرب الخمر، وأكل الربا، وغيرهما، وكونهم محل الزينة ـ مع تحريم الاستمتاع بهم ـ يقتضي التحريم لا الإباحة، بخلاف النساء. اهـ.

وقال الزيلعي في «تبيين الحقائق»: وكُره إلباس ذهب وحرير صبيًّا؛ لأن التحريم لمّا ثبت في حق الذكور وحرم اللبس حرم الإلباس أيضًا كالخمر، لما حرم شربها حرم سقيها الصبي، وكذا الميتة والدم. اهـ.

وقال الحموي في «غمز عيون البصائر»: ولا يجوز للولي إلباسه الحرير والذهب، ولا أن يسقيه الخمر، ولا أن يُجلسه للبول والغائط مستقبلًا أو مستدبرًا، ولا أن يخضب يده أو رجله بالحناء. اهـ.

وقال الدردير المالكي: وأما الصغير فيكره لوليه إلباسه الذهب والحرير ويجوز له إلباسه الفضة، هذا هو المعتمد. اهـ.

وقال العراقي في «طرح التثريب» في شرحه لحديث: أُهدِيَ إلى رسول الله ﷺ فَرُّوجُ حريرٍ فلبسه ثم صلى فيه ثم نزعه نزعًا عنيفًا شديدًا كالكاره له، ثم قال: «لا ينبغي هذا للمتقين»: قد يخرج بقوله: «للمتقين»، الصبيانُ؛ فإنهم ليسوا أهل تكليف، وغير مأمورين بالتقوى، وقد قال أصحابنا: يجوز إلباسهم الحرير والحلي في يوم العيد، وفي جواز إلباسهم ذلك في باقي السنة ثلاثة أوجه: **أصحها** عند الرافعي في «المحرر» والنووي: جوازه، **والثاني**: تحريمه، **والثالث**: جوازه قبل سن التمييز، وهو سبع سنين، وتحريمه بعدها، وصححه الرافعي في «شرحه» ونقله عن العراقيين، وعن أحمد روايتان أصحهما التحريم مطلقًا. اهـ.

وقال الرملي في «نهاية المحتاج» **(٢: ٣٧٦)**: والأصح أن للولي ـ الأب، أو غيره ـ إلباسه؛ أي: الحريرِ، الصبيَّ ولو مراهقًا، وتزيينه بالحلي ولو من ذهب وإن لم يكن يوم عيد، إذ ليس له شهامة تنافي خنوثة ذلك، ولأنه غير مكلف، ومقابل الأصح ليس للولي إلباسه في غير يومي العيد، بل يمنعه منه كغيره من المحرمات. اهـ.

قال الشبراملسي في الحاشية عليه: قوله: «وأن للولي»؛ أي: ممن له ولاية التأديب فيشمل الأم والأخ الكبير مثلًا، فيجوز لهما إلباسه الحرير فيما يظهر، قوله: «إلباسه الصبي»، فرع: اعتمد (م ر) أن ما جاز للمرأة جاز للصبي فيجوز إلباس كل منهما نعلًا من ذهب حيث لا إسراف عادة. اهـ.

٣ـ وكذا لباسُ النساء، والبنتُ لا تلبسُ لباسَ الرجال.

٤ـ ولباسُ أهلِ الفسوقِ والميوعةِ لباسُ الكفارِ(١).

---

(١) وليحذر المسلم من بدايات التبرج في محارمه وذلك بالتساهل في لباس بناته الصغيرات بأزياء لو كانت على بالغات لكانت فسقًا وفجورًا. مثل: إلباسها القصير، والضيق، والبنطال والشفاف الواصف لبشرتها، إلى غير ذلك من ألبسة أهل النار، كما في الحديث الصحيح. وفي هذا من الإلف للتبرج والسفور، وكسر حاجز النفرة، وزوال الحياء، ما لا يخفى، فليتق الله من ولّاه الله الأمر أن يلبسوا البنات اللباس الطويل حتى يعتدنه ويكون سجية لهن، وأن يلبسوا الأولاد اللباس الذي فوق الكعب حتى يعتادوه، هذا هو المشروع، ولا يجوز للمسلم ولا للمسلمة أن يربي أولاده على خلاف المشروع، فالمؤمن يربي أولاده على المشروع والمؤمنة كذلك، فالبنت الصغيرة تُربَّى على الطويل حتى تعتاده، وتُربَّى على الستر وعدم التساهل في الأمور، هذا هو المشروع في الجميع، والرجل يُربَّى على الشرع أن تكون ثيابه فوق الكعب، ولا يُربَّى على الدخان أو المسكر أو العقوق أو السب، بل يُزجَر عن ذلك، حتى لا يعتاد سب والديه، ولا العقوق لهما، ولا التدخين ولا شرب المسكر ولو كان صغيرًا، يُربَّى على الحق، حتى يستقيم ولو بالضرب، وهكذا البنت تُربَّى على الخير وعلى الخلق الجميل، وعلى ستر العورة على حسب الطاقة بالكلام الطيب والأسلوب الحسن، ولو بالضرب عند الحاجة إلى ذلك، حتى إذا بلغت فإذا هي قد استقامت على الخير والهدى والصلاح.

ومن المعلوم أن الإنسان يتأثر بالشيء في صغره، ويبقى متأثرًا به بعد الكبر، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نأمر الصبيان بالصلاة لسبع سنين، ونضربهم عليها لعشر؛ ليتعودوا، والطفل على ما اعتاد، فإذا اعتادت الطفلة الصغيرة أن تلبس القصير الذي يصل إلى الركبة، والقصير الذي يصل إلى العضد أو الكتف: ذهب عنها الحياء، واستساغت هذه الملابس بعد كبرها، كذلك بالنسبة للشعر، فالمرأة لا بد أن يكون لها شعر يتميز عن شعر الرجال، فإن جعلت شعرها كشعر الرجال: فقد تشبهت بهم، وقد لعن النبي ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال. وليُعلم أن الأهل مسؤولون عن هؤلاء الصبيان، وعن توجيههم، وتربيتهم، كما قال النبي ﷺ: «الرجل راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته». فالحذر الحذر من الإهمال، وليكن الإنسان جادًّا في توجيه أبنائه، وبناته، حريصًا عليهم، حتى يصلحهم الله تبارك وتعالى، ويكونوا قرة عين له.

=

٥ـ ويُعوِّدُه لبسَ الأبيضِ من القطنِ غيرِ المنقوشِ أو الملوَّن.

٦ـ ويُلبِسُه ويفرشُ له الثيابَ الخشنة؛ ليعتادَ عدمَ طلبِ الغالي، ولتتصلَّبَ أعضاؤه وتَقوى.

ثالثًا: وينبغي تأديبه على النشاطِ وتركِ الكسل؛ فهي سِنُّ أوَّلِ حركتِه، وذكَر في ذلك ثلاثةَ أعمالٍ مناسبةٍ لسنِّه.

١ـ كثرةَ المشيِ وتركَ حَملِه واعتمادِه على غيرِه،

٢ـ قضاءَ ما يستطيعُ من الأفعالِ بنفسِه،

٣ـ وكيف يرتِّبُ ألعابَه وينظِّمُ أغراضَه،

ويمنعُه نومَ النهار؛ لئلا يعتادَ الكسل،

وكذلك يؤدِّبُه على تركِ طبعِ الاتكالِ على الغيرِ.

ـ وطريقةُ التربيةِ في هذه السنِّ كما ظهَر مما سبَق:

١ـ أن يُكرِّرَ تعليمَه آدابَ الطعامِ واللباسِ مع كلِّ طعامٍ ولباس، قال

= ويجب على الإنسان مراعاة المسؤولية، فعليه أن يتقي الله ويمنع كافة من له ولاية عليهن هذه الألبسة، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد»، وذكر: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها».

وهؤلاء النسوة اللاتي يستعملن الثياب القصيرة كاسيات؛ لأن عليهن كسوة، لكنهن عاريات لظهور عوراتهن؛ لأن المرأة بالنسبة للنظر كلها عورة، وجهها ويداها ورجلاها، وجميع أجزاء جسمها لغير المحارم. وكذلك الألبسة الضيقة، وإن كانت كسوة في الظاهر لكنها عري في الواقع، فإن إبانة مقاطع الجسم بالألبسة الضيقة هو تعرٍّ، فعلى المرأة أن تتقي ربها ولا تبين مفاتنها، وعليها ألا تخرج إلى السوق إلا وهي متبذلة لابسة ما لا يلفت النظر، ولا تكون متطيبة لئلا تجر الناس إلى نفسها.

ابنُ خلـدونَ رحمه الله: «المَلَكاتُ إنّما تحصلُ بتتابُعِ الفعلِ وتكرارِه»، وهكذا مع كلِّ يومٍ،

٢ـ ويقرِّبَ إليه ما ينفعُه من الطيِّب، ويبعدَ عنه ما يضرُّه من الخبيث،

٣ـ ويحرمَه من الطيباتِ تارةً وتارة، ويعلِّلَ له هذه الأوامرَ بما يُفهَم؛ كقوله: هذا للنساء، وليس لنا معاشرَ الرجالِ.



المرحلة الثالثة

قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[٣١] وإن بَــدَت أمَــارَةُ التَّميِــيزِ وَكُلِّ فَهــمٍ فَاضِــلٍ عَزِيــزِ
[٣٢] وصَارَ يَســتَحيِي مــن الأُمُورِ فَــذَاكَ مِن أوَّل بُــدُوِّ النُّورِ
[٣٣] هَدِيَّــةٌ مِــن رَبِّــهِ أهدَاهَــا عَــرَّفْ بِهَــا الأشــيَا بِمُقتَضَاهَا
[٣٤] فَــذَاكَ أوَّلْ وَقــتِ فَهمِ الطِّفلِ أشرَقْ بِهَــا عليــه نُــورُ العَقلِ
[٣٥] فَليُلزِمُــوهُ الدَّرسَ لِلقُــرآنِ فَإنَّــهُ عِلــمٌ عَظِيــمُ الشَّــانِ
[٣٦] أيضًا وشُغلٌ شَاغِلٌ قَلبَ الصَّبِي عَن كُلِّ مَا يُوجِــبُ نَقصَ الأدَبِ
[٣٧] وإن ضَرَبْ مُعَلِّــمُ الصِّبيَــانِ أو والِدٌ بَعضًــا مِــنَ الــوِلدَانِ
[٣٨] فَلَا يَكُنْ مِثلَ النِّسَــاءِ يَبكِي ويَشــتَفِع بِغَــيرِهِ ويَشــتَكِي
[٣٩] فَعَــادَةُ الشُّــجعَانِ ألَّا يَذكُرُوا كُلَّ الذِي جَرَى لَهُــم بَل يَصبِرُوا
[٤٠] ورَاحَــةُ الصِّبيَانِ بَعدَ المَكتَبِ أن يَــأذَنَ الــولِي لَهُــم بِاللَّعِبِ
[٤١] فَإنَّــهُ عِنــدَ الصِّبَــا مَحبُــوبُ وقَلبُــهُ أيضًــا بِــهِ يَطِيبُ
[٤٢] فَكَــثرَةُ التَّعلِيمِ مَــوتُ القَلبِ ويُذهِــبُ الذَّكَا وبَعــضَ اللُّــبِّ
[٤٣] فَيَطلُبُــونَ لِلخَــلَاصِ حِيلَهْ تُنــجِي مِــنَ التَّعلِيمِ أو وَسِــيلَهْ
[٤٤] والرِّفقُ فِي كُلِّ الأُمُورِ أحسَــنُ قَالُــوا بِــذَا وصَرَّحُــوا وبَيَّنُــوا

* * *

الشرح:

من بعد سِنِّ تمييزِ الصبيِّ ما يُستحَى منه، ويَحفظُ عورتَه إلى سنِّ تمييزِه الخطاب، ورَدِّه الجوابَ (السَّنة السابعة):

ـ ينبغي أن يحرصَ وليُّ الصبيِّ على حمدِ الله تعالى على ما أنعَم على صبيِّه بأوَّلِ الفهم، وتمييزِ الأشياءِ الحسنةِ من القبيحة، وعقلِ الضارِّ من النافع، ويحرصَ كذلك على تعليمِ الصبيِّ فيها: القرآنَ الكريم، وليكُن أوَّلُ ما يأخذُه من حِلَقِ العلم؛ لعظمِ شأنِ علومِه، ولما يحصلُ به من إشغالِ قلبِ الصبيِّ بما يعلو به أدبُه، يقول سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: ينبغي للرجلِ أن يُكرِهَ ولدَه على العلم؛ فإنّه مسؤولٌ عنه.

ـ وينبغي تأديبُه في هذه السنِّ على:

١ـ **الشجاعةِ والصبرِ**، فلا يبكي إذا ضرَبه المعلِّمُ كما تبكي النساء، ولا يشتكي كما يشتكي الذليل، ولا يُعلِّمُه أنّ البكاءَ سبيلٌ للوصولِ لما ليس له، بل يعوِّدُه الجِدَّ وتركَ الدَّلالِ[1].

---

(١) أوجِّه الآباء إلى أمر مهم بل هو في نظري في غاية الأهمية، ألا وهو تربية الصبي على الشجاعة:

١ـ عدم رؤية الأفلام المرعبة ولو كانت قليلة التخويف، فالخوف له عواقب وخيمة على طفلك فلا يرى مثل هذا أبدًا.

٢ـ عدم مشاهدة أفلام الكرتون إلا ما ندر وأفاد، والمفيد قليل، بعد تأكدك من مناسبتها لطفلك رجل المستقبل.

٣ـ علِّمه كيفية الضرب والمنازلة ولو معك على السرير في غرفتك، وقل له: أنت بطل غلبت والدك.

=

= ٤ـ قل له: هذه المضاربة والقوة تُوجَّه في وجه الأعداء ـ أعداء الله ـ.
٥ـ أحضر له الألعاب التي تعلمه الشجاعة، واصحبه معك للملاهي وراقبه واجعله يعتمد على نفسه.
٦ـ إن خاف فاركب معه وأره الآخرين وكيف هم شجعان؟
٧ـ علِّمه ركوب الخيل والسباحة والرماية، فهذه الثلاثة أعظم ما يُكسب المسلم الشجاعة.
٨ـ درِّبه على ألعاب الجمباز على مرتبة أو وسادة تحت إشرافك.
٩ـ دائمًا ذكره بأننا لا بد أن نكون أقوياء لكي نتغلب على أعداء الله.
١٠ـ حبِّبه في كل المسلمين وقل له: المسلم يحب الله حبًّا كثيرًا ويحبه الله، المسلم يحب كل المسلمين أبيضهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم ذكورهم وإناثهم، كلهم إخواننا نسعد بسعادتهم ونشقى بشقائهم ونرضى بنصرهم فهم منا ونحن منهم، وقل لأولادك: كبير المسلمين مثل أبيك وصغيرهم مثل أخيك تمامًا، وقل له: كلما ازددت لهم حبًّا أحبك الله وأدخلك الجنة.
١١ـ ادفعه دائمًا للتعبير عن رأيه.
١٢ـ لا تهمل قوله: إياك ـ أيها الوالد الحبيب ـ أن تفعل هذا.
١٣ـ استمع إليه بعناية، تذكر دائمًا أنك على ثغر من ثغور الإسلام بتربيتك هذا الغلام، وتذكر الحكمة التي تقول: «الطفل رجل في ثياب صغير».

إن رزقك الله غلامًا أو فتاة فقد أعطاك الله نعمة عظيمة، وهذه النعمة تحتاج إلى شكر دائم، جعلنا الله وإياك من الشاكرين. هذا الطفل إن كان شجاعًا بطبيعته فاحمد الله على ذلك وهذِّبه باستمرار وعلِّمه الخير وحبِّبه في المسلمين، وقل له هذه الأنشودة ليتعرف بعض المعاني من الصغر والحروف الهجائية؛ فكل شطرة من بيت الشعر تبدأ بحرف هجائي:

أحب مسلما   بالحق قائما
تائبًا عابدا   ثائرًا مجاهدا
جسورًا مثابرا   حليمًا وصابرا
خاشع الصلاة   دافع الزكاة
ذاكرًا كثيرا   راحمًا فقيرا =

=

زكـــي الـلُّـبِّ — سـليـم الـقـلـب
شــاكـرًا طـهـورا — صــادقًــا غـيـورا
ضـــارب المثـــال — طيِّـب الخصـــال
ظـريـف الـفِـعـال — عـفـيـف الـمـقـال
غـــزيـــرًا عـلـمُـه — فــتــيًّــا عــزمـه
قـلـيـل الـكـلام — كـثـيـر الـصـيـام
لـيـنًـا بـلا ضعف — مـطـيـعًـا قـنـوعـا
ناصحًـــا للغيـــر — هاجـــرًا للشـــر
وبُشــرى لمستمع — يــعـــي فـيـتـبـع

وأيضًا:

اقــرأ واكتــب اقــرأ هيــا — إن العلــم يضــيء الدنيــا
اقرأ واكتب وارسم واحسب — واقطـف زَهر العلـم نديّا
وتعلَّـمْ أن تركـب خيـلًا — وتعلَّـم أن ترمـي نَبـلا
خـلِّ القلب شـجاعًا حرًّا — يرضى الموتَ ويأبى الذُّلّا
أنت خُلِقت لأسـمى غايهْ — أنــت خُلِقت لتحمــلَ رايهْ
أنــت خُلِقت لتُحيــي نورًا — يمــلأ وجــه الأرض هدايهْ

واقصـص عليـه قصة الفتى الشـجاع عبد الله بـن الزبير رضى الله عنه لما مـر الخليفة حاكم المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحد شوارع المدينة ورأي صبيانًا يلعبون، فهربوا مـن طريقـه ما عـدا هذا الغلام، فاقترب منه الخليفة وقال له: لمـاذا لـم تهرب مثل الغلمان؟ فقال: لم أفعل ذنبًا حتى أخاف وأهرب، وليست الطريق ضيقة فأوسعها لك، فأُعجِبَ عمر من هذا الغلام وفرح بأن يكون في صبيان المسلمين مثله. وقل يا أخي المربي لولدك: إنك تحب عبد الله بن الزبير لشجاعته.

واقصص له قصص الأبطال من المسلمين وخاصة الصبية والشباب والصغار، مثلًا كقاتلَي أبي جهل معاذ ومعوذ ابنَي عفراء.

وكذلـك قصـة بنت بائعـة اللبن في عهد الخليفـة عمر لما كانت تغش بوضـع الماء على =

= اللبن ليكثر وتربح أكثر ـ وهنا علِّمه ضرر الغش في المعاملة على الآخرين، وتحريم الشريعة للغش؛ لتعلو قيمة الشريعة في نظره، وأن الدين كله خير ـ فقالت البنت: إن الخليفة منع الغش يا أمي، فقالت الأم: أين عمر؟ إنه لا يرانا، فقالت البنت: إذا كان عمر لا يرانا فرب عمر يرانا، فأعجب عمرَ هذا الحوارُ وزوَّج هذه البنت الصالحة من ولده عاصم، فأنجبت فاطمةَ أمَّ عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ـ وقل له: نعم أنا أتعلَّم منك الخير فعندما تسمع الأذان ذكِّرني بالصلاة حتى تحثه على الأمر بالخير والنهي عن الشر ـ وإذا كان في طفلك جبن وخوف شديد فعليك بالآتي والله المستعان:

ادعُ الله له ثم:

١ـ أكسبه الثقة بنفسه.

٢ـ دائمًا يقول: أنا بفضل الله قوي وشجاع.

٣ـ امدحه إذا عمل أي شيء هين يعمله.

٤ـ اجعله يعمل أعمالًا بسيطة وامدحه عليها.

٥ـ واجعله يلعب الألعاب الصعبة متدرجًا معه من الأسهل إلى الأصعب وقل له: أنت بطل، ليس كل الأطفال يستطيعون ما تفعل.

٦ـ خذه يسبح فالسباحة تكسبه الشجاعة كما سبق.

٧ـ لاعبه بنفسك وتظاهر أمامه بأنك مهزوم منه.

فيا أخي شجِّع ولدك كما أسلفت وعلِّمه قصص الشجعان واقصص له قصة البطل الشجاع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليلة الهجرة، وكيف عرَّض نفسه للمخاطر متحديًا جبابرة الكفر ونام مكان الرسول ﷺ ليتسنى له الخروج للهجرة، وهو يعلم أن أحد هؤلاء باستطاعته قتله بضربة أو طعنة، واقصص له قصة لقمان مع ولده وكيف علَّمه التوحيد والمراقبة، وها أنا ذا ألخص لك أخي الكريم موضوعات قصة لقمان لتحكيها لولدك بأسلوب سهل يسير:

لقمان الحكيم كان له ولد طيب وكان يعلمه كل يوم شيء فقال له: يا بُنَيَّ:

١ـ الله الخالق واحد وليس معه إله ثانٍ، فهو وحده لا ينام ولا يستريح ولا يتعب، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون دون مناقشة، فيا بُنَيَّ اعبده وحده وأحبه يحببك، ولا تخف إلا منه، أرأيت يا بُنَيَّ كم أعطانا من النعم دون طلب منا؟ انظر لنفسك؛ هاتان العينان والأذنان =

= والشـفتان واللسـان هي هبـة من الله وحده الذي خلـق الدنيا وما فيها. ودائمًـا أخي المربي أطلع ولدك على أشـياء من البحر مثلًا؛ كالأسـماك والطيور وغيرها، وقل له: هذا خلق الله، واستطرد في هذا الجانب وقل له: قل يا بُنَيَّ: لا إله إلا الله.

٢ـ يا بُنَيَّ اشـكر الله يعطيك، وداوم على شـكره يرضيك، أرأيت لو أعطاك أحد شـيئًا أكنت تشكره؟ فالله المعطي الوهاب أولى بالشكر والحمد، فقل يا بُنَيَّ: الحمد لله والشكر لله.

٣ـ ثم قال لقمان الحكيم لابنه: يا بُنَيَّ، إن أباك وأمك تعبا من أجلك، أمك هي التي حملتك في بطنها مدة طويلة تسـعة أشـهر، ثم ولدتك بآلام شـديدة ومتاعـب، وأرضعتك ونظَّفتك ورعتك وسهرت على راحتك وهي تحبك، ووالدك الحنون عليك يحبك ويعطف عليك، وينفق عليك ويحب لك الخير الكثير، وقد أعطاه الله المال ليشـتري لك الملابس والطعام وكل ما تريد.

فيا بُنَيَّ أطعهما وأحبهما وأكرمهما، ولا تأكل قبلهما، ولا تجلس قبلهما، ولا تدخل عليهما مـن دون إذن، وقبِّـل أيديهمـا ورأسَـيهما، واطلـب رضاهمـا ففـي رضاهمـا رضـا الله، ولا تعصهما إلا في طلب واحد إن طلباه منك، وهو أن تعبد مع الله إلها آخر فلا تقبل ومع هذا بِرَّهما أحسن البر وأكرمهما تمام الإكرام.

٤ـ ثم يعلِّم ولده المراقبة وأن الله مَن خلقه يقدر عليه، وأن الله خالق كل من في الكون ولا يخرج عن علمه شيء كبيرًا كان أو أصغرَ صغيرٍ، فالله سبحانه يعلم ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الأرض فهو العليم.

٥ـ ثم إن لقمان الحكيم يحب الخير لولده فيأمره بالصلاة ويأمره بالعمل الحسن، ويوجِّهه لأمـر النـاس به، وعليه تركُ كل قبيـح، وأمرُ الناس بترك كل قبيح، وعلى من يتصدى لنصح الناس الصبر على ذلك حتى ينعم بالجنة في الآخرة ورضا الله في الدنيا والآخرة.

٦ـ و لقمـان الحكيـم ينصـح ابنه: يا بُنَيَّ لا تكره الآخرين بـل أحبهم فهم منك وأنت منهم، ولا تتعاظـم عليهـم؛ فالله هو العظيم، ولا تتكبر عليهم؛ فالله هو المتكبر، ثم إن الله يا ولدي لا يحب المتكبر على الخلق ولا يحب المتعالي عليهم، والله سبحانه من حقه الكبر والتكبر والعظمـة؛ لأنـه أهـل لهذه الصفات، فهو سـبحانه لا يحتـاج لأحد والكل إليـه محتاج، أما الإنسان فلا يحق له ذلك فهو ضعيف محتاج إلى الآخرين والآخرون محتاجون إليه، وهذا نقص لا يصح معه كِبر ولا عُجب. =

٢ـ آداب اللعب، فهو حقٌّ للصغيرِ في هذه السن؛ تنمو به مداركُه، ويقوى به جسمُه، وينشطُ معه لطلبِ العلم، ولا يحتالُ للفَكاكِ من درسِه، والخلاصِ من وقتِه، ومن أدبِه: أن يكونَ اللعب:

١ـ بعد الدرس،

٢ـ وبإذنِ المعلم،

٣ـ وفيما لا يضرُّ الصبي،

٤ـ ولا يلعبُ بما فيه صورٌ، أو معازفُ، أو صلبانٌ، أو صوتُ جرس، وغيرُ ذلك مما نُهينا عنه، فعن إبراهيمَ النَّخَعيِّ قال: كان أصحابُنا يُرخِّصون لنا في اللِّعَبِ كُلِّها، غيرَ الكِلاب، قال أبو عبدِ الله: يعني للصبيانِ، رواه البُخاريُّ في «الأدبِ المفرد» بسندٍ صحيحٍ.

مخاطر منع الأولاد من اللعب:

إنّ حرمانَ الطفلِ من اللعبِ له آثارُه النفسيةُ والاجتماعيةُ السيئة؛ لأنّ اللعبَ وجبةٌ أساسيةٌ يصعبُ التنازلُ عنها أو نسيانُها، غيرَ أنّ بعضَ الآباءِ والأمهاتِ يمتَنُّون على أولادِهم عندما يسمحون لهم باللعب، ولا يَعُدُّون ذلك حقًّا لهم.

واللعبُ له دورٌ مهمٌّ في نموِّ الصغارِ جسديًّا وعقليًّا وعاطفيًّا واجتماعيًّا، ويوفِّرُ لهم فرصةَ ممارسةِ مهاراتِهم الحركيّةِ والفكريّةِ والاجتماعية، ويساعدُهم على التعلُّمِ عن العالمِ من حولهم وتطويرِ أنفُسِهم؛ لذا يجبُ على الآباءِ

= ٧ـ ولقمان يتبع ولده خارج المنزل فيعلِّمه ـ يا ولدي ـ أن يمشي في هدوء وسكينة واتزان، ويعلِّمه الكلام بهدوء، ولا يرفع الصوت، فبذلك يؤذي الناس ولا يحبه الله.

الحـرصُ علـى توفيرِ الفرصِ الكافيةِ لأطفالِهم للَّعـب، وأن يكونوا على درايةٍ بالمخاطرِ المحتمَلةِ للَّعب، ولكن مع السماحِ للأطفالِ بالتجربةِ والتعلُّم.

الإسلام يمنع حرمان الطفل من اللعب:

ولأنّ حرمانَ الطفلِ من اللعبِ يتسبَّبُ في إيذائه نفسيًّا واجتماعيًّا، فقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى أهميةِ ظاهرةِ اللعبِ في حياةِ الصغارِ ومدَى حقِّهم فيه، وذلك من خلالِ قصةِ يوسفَ عليه السلام مع إخوتِه الذين دبَّروا خُطّتَهم في الخلاصِ منه بإقناعِ والدِهم يعقوبَ بأنّ يوسفَ سيلعبُ ويرتعُ معهم إذا هو ترَكه لهم.

قـال تعالـى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ❁ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ❁ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٣].

فما كان يعقوبُ ليترُكَ يوسفَ مع إخوتِه إلا لهدفٍ عظيمٍ وغايةٍ نبيلةٍ مؤثِّرةٍ في إعدادِه وتَنشئتِه، ألا وهو اللعبُ.

وحـرَص الإسـلامُ علـى حـقِّ الطفلِ فـي اللعـب، حيـث ورَدت أحاديثُ كثيـرةٌ تفيـدُ بأنّ النبـيَّ ﷺ كان يُلاطِفُ الأطفالَ ويُلاعِبُهـم ويكفلُ لهم حقَّهم في اللعب، من ذلك أنّه مرَّ على نفرٍ من أسـلَمَ ينتضلون (يَتسـابَقونَ في الرَّميِ بالسِّـهامِ والنَّبـلِ) فقال رَسـولُ الله ﷺ: «ارمُوا بَنِي إسـماعِيلَ، فـإنَّ أباكُم كان رامِيًـا، ارمُـوا وأنـا مع بَنِـي فُلانٍ» قال: فأمسَـكَ أحَـدُ الفَريقَيـنِ بأيدِيهِم، فقال رَسولُ الله ﷺ: «ما لَكُم لا تَرمُونَ؟» فقالوا: يا رَسولَ الله، نَرمِي وأنتَ معهُم؟ قال: «ارمُوا وأنا معكُم كُلِّكُم» (البخاري).

وعن أبي أيّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه قال: دخَلتُ على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والحَسَنُ والحُسَينُ يَلعَبان بين يدَيه في حِجرِه، فقلت: يا رسولَ الله، أتحبُّهما؟ قال: «وكيف لا أُحبُّهما وهما رَيحانتاي من الدنيا أشمُّهما؟»[١].

وأخرَج أبو يعلى عن عُمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه: رأيتُ الحسنَ والحسينَ على عاتقَي النبيِّ ﷺ، قلت: نِعمَ الفَرَسُ تَحتَكما، فقال رسولُ الله ﷺ: «ونِعمَ الفارسان هما». رواه أبو يَعلى في «الكبير»، ورجالُه رجالُ الصحيحِ.

وروى الطَّبَرانيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: دخَلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يمشي على أربعةٍ (أي: على يدَيه ورِجلَيه) وعلى ظهرِه الحسنُ والحسينُ، وهو يقول: «نِعمَ الجَمَلُ جَملُكما، ونِعمَ العَدلانِ أنتما»[٢].

ولم يُنكِر النبيُّ ﷺ اللعبَ على الأطفالِ حينما شاهَدهم في مواطنَ عديدةٍ، فعن يَعلى بنِ مرّةَ الثَّقَفيِّ، قال: إنَّهم خرَجوا مع النَّبيِّ ﷺ إلى طَعامٍ دُعوا له، فإذا حُسَينٌ يلعَبُ في السِّكّةِ، قال: فتقدَّمَ النبيُّ ﷺ أمامَ القومِ، وبَسطَ يديهِ، فجعلَ الغلامُ يفِرُّ ههنا وههنا، ويضاحِكُهُ النَّبيُّ ﷺ حتَّى أخذَهُ، فجعلَ إحدى يديهِ تحتَ ذقنِهِ، والأخرى في فأسِ رأسِهِ فقبَّلَه وقال: «حُسَينٌ منِّي، وأنا من حُسَينٍ، أحبَّ الله مَن أحبَّ حُسَينًا، حُسَينٌ سِبطٌ منَ الأسباطِ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٣).

(٢) أخرجه الدولابي في الكنى والأسماء (١١٤٩)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤: ٢٤٧) واللفظ له، والطبراني (٣: ٥٢) (٢٦٦١).

(٣) صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يُصلِّي، فجاء الحسنُ والحسينُ أو أَحَدُهما رضي الله عنهما، فركِب على ظهرِه، فكان إذا رفَع رأسَه قال بيدِه، فأمسَكه، أو أمسَكهما، وقال: نِعمَ المَطِيَّةُ مَطِيَّتُكُما!»، وقال رسولُ الله ﷺ: «ونعم الرَّاكِبان هما، وأبوهما خير منهما». (الطبراني).

وقال أَنَسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: «كان رَسُولُ الله ﷺ من أحسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فأرسَلَني يَومًا لحاجةٍ، فقلتُ: والله لا أذهَبُ، وفي نَفسِي أن أذهَبَ لِما أمَرَني به نَبيُّ الله ﷺ، فخَرَجتُ حَتَّى أمُرَّ على صِبيانٍ وهم يَلعَبُونَ في السُّوقِ، فإذا رَسُولُ الله ﷺ قَد قَبَضَ بقَفايَ من ورائِي، قال: فنَظَرتُ إليه وهو يَضحَكُ، فقال: يا أُنَيسُ، أذَهَبتَ حيث أمَرتُكَ؟ قال: قلتُ: نَعَم، أنا أذهَبُ يا رَسُولَ الله»[١]. فلم يُنكِرِ النبيُّ ﷺ لعبَه مع الأطفالِ رغمَ تأخيرِه عليه في الطلبِ الذي أرسَله من أجلِه.

ولم يقتصِر الإذنُ في اللعبِ على البنين، فقد أُجيز للبناتِ اللعب، شريطةَ أن يكونَ مناسبًا لهنّ، وأن يكونَ مناسبًا لعُمرِهن، فقد روى أبو داودَ بإسنادٍ صحيحٍ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «قَدِم رسولُ الله ﷺ من غزوةِ تبوكَ أو حُنَينٍ وفي سَهوتِها سِترٌ، فهَبَّت ريحٌ فكشفت ناحية السِّترِ عن بناتٍ لعائشةَ ـ أي: لُعَبٍ ـ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسًا له جَناحان من رِقاعٍ، فقال: ما هذا الذي أرى وسطَهُنَّ؟ قالت: فَرَسٌ، قال: وما الذي عليه؟ قالت: جناحان، قال: فرسٌ له جناحان؟! قالت: أما سَمعتَ أنّ لسليمانَ خَيلًا لها أجنحة؟! قالت: فضَحِكَ حتى رأيت نَواجِذَهُ»[٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣) واللفظ له.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢) واللفظ له، والبيهقي (٢١٥١٠).

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «تزوَّجني النبيُّ ﷺ وأنا بنتُ ستِّ سنين، فقدِمنا المدينةَ فنزَلنا في بني الحارثِ بنِ الخزرج، فوُعِكتُ؛ فتَمَزَّقَ شَعَرِي؛ فوفَى جُمَيمةً، فأتتني أمي أمُّ رُومانَ - وإنّي لفي أرجوحةٍ ومعي صواحبُ لي - فصَرَخَت بي فأتيتُها، لا أدري ما تريدُ بي، فأخَذت بيدي حتى أوقفَتني على بابِ الدار، وإنّي لأنهَجُ حتى سكَن بعضُ نفَسي، ثم أخَذَت شيئًا من ماءٍ فمَسَحَت به وجهي ورأسي، ثم أدخَلتني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصارِ في البيت، فقلن: على الخيرِ والبركة، وعلى خيرِ طائر، فأسلَمَتنِي إليهن، فأصلَحن من شأني، فلم يَرُعنِي إلا رسولُ الله ﷺ ضُحًى، فأسلَمَتنِي إليه، وأنا يومئذ بنتُ تسعِ سنين»[(١)].

ومن روائع ملاعبةِ الرسولِ ﷺ للأطفال، أنّه مرَّ بعبدِ الله بنِ جعفرٍ وهو يبيعُ مع الصبيانِ (أي: يلعبُ لعبةَ البيع) فقال: «اللهم بارِك له في بيعِه»[(٢)].

ورغمَ ضرورةِ اللعبِ للأطفال، فإنّه لا يصحُّ أن نُمكِّنَهم من الألعابِ المحرَّمة، فقد مرَّ ابنُ سيرينَ على غلمانٍ يومَ العيدِ بالمِربَدِ وهم يتقامَرون بالجَوزِ فقال: «يا غِلمان، لا تُقامروا؛ فإنّ القُمارَ من المَيسِرِ».

مخاطر حرمان الطفل من اللعب:

ولا شكَّ أنّ حرمانَ الطفلِ من اللعبِ قد يؤدِّي إلى آثارٍ سلبيةٍ في نموِّه وتطوُّره، من ذلك:

---

(١) البخاري (٣٨٩٤).
(٢) مجمع الزوائد (٩: ٢٨٩).

١ـ **تأخُّرُ النموِّ الجسدي**: مثلَ نقصِ النموِّ أو ضعفِ العضَلات.

٢ـ **السِّمنة**: فيؤدِّي نقصُ النشاطِ البدنيِّ إلى السِّمنة، وضعفِ اللياقةِ البدنية، وضعفِ النموِّ العقلي: مثلَ انخفاضِ الذكاءِ أو ضعفِ التركيز.

٣ـ **مشاكلُ عاطفيّةٌ واجتماعيّة**: مثلَ العزلةِ الاجتماعيةِ أو الاكتئاب.

٤ـ **مشاكلُ في التعليم**: لأنّ الأطفالَ يتعلَّمون من خلالِ اللعب، وعندما يُحرَمون من اللعب، قد يُواجِهون صعوبةً في التعلُّم.

٥ـ **مشاكلُ سلوكية**: يتعلَّمُ الأطفالُ كيفيةَ التفاعُلِ مع الآخرِين من خلالِ اللعب، وعندما يُحرَمون من اللعب، قد يُواجِهون صعوبةً في التفاعُلِ مع الآخرِين بشكلٍ صحيٍّ.

٦ـ **الإصابةُ بالأمراضِ النفسية**: يرتبطُ حرمانُ الطفلِ من اللعبِ بزيادةِ خطرِ الإصابةِ بالأمراضِ النفسية، مثلَ الاكتئابِ والقلق.

أسباب منع الأطفال من اللعب:

وهناك أسبابٌ عديدةٌ تدفعُ الآباءَ إلى حرمانِ الطفلِ من اللعبِ وممارسةِ حقِّه في الترفيه، مثل:

ـ **الخوفِ من الإصابةِ أو الخطر**: فيخشى بعضُ الآباءِ من أن يُصابَ أطفالُهم أو يتعرَّضوا للخطرِ أثناءَ اللعب، فيدفعُهم هذا إلى منعِهم من اللعب.

ـ **الحرصِ المُفرِطِ على الطفل**: قد يكونُ الآباءُ مُفرِطِين في حرصِهم على أطفالِهم، فيؤدِّي هذا إلى منعِهم من اللعبِ لحمايتِهم من أيِّ خطرٍ محتملٍ.

ـ **التركيزِ على الدراسة**: قد يركِّزُ الآباءُ على دراسةِ أطفالِهم، ويُهمِلون في سبيلِ ذلك حقَّهم في اللعب.

وهـذه أسـبابٌ وإن بَـدَت فـي ظاهرِهـا منطقيـةً وإيجابيـةً بالنسـبةِ للكبارِ والمربِّين، إلا أنّها ليست كذلك للطفلِ الذي من حقِّه أن يلعبَ ويتعلَّمَ باللعب، فالتوازنُ مطلوبٌ، وخيرُ الأمورِ الوسط.

نصائح للآباء والأمهات:

وهذه بعضُ النصائحِ للآباءِ والأمهاتِ يمكنُ اتِّباعُها لتجنُّبِ حرمانِ الطفلِ من اللعبِ والترفيه:

١ـ **السماحُ للطفلِ باللعبِ بحرِّية**: دع طفلَك يلعَب بالطريقةِ التي يريدُها، دون أيِّ تدخُّلٍ، إلا إذا كان هناك خطرٌ محتمَل.

٢ـ **توفيـرُ بيئـةٍ آمنةٍ للَّعب**: تأكَّد أنّ بيئةَ لعبِ طفلِك آمنةٌ، وأزِل أيَّ مخاطرَ محتملةٍ.

٣ـ **مشاركةُ الطفلِ في اللعب**: انضمَّ إلى طفلِك في اللعب، وساعِده على الاستمتاع.

٤ـ **منـحُ الطفـلِ وقتًا للَّعبِ كلَّ يـوم**: يجبُ أن يحصُلَ الأطفالُ على وقتٍ كافٍ للَّعبِ كلَّ يومٍ حتى لا يشعروا بالمللِ أو الإحباط.

٥ـ **تشجيعُ الطفلِ على الألعابِ المختلِفة**: دع طفلَك يَلعَب ألعابًا مختلِفة، مثلَ ألعابِ الحركةِ والألعابِ الفكريةِ والألعابِ الاجتماعيّة.

٦ـ **اللعـبُ مـع الآخرين**: دَع طفلَـك يلعَب مع الأطفـالِ الآخرين، ليتعلَّمَ الكثيرَ من خلالِ اللعبِ معهم.

٧ـ **القـدوةُ للطفلِ في اللعب**: شـارِك طفلَك فـي اللعب، وكُن قدوةً له في ممارسةِ الرياضةِ واللعبِ بكلِّ حبٍ وبلا تجاوُز.

٨ـ **توفيرُ غرفةٍ للطفل**: ليضعَ فيها أدواتِه وأغراضَه، وتكونُ جدرانُها مزدانةً باللوحـاتِ الجميلـةِ للطبيعةِ التـي تروقُ الأطفـال، وضَع فيها بضـعَ كراريسَ صغيـرةٍ ومِنضَـدةً، وشـيئًا من عُلَـبٍ فارغة، ورمـلًا وصلصالًا، وعُلَـبَ تلوينٍ وطباشيرَ للرسم، ومكعباتٍ خشبيةً... إلخ.

٩ـ **السماحُ للطفلِ بالجريِ أو القفز**: ويكونُ ذلك في المكانِ الملائم، فهو بحاجةٍ إلى حريةِ الحركة.

١٠ـ **السخريةُ ممنوعة**: فلا تَضحَك أو تَسخَر من سلوكِ طفلِك مهما يكن أثناءَ اللعب.

١١ـ **الانتقـادُ ممنوع**: فلا تنتقِد ابنَـك حين يخرِّبُ لعبةَ بناءٍ رمليٍّ مثلًا، أو بنـاءٍ مـن المعجونِ بعـد انتهائه منه، فالطفلُ يسـتمتعُ باللعبِ بغـضِّ النظرِ عن النتيجةِ النهائيّة.

١٢ـ **منـحُ الطفـلِ فرصةً للاختيار**: دع طفلَك يختارُ ألعابَه والأنشـطةَ التي يريدُ لعبَها.

١٣ـ **المرونةُ مع الطفل**: فلا تتوقَّع من طفلِك أن يلعبَ دائمًا بالطريقةِ التي تريدُها.

١٤ـ **الإيجابية**: اجعَل اللعبَ تجربةً ممتعةً ومثيرةً للاهتمام.

١٥ـ **التفاؤل**: لا تَشعُر بالإحباطِ إذا لم يَلعَب طفلُك بالطريقةِ التي تريدُها.

١٦ـ **التحدُّثُ إلى الطفلِ عن أهميةِ اللعب**: اشـرَح لطفلِك كيف يسـاعدُه اللعبُ على النموِّ والتطوُّرِ والتفكيرِ الإيجابي.

١٧ـ **لا نُقـارِن الطفـلَ بآخريـن**: كلُّ طفلٍ ينمو ويتطوَّرُ فـي وتيرةٍ مختلِفة، فمن الضروريِّ عدمُ مقارنتِه بغيرِه.

١٨ـ تـركُ الطفـلِ يلعبُ وحـدَه: من المهمِّ أن يتمكَّـنَ الأطفالُ من اللعبِ وحدَهم لتطويرِ استقلاليتِهم.

١٩ـ مراعاةُ التوسُّـطِ والاعتدالِ في اللعب: فهو وسـيلةٌ وليس غاية، وهو حاجةٌ للطفلِ أساسيةٌ.

٢٠ـ اللعـبُ الجماعـي: ويكـونُ ذلـك من حينٍ لآخـرَ مـع أولادٍ تعرفُهم وتعرفُ سلوكَهم لإبعادِه عن الانطواء.

٢١ـ المتابعة: فلا مانعَ أحيانًا من متابعةِ الطفلِ دون إشعارِه بذلك لوقايتِه من الحوادث، ولتوجيهِه وتهذيبِ أخطائه.

٢٢ـ تعليمُ الطفلِ قيمةَ الوقت: فنقولُ له: «لديك خمسُ دقائقَ لتنتقلَ إلى لعبةِ كذا». وذلك إن رأيتَ منه اهتمامًا بلعبةٍ معينة.

٢٣ـ التحذيـرُ مـن الألعـابِ الخطرة: فحـذِّر طفلَك من اللعـبِ بالألعابِ الخطـرة، ونبِّهه إلى أخطـارِ الكهرباء، وأبعِد عنه الأدواتِ الحادّةَ كالسـكاكينِ والمقصّـات، وأرشِـده إلـى مخاطـرِ الطريـق، ولا تَدَعـه في الشـارعِ يلهو بين السـيارات، وأبعِـد عنـه السـمومَ كالمبيداتِ الحشـرية، والأدويـة، فضَعها في مكانٍ آمِن.

فوائد اللعب للأطفال:

وفوائدُ اللعبِ للأطفالِ كثيرةٌ، منها:

أولًا: المهارات الحركية

يتعلَّـمُ الطفلُ كيفيةَ التحكُّمِ في جسـدِه من خلالِ اللعبِ بألعابِ الحركة، مثلَ الكرةِ أو الدرّاجة.

ثانيًا: المهارات الاجتماعية

يتعلَّمُ الطفلُ كيفيةَ التواصُلِ مع الآخرين وتكوينِ علاقاتٍ.

ثالثًا: المهارات اللغوية

يتعلَّمُ الطفلُ الكلماتِ الجديدةَ والقواعدَ النحويةَ عبرَ الألعابِ التي تتطلَّبُ المحادثة، مثلَ ألعابِ الأدوارِ أو ألعابِ التخمين.

رابعًا: المهارات المعرفية

يتعلَّمُ الطفلُ كيفيةَ حلِّ المشكلاتِ واتخاذِ القراراتِ باللعبِ بألعابِ التعلُّم، مثلَ الألغازِ أو ألعابِ التطابُق.

خامسًا: المهارات الإبداعية

يتعلَّمُ الطفلُ كيفيةَ استخدامِ خيالِهم والتعبيرِ عن أنفُسِهم من خلالِ اللعبِ بالألعابِ التي تتطلَّبُ الخيال، مثلَ ألعابِ التخيُّلِ أو ألعابِ الفن.

والتعامُلَ مع المشاعرِ المختلفة: مثلَ الفرحِ والغضبِ والحزنِ والخوفِ، من خلالِ اللعبِ.

والتكيُّفَ مع العالَم: يتعلَّمُ الأطفالُ كيفيةَ التفاعُلِ مع العالَمِ من حولهم.

والاسترخاءَ والتمتُّعَ بالحياة: فاللعبُ نشاطٌ ممتعٌ ومريحٌ للأطفال، ويمكنُ أن يساعِدَهم على التخلُّصِ من التوتُّرِ والاسترخاءِ والتمتُّعِ بالحياة.

سادسًا: مهارات التفكير

إنّ اللعبَ جزءٌ أساسيٌّ من الطفولة، وهو أكثرُ من مجرَّدِ نشاطٍ ممتعٍ، فهو ضروريٌّ لنموِّ الطفلِ وتطوُّرِه، ويساعدُ على تعلُّمِ أشياءَ جديدة. وتطويرِ

مهـاراتِ التفكيـرِ والتعليـم، وحـلِّ المشـكلات، واتخـاذِ القـرارات، وتطويرِ المهاراتِ الاجتماعيةِ والعاطفية، والتعاملِ مع المشـاعرِ المختلفة، وهو أيضًا فرصةٌ للاستمتاعِ والاسترخاء، وتفريغِ الطاقةِ والتخلُّصِ من التوتُّرِ.

وطريقةُ التربيةِ في هذه السن:

١ـ إلحاقُه بحِلَقِ القرآن، عند شيخٍ يعرفُه ثقةٍ في فِكرِه وطَريقتِه على المنهجِ النبويِّ الذي سار عليه سلفُ الأُمّةِ أئمةُ المذاهبِ الأربعةِ وأتباعُهم.

واعتمادُ الرفقِ في تدريسِه.

وتعويـدُه علـى كريـمِ الخلق، فـإذا كان الأصلُ في المـرأةِ الخطأ؛ كما في حديث: «إنّ المَرأةَ خُلِقَت من ضِلَعٍ، لن تَستَقِيمَ لك على طَريقةٍ، فإنِ استَمتَعتَ بها استَمتَعتَ بها وبها عِوَجٌ، وإن ذَهَبتَ تُقيمُها كَسَـرتَها، وكَسـرُها طَلاقُها»، رواه مسـلمٌ عـن أبي هريـرةَ رضـي الله عنه، فالصبـيُّ أولى بأن يُسـامَح؛ لكثرةِ خطئه، وعدمِ قصدِه.

٢ـ وتعتمد كذلك على:

إشغالِ قلبِه بالنافع،
من تعلُّمِ القرآن،
أو بالمباحِ من اللعِب،
وتعليمِه من خلالِ اللعب،

فلا تسـتخدِم مع ولدِك أسـلوبَ: أنا أُعلِّمُك، بل أسلوبَ: أنا أتعلَّمُ معك؛ فالصغيرُ يحبُّ أن تُعلِّمَه كمُشـارِك، وإذا شـبَّ يحبُّ أن تُعلِّمَه كصديق، ثم إذا عَقَل أحبَّ أن يتعلَّمَ منك كأستاذ.

وله كذلك أن يضرِبَه ضربًا خفيفًا زاجرًا عند تكرُّرِ الخطأ بعد بيانِ سببِه، ويكونَ ضربًا:

غَيرَ مُضرٍّ،

وفي غيرِ الوجه،

وليهدِّد بالعقابِ أكثرَ مما يعاقِب، يقولُ النبيُّ ﷺ: «عَلِّقوا السوطَ حيث يراه أهلُ البيت؛ فإنّه أدَبٌ لهم» رواه الطبرانيُّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

ويعتمدُ كذلك أسلوبَ القصصِ المناسبةِ لهذه السن، وليجتهِد في الإجابةِ الذكيةِ عن أسئلةِ الطفل؛ لأنّ الأطفالَ في هذه المرحلةِ شَغوفون بالسؤال.

كلام الفقهاء في الضرب:

روى ابنُ وهبٍ أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مُرُوا الصِّبيانَ بالصَّلاةِ لسَبعٍ، واضرِبُوهُم عليها لِعَشرٍ، وفَرِّقوا بينهم في المَضاجِعِ»[١].

وهذا التأديبُ واجِبٌ على الوليِّ باتِّفاقِ الفُقَهاءِ لِلحَديثِ المُتقدِّمِ.

وهو في حَقِّ الصبيِّ لتَمرِينِه على الصلاةِ ونَحوِها ليَألَفَها ويَعتادَها، ولا يَترُكَها عند البُلُوغِ.

قال الإمام النَّوَويُّ[٢]: «والاستِدلالُ به واضِحٌ؛ لأنّه يَتَناولُ الصَّبيَّ والصَّبِيّةَ في الأمرِ بِالصَّلاةِ والضَّربِ عليها».

---

(١) أخرجه البزار (٩٨٢٣) واللفظ له.

(٢) المجموع (٣: ١١).

قـال بعـض العلمـاء: وقـد حَمَـل جمهـورُ الفُقَهـاءِ ـ الحَنفيـةُ والشـافعيةُ والحَنابلةُ ـ الأمرَ في الحَدِيثِ على الوُجُوبِ، وحَمَله المالكيةُ على الندبِ.

قال العِزُّ بنُ عَبدِ السَّـلامِ[١]: ومن أمثِلةِ الأفعال المُشـتمِلةِ على المَصالِحِ والمَفاسِـدِ مـع رُجحـانِ مَصالِحِها على مَفاسِـدِها: ضَربُ الصِّبيـانِ على تَركِ الصَّلاةِ والصِّيامِ وغيرِ ذلك من المَصالِحِ.

قـال في «الموسـوعةِ الفقهيـةِ الكويتية»: ومـن أنواعِ التعذيبِ المَشـرُوعِ: ضَـربُ الأبِ أو الأمِّ ولَدَهمـا تَأدِيبًـا، وكذلـك الوصِيُّ، أو المُعَلِّـمُ بِإذنِ الأبِ تَعلِيمًا[٢].

قال في «فتاوى النَّوَوي»:

مَسْألةٌ: هـل له اسـتخدامُ ولدِه وله ضربُه على ذلـك؟ الجواب: يجوزُ له ذلك فيما فيه تأديبُ الصبي، وتدريبُه، وحسنُ تربيتِه ونحوُ ذلك[٣].

قال محمدُ الأمينُ الشنقيطيُّ في «شرحِ زادِ المستقنع»: والشرعُ أذِن للوالدِ أن يـؤدِّبَ ولـدَه، وأذِن للسـلطانِ أن يؤدِّبَ رعيّتَـه، وأذِن للمُعلِّمِ أن يؤدِّبَ مَن يعلِّمُـه، ولذلـك قـال عليـه الصلاة والسـلام: «مُـرُوا أولادَكم بالصلاةِ لسـبعٍ، واضرِبوهم عليها لعشرٍ». فشَرَع الضربَ في التعليم، والدعوةِ للخير.

والأصـل: أنّ العلـمَ يُرادُ به الدعوةُ للخير؛ يتعلَّمُ الإنسـانُ ثم يعمَل. فهذا

---

(١) انظر: كتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١: ١٢١).
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٢: ٢٤٤).
(٣) انظر: فتاوى الإمام النووي المُسمّاة بـ«المسائل المنثورة» (ص١٢٩).

الإذنُ الشـرعيُّ بالتأديـبِ والتعليـم، وأيضًا صيانةُ الناسِ والرعيـة، كلُّ هذا إذا كان الأصـلُ يقتضـي جـوازَه، فإنّ ما يترتَّـبُ عليه من ضررٍ مغتفرٌ شـرعًا؛ لأنّ الأصلَ أنّ مَن فعَل هذه الأفعالَ يقصدُ بها مصلحةَ المجنيِّ عليه.

قـال بعـضُ المعاصريـن: والضربُ بشـكلٍ عامٍّ عقوبـةٌ يجوزُ اسـتعمالُها شرعًا، فقد شُرِع الضربُ في الحدودِ وفي التعزيرِ،

وشُرع ضربُ الزوجِ لزوجتِه في حالِ النشوزِ،

وشُـرع ضـربُ الأولادِ تأديبًـا لهـم علـى تـركِ الصـلاةِ، وغيـرِ ذلـك مـن الحالاتِ، ولكن ضربُ الأولادِ يحتاجُ إلى تفصيلٍ وتوضيح.

الأمورُ التي على الوليِّ أن يعلِّمَها الصبيَّ والصبيّة:

١ـ علـى الآبـاءِ والأمهاتِ تعليـمُ أولادِهم مـا يَلزَمُهم بعد البُلـوغِ، فيُؤمَرُ بجميعِ المَأمُوراتِ وما سـيَتعيَّنُ عليهم بعد البُلُوغ، وبفعل الطاعاتِ، كالصَّلاةِ والطَّهـارةِ والصِّيـامِ ونحوِهـا ممـا تَصِحُّ بـه عبادتُـه، ويُؤمَرون بالتزامِ شـروطِ الصلاةِ من الطهارةِ وسـترِ العورةِ، كما يُؤمَرُ بها البالغون، فإن صَلَّوا بغيرِ ذلك أُمروا بالإعادةِ.

٢ـ ويجـبُ تعليمُهـم مـا يُضطَرُّونَ إليـه من الأُمـورِ التي يَكفـرُ جاحِدُها؛ مـن إيمـانٍ بالله ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُـلِه واليومِ الآخرِ، قـال النَّوَويُّ رحمه الله: «ويأمُرُه بسـائرِ الوظائفِ الدينِيّةِ، ويأمُرُه الوليُّ بحُضُورِ الصَّلَواتِ في الجَماعةِ وبالسِّواكِ». قال ابنُ عابدين: الصبِيُّ يَنبَغي أن يُؤمَرَ بجميعِ المَأمُوراتِ ويُنهَى عن جمِيعِ المَنهِيّاتِ.

قال أبو بكر الرازي: دلَّت آيةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨] على أنّ مَن لم يَبلُغ وقد عقَل يُؤمَر بفعلِ الشرائع، ويُنهى عن ارتكابِ القبائح، فإنّ الله تعالى أمَرهم بالاستئذانِ في هذه الأوقات.

٣ـ ويُنهَى عن جميعِ المَنهيّاتِ والمَحظُوراتِ وعن اقترافِ المَحظُوراتِ سَواءٌ أكانَت لِحَقِّ الله تعالى أم لِحَقِّ العِبادِ، ويكفُّه عن المَفاسِدِ كُلِّها، ويُعرِّفُه تَحريمَ الزنا واللِّواطِ والخَمرِ والكَذِبِ والغِيبَةِ والسَّرِقَةِ وشُربِ المُسكِرِ والكَذِبِ والغِيبَةِ وشِبهِها حتى الصغائر، كما يُنهَى عن اعتِقادِ الكُفرِ والشِّركِ وإظهارِهِ، وهذا التَّعلِيمُ واجِبٌ على الأبِ وسائرِ الأولِياءِ قبل بُلُوغِ الصَّبيِّ والصبيّةِ، وعِلّةُ ذلك أنّ الصبيَّ وإن لم يَكُن مُكَلَّفًا، فوليُّهُ مُكَلَّفٌ، لا يَحِلُّ له تَمكِينُهُ من المُحَرَّمِ؛ لأنّه لو لم يُؤمَر بذلك في الصِّغَرِ وخُلِّيَ وسائِرَ شَهَواتِهِ وما يُؤثِرُهُ ويَختارُهُ فسيَصعُبُ عليه بعد البُلُوغِ الإقلاعُ؛ فإنّه يَعتادُهُ، ويَعسُرُ فِطامُهُ.

٤ـ ويُعَلِّمُه مَحاسِنَ الأخلاق، ويَزجُرُه عن سَيِّءِ الأخلاقِ وقَبيحِ العاداتِ ـ ولو لم يَكُن فيها مَعصِيةٌ ـ استِصلاحًا لِيَنشَأ على الكَمال وكَريمِ الخِلال.

٥ـ ويَحفَظُه من قُرَناءِ السُّوءِ ولا يُعَوِّدُهُ التنعُّمَ، ولا يُحَبِّبُ إليه الزِّينةَ وأسبابَ الرَّفاهِيةِ، فيُضَيِّعَ عُمرَهُ في طَلَبِها إذا كَبِرَ ويَهلَكَ هَلاكَ الأبَدِ.

٦ـ ويَنبَغِي أن يُعَلِّمَهُ أيضًا من أُمُورِ الدُّنيا ما يَحتاجُ إليه من: السِّباحَةِ والرَّميِ وغَيرِ ذلك مِمّا يَنفَعُهُ في كُلِّ زَمانٍ بِحَسَبِهِ. قال سيدُنا عُمَرُ رضي الله

عنه: عَلِّمُوا أولادَكُم السِّباحةَ والرِّمايةَ، ومُرُوهم فليَثِبُوا على الخَيل وثبًا.

٧ـ ويُعرِّفُه أنّ بالبُلُوغِ يَدخُل في التكلِيفِ.

٨ـ وهل يُؤمَرون على التمرينِ بالصيامِ ويَتعوَّدونه قبل البلوغ؟

قال الشافعيّةُ والحنفيّة: نعم إن أطاقه.

قال الجصّاصُ: ورَوى هشامُ بنُ عُروةَ أنّه كان يَأمُرُ بَنِيه بالصلاةِ إذا عقَلوها، وبالصومِ إذا طاقوه[1]. وقال ابنُ عابدينَ: قولُه: «والأبُ يُعزِّرُ الابنَ عليه»؛ أي: على تَركِ الصلاةِ. ومِثلُها الصَّومُ كما صَرَّحوا به، وبه ابنُ الماجِشُونِ من المالكيّة: عند إطاقَتِهم لذلك وإن لم يَبلُغُوا.

وقال المالكيّة: لا يُؤمَرون بذلك؛ لأنّه ليس بمُتكرِّر، وإنّما يأتي مرّةً في العام، بخلافِ الصلاة.

٩ـ ويُؤدَّبُ على تَركِ الطهارةِ والصَّلاةِ وكذا الصَّومُ. وتَأدِيبُه على الإخلالِ بذلك تَعوِيدًا له على الخَيرِ والبِرِّ. قال ابنُ حجرٍ الهَيتَمي: ويُضرَبُ ضربًا غيرَ مُبرِّحٍ وُجُوبًا ممن ذُكِر (عليها)؛ أي: على تَركِها ولَو قَضاءً، أو تَركِ شَرطٍ من شروطِها، أو شيءٍ من الشرائعِ الظاهِرةِ. قال المُحشِّي الشَّرواني: «قولُه: أو بِشَيءٍ من الشَّرائعِ... إلَخ» هذا مُصرِّحٌ بوُجوبِ الضَّربِ على تَركِ نَحوِ السِّواكِ من السُّنَنِ المُتَأكِّدَةِ، لَكِن في «شَرحِ الرَّوضِ» عن «المُهِمّاتِ»: المُرادُ بالشَّرائعِ ما كان في مَعنى الطَّهارةِ والصَّلاةِ، كالصَّومِ ونَحوِهِ؛ لأنّه المَضرُوبُ على تَركِه، وذَكَرَ نَحوهُ الزَّركَشِيُّ. اهـ.

---

(١) كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية عبد الرزاق الصنعاني (٤: ١٥٣).

وفي قولِ الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ قال عَلِيُّ بنُ أبي طالِبٍ رضي الله عنه ومُجاهِدٌ وقَتادةُ: مَعناهُ: عَلِّموهم ما يَنجُونَ به من النّارِ «وهَذا ظاهِرٌ»[١].

وثَبَت في «الصحيحين» عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عن رَسُولِ الله ﷺ أنّه قال: «كُلُّكُم راعٍ ومَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ ومَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ فِي أهلِهِ وهو مَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمَرأةُ راعِيَةٌ في بَيتِ زَوجِها ومَسؤُولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»، قال: وحَسِبتُ أن قَد قال: «والرَّجُلُ راعٍ في مالِ أبيهِ ومَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُم راعٍ ومَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ». قال النَّوَوي: في الحَدِيثِ أنّ الصِّبيانَ يُوقَّونَ ما يُوقّاهُ الكِبارُ، وتُمنَعُ من تَعاطِيهِ، وهَذا واجِبٌ على الوليِّ.

قال ابنُ حجرٍ في «الفتح»: وفي الحَدِيثِ جَوازُ إدخالِ الأطفالِ المَساجِدَ وتَأديبِهم بما يَنفَعُهم ومَنعِهم مما يَضُرُّهم ومن تَناوُلِ المُحَرَّماتِ وإن كانُوا غَيرَ مُكَلَّفِينَ لِيَتَدَرَّبُوا بذلك.

قال بدرُ الدينِ العَينيُّ في «عمدةِ القاري شرحِ البُخاري»: وفيه: أنّه يَنبَغِي أن يَتَجَنَّب الأطفالُ ما يَتجَنَّب الكِبارُ من المُحرَّمات. وفِيه: أنّ الأطفالَ إذا نُهوا عن الشَّيءِ يجبُ أن يُعرَّفوا لأيِّ شَيءٍ نُهوا عَنهُ؛ لِيكونوا على علمٍ إذا جاءَهُم أوانُ التَّكلِيف. وفيه: أنّ لأولياءِ الصغارِ المعاتبةَ عليهم، والحولَ بَينهم وبَين ما حرَّم الله على عبادِه، ألا يُرى أنّه ﷺ استَخرج التَّمرَ من الصَّدَقةِ من فَمِ الحسنِ

(١) المجموع شرح المهذب للنووي (١: ٢٦).

وهو طِفلٌ لا تلزَمُه الفَرائضُ ولم تَجرِ عليه الأقلام؟ فَبان بذلك أنّ الواجِبَ على وليِّ الطِّفلِ والمَعتُوه، إذا رَآهُ يتَناولُ خمرًا يشربُها، أو لحمَ خِنزيرٍ يَأكُلُه، أو مالًا لغيرِه يتلفُه، أن يَمنعَه من فعلِه ويحولَ بَينه وبَين ذَلِك.

وقال عليٌّ القاري في «مرقاةِ المفاتيح»: قال ابنُ المَلَكِ: وهَذا يَدُلُّ على أنّه وجَبَ على الآباءِ نَهيُ الأولادِ عَمّا لا يَجُوزُ في الشَّرعِ. اهـ.

ولذا قال عُلَماؤُنا: يَحرُمُ على الآباءِ والأُمَّهاتِ إلباسُ الصبيِّ الحَرِيرَ والحُلِيَّ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ[1] خلافًا للشافِعيِّ، وقد أورَدَ الغَزالِيُّ هذا الحَدِيثَ في «الإحياءِ» عند ذِكرِ ورَعِ المُتَّقِينَ، فأمَر بضربِهم على تركِ الواجبِ الشرعيِّ الذي هو الصلاة، فضربُهم على الكذبِ والظلمِ أولى، وهذا مما لا يُعلَمُ بين العلماءِ فيه نزاعٌ أنّ الصبيَّ يُؤذَى على ما يفعلُه من القبائحِ وما يتركُه من الأمورِ التي يحتاجُ إليها في مصلحتِه.

قال في «مرقاةِ المفاتيحِ شرحِ مشكاةِ المصابيح»: (وعَنها)؛ أي: عن عائِشَةَ رضي الله عنها قالَت: ما ضَرَب رَسُولُ الله ﷺ شَيئًا؛ أي: آدَمِيًّا لأنّه ربما ضَرَب مَركُوبَهُ (قَطُّ بيَدِهِ، ولا امرَأةً ولا خادِمًا)[2]، خُصّا بالذِّكرِ اهتِمامًا بشَأنِهما، ولِكَثرةِ وُقُوعِ ضَربِ هذين والاحتِياجِ إليه، وضَربُهما وإن جازَ بشَرطِهِ فالأولَى تَركُهُ. قالُوا: بخِلافِ الولَدِ؛ فإنّ الأولَى تَأدِيبُه، ويُوجَّهُ بأنّ ضَربَهُ لمَصلَحَةٍ تَعُودُ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري (٤: ١٣٠١).

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨)، وابن ماجه في النكاح (٢٢١٨)، وأحمد في المسند (٦: ٣٢) (٢٢٩، ٢٣٢)، والدارمي في النكاح (٢: ١٤٧)؛ أربعتهم من طريق هشام بن عروة به فذكره نحوه.

إليه، فلَم يُندَبِ العَفوُ بخِلافِ ضَربِ هذين، فإنّه لِحَظِّ النَّفسِ غالِبًا فنُدِبَ العَفوُ عَنهُما مُخالَفةً لِهَواها وكَظمًا لِغَيظِها.

قواعدُ ذكَرها الفقهاءُ في الضربِ والتعليم:

١ـ إنّما يَبدَأُ بالقَول، ثم بالوعِيدِ، ثم بالتَّعنِيفِ، ثم بالضَّربِ إن لم تُجدِ الطرقُ قبله، وهذا التَّرتِيبُ تَلزَمُ مُراعاتُه، فلا يَرقَى إلى مَرتَبةٍ إذا كان ما قَبلَها يَفِي بالغَرَضِ، وهو الإصلاحُ، وفي ذلك يَقُول العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلام: ومَهما حَصَل التَّأدِيبُ بالأخَفِّ من الأفعالِ والأقوال، لم يُعدَل إلى الأغلَظِ، إذ هو مَفسَدةٌ لا فائِدةَ فيه؛ لِحُصُولِ الغَرَضِ بما دُونَه. قال بعضُ المعاصرِين: وقد ذكَر القرآنُ الكريمُ التدرُّجَ بالعقوباتِ في معالجتِه للخلافاتِ الزوجيةِ، وكذلك معالجةُ الطفلِ[١].

وقال في «مواهبِ الجليلِ في شرحِ مختصرِ خليل»: واختُلِفَ في الوقتِ الذي يُؤَدَّبُ فيه على تَركِها، أمّا العُقُوبةُ فبَعدَ العَشرِ، وكَرِهَ فُضَيلٌ وسُفيانُ أن يُضرَبَ. وقالا: أرشِهِ عليها، وهذا أحسَنُ لِمَن يَقدِرُ على ذلك، فإن كان ممن لا يَقدِرُ، أو لم يَفعَل بعد أن أُرشِيَ ضُرِبَ عليها[٢].

٢ـ ويَكُونُ التَّأديبُ بالوعِيدِ والتقرِيعِ لا بالشَّتمِ، قال ابن عرفة: وعليه أن يَزجُرَ المُتَخاذِلَ في حِفظِه بالوعِيدِ والتقريعِ لا بالشَّتمِ كقَولِ بَعضِ المُعَلِّمِين للصبيِّ: يا قِردُ، يا عِفرِيتُ. فإن لم يُفِدِ القَولُ انتَقَلَ للضَّربِ[٣].

---

(١) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، لعلي علي صبح.
(٢) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، للحطاب الرُّعيني المالكي.
(٣) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (١: ٤١٤).

وقـد اتَّفـق المُرَبُّـون على الابتعـادِ عن الـكلامِ الجـارِح، والتوبيـخِ الذي ينتقصُ من شـخصيّةِ الطفل، أو يُسـبِّبُ له ردودَ أفعالٍ سيئةً، واتَّفقوا أيضًا على أن يكونَ كلُّ ذلك بين المربِّي والتلميذ، وليس أمام أحدٍ من الناسِ. ومما يدلُّ على النهيِ عن السبابِ قولُ الرسولِ ﷺ: «ليس المؤمنُ بالطعّان، ولا باللعّان، ولا بالفاحِش، ولا بالبَذِيءِ».

قال مصطفى السـباعي: «الابنُ يتأثَّرُ بالأبِ أكثَر، والبنتُ تتأثَّرُ بالأمِّ أكثَر، والأمهاتُ الجاهلاتُ طريقُهن في التربيةِ: الشتيمةُ والدعاءُ بالموتِ والهَلاك، والآباءُ الجاهِلون طريقُهم في التربيةِ: الضربُ والاحتقارُ[1].

ومن أبرزِ الوسـائلِ السلبية: الضرب، والسِّباب، واللوم. وكلٌّ منها وسيلةٌ سهلةُ الاستخدامِ، سيئةُ الأثر، مهما أعطَت من أثرٍ سريع، يظهرُ أنّه إيجابيٌّ».

قـال بعـضُ المعاصرِيـن: بعد إجراءِ دراسـةٍ شـمِلت ١١٠ أسـر أمريكية، تضمُّ أطفالًا تتفاوَتُ أعمارُهم ما بين ثلاثةِ أعوامٍ وخمسة، أعلَن معهدُ العلومِ النفسيّةِ في أتلانتا أنّ هناك دلائلَ قطعيةً على وجودِ علاقةٍ بين شخصيّةِ الطفلِ المشاغِب، الكثيرِ الحركة، وبين الأمِّ العصبيّةِ التي تصرخُ دائمًا، وتُهدِّدُ بأعلى صوتِها حين تغضب.

وتشـيرُ نتائجُ الدراسـةِ أيضًا إلـى أنّ الأمَّ التي تعبِّرُ عـن غضبِها بالصُّراخ، وباسـتخدامِ ألفاظٍ بذيئةٍ أو سـيِّئةٍ أمام طفلِها تدفعُ بهذا الطفلِ إلى التحوُّلِ إلى طفلٍ من هذا النوعِ المشاغِبِ.

---

(١) هكذا علمتني الحياة، لمصطفى السباعي (ص١٢٥).

٣ـ وكذلك لا يكونُ التأديبُ بالدعاءِ عليه.

فقد أخرَج مسلمٌ وغيرُه عن رسولِ الله ﷺ قال: «لا تَدعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدعُوا على أولادِكم، ولا تَدعُوا على أموالِكم، لا تُوافِقوا من الله ساعةً يُسألُ فيها عطاءً فيستجيبُ لكم»[١].

قال في «جامعِ العلومِ والحكم»: فهذا كُلُّه يَدُلُّ على أنّ دُعاءَ الغَضبانِ قد يُجابُ إذا صادَفَ ساعةَ إجابةٍ، وأنّه يُنهى عن الدُّعاءِ على نَفسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ في الغَضَبِ.

قال القَسطلّاني: وإذا كان عرَّضه باللعنةِ لذلك ووقَعت الإجابةُ وإبعادُه من رحمةِ الله كان ذلك أعظمَ من قتلِه؛ لأنّ القتلَ تفويتُ الحياةِ الفانيةِ قطعًا، والإبعادُ من رحمةِ الله أعظمُ ضررًا بما لا يُحصى[٢].

قال الشَّرواني في «حواشي التحفة»: ويُكرَهُ للإنسانِ أن يَدعُوَ على ولَدِهِ، أو نَفسِه، أو مالِه. قال الرَّشيدِيُّ: والظّاهِرُ أنّ المُرادَ بالدُّعاءِ الدُّعاءُ بنَحوِ المَوتِ، وأنّ مَحَلَّ الكَراهةِ عند الحاجةِ؛ كالتَّأدِيبِ ونَحوِه، وإلّا فالذي يَظهَرُ أنّه بلا حاجةٍ لا يَجُوزُ على الولَدِ والخادِمِ. كما في حاشية الشيخ.

٤ـ يُشترَطُ في الضَّربِ عند مَشرُوعِيّةِ اللُّجُوءِ إليه أن يَغلِبَ على الظَّنِّ تَحقِيقُهُ لِلمَصلَحَةِ المَرجُوّةِ منه، قال العزُّ بنُ عبدِ السلام: فإن قيل: إذا كان الصبيُّ لا يُصلِحُهُ إلا الضَّربُ المُبَرِّحُ، فهل يَجُوزُ ضَربُه تَحصِيلًا لِمَصلَحَةِ تَأدِيبِه؟ قلنا: لا يَجُوزُ ذلك، بل لا يَجُوزُ أن يَضرِبَهُ ضَربًا غيرَ مُبَرِّحٍ؛ لأنّ

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل (٣٠٠٩).
(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني (١٤: ٦٤).

الضَّربَ الذي لا يُبرِّحُ مَفسَدةٌ، وإنّما جاز لكَونِه وسِيلةً إلى مَصلَحَةِ التَّأدِيبِ، فإذا لم يَحصُل التَّأديبُ به، سَقَط الضَّربُ الخَفِيفُ كما يَسقُطُ الضَّربُ الشَّدِيدُ؛ لأنّ الوسائِل تَسقطُ بِسُقُوطِ المَقاصِدِ. فالضَّربُ يَكُونُ مُؤلِمًا غَيرَ مُبَرِّحٍ إن ظُنَّ إفادَتُه وإلا فلا. قال ابنُ حَجَرٍ الهَيتَمي: أي: ضَربًا غَيرَ مُبرِّحٍ، ولو لم يُفِد إلا بمُبَرِّحٍ تَرَكَه وِفاقًا لابنِ عَبدِ السَّلامِ. وكذلك قال الحنفيّة.

٥ـ إن لم يُفِد القَولُ والوعظُ والتذكيرُ والتحذيرُ انتَقَلَ إلى الضَّربِ.

ويُشترَط في الضربِ شروط:

الأول: كونُه غيرَ مبرِّحٍ ولا شاقٍّ ولا مُمرِضٍ، قاله الإسنَوِيُّ: ضَربًا رفيقًا غيرَ عنيفٍ؛ لأنّه للتأديبِ لا للعقوبة.

الثاني: أن يكونَ التَّأدِيبُ والضربُ مَشرُوطًا بِسَلامةِ العاقِبةِ، فلا يجوزُ الضربُ الذي يؤدِّي للضررِ والتلفِ، فلا بدَّ أن يَتَوقَّى فيه الوجهَ والمَواضِعَ المُهلِكةَ، ويكونَ في المَواضِعِ التي يُؤمَنُ التَّلَفُ من ضَربِها ضَربَ إيلامٍ فقط دون تَأثِيرٍ في العُضوِ. قال الرسولُ ﷺ: «إذا ضرَب أحَدُكم فليتَّقِ الوجهَ». قال محمدُ بنُ رشد: ولا يضربُ بعضَ الضرب، معناه: ولا يضربُ بعضَ الضربِ الذي يضربُه كثيرٌ من الناسِ فيتعدَّى في الضرب، يريد: أنّه لا يضربُ إلا ضربًا خفيفًا.

الثالث: أن يكونَ عددُ الضرباتِ بعددِ ما أجازه الفقهاءُ.

وفي عددِ الضرباتِ الجائزةِ أقوال:

القول الأول: ألا يُجاوِزَ ثَلاثًا، فلَيسَ له أن يُجاوِزَ بضَربِه الثَّلاثَ عند الحَنَفيّةِ، وكذلك عند جماعةٍ من المالكيّةِ كابنِ عرفةَ وأشهبَ، وعند ابنِ سريجٍ من الشافعيّةِ، وجماعةٍ من الحنابلة:

ففي كتبِ الأحناف: قال في «مراقي الفلاح»: ولا يزيدُ على ثلاثِ ضرباتٍ[(١)].

وفي كتبِ المالكيّةِ: قال ابنُ عَرَفةَ: الضَّربُ من واحِدٍ إلى ثَلاثةٍ. قال أشهَبُ: إن زادَ المُؤدِّبُ على ثَلاثةِ أسواطٍ اقتُصَّ مِنهُ[(٢)].

وقال ابنُ سُرَيجٍ من الشافعيّة: لا يَضرِبُ فَوقَ ثَلاثِ ضَرَباتٍ.

الأدلةُ التي استدلُّوا بها:

لقَولِ النَّبيِّ ﷺ لِمرداسٍ المُعَلِّمِ: «إيّاكَ أن تَضرِبَ فَوقَ ثَلاثٍ؛ فإنّك إذا ضَرَبتَ فَوقَ الثَّلاثِ اقتَصَّ الله مِنكَ».

أخذًا من حَدِيثِ: «غَطِّ جِبريلَ للنبيِّ ثَلاثَ مَرّاتٍ في ابتِداءِ الوحي».

ورَوى ابنُ عَدِيٍّ في «الكامِل» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ: «نَهَى أن يَضرِبَ المُؤَدِّبُ فَوقَ ثَلاثِ ضَرَباتٍ»، قال في «كشفِ المشكلِ من حديثِ الصحيحين» لابنِ الجوزيِّ وهو من الحنابلة: اعلَم أنّ الضَّربَ على أضرُبٍ:

فَمِنهُ ضربٌ على تركِ أدَبٍ، كضربِ الولَدِ على تعلُّمِ القُرآنِ والعربيّةِ والعلمِ الزائِدِ على قدرِ الواجِبِ، وقد كان ابنُ عمرَ يضربُ ولَدَه على اللَّحنِ.

وضربُ الولَدِ على تركِ الصَّلاةِ إذا بلَغ تسعَ سِنِين، وعَلى تركِ أسبابِ المعاشِ.

فهذا تَأدِيبٌ يَنبَغِي أن يُتلطَّفَ فيه ويُقتنَعَ بالسَّوطِ الواحِدِ والسوطَين.

---

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، لابن عابدين (٦: ٤٣٠).

(٢) التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف المواق.

القـول الثانـي: أن يَكُونَ بِقَدرِ الحاجةِ، وأنّ كثيرَ الضربِ فوق الثلاثِ عند الشـافعيّةِ، وهو المُعتمدُ عند المالكيةِ نَصَّ عليه الدُّسُـوقِيُّ والحطّابُ الرُّعَينيُّ من المالكيةِ في «مواهبِ الجليل» وغيره.

ففـي كتـبِ الشـافعيّة: قـال الشَّـرواني: قولُـه: ضَربًـا غَيـرَ مُبَـرِّحٍ وإن كَثُرَ فالمُعتمَـدُ أنّـه يَكُونُ بقَدرِ الحاجةِ وإن زادَ على الثَّلاثِ، لَكِن بشَـرطِ أن يَكُونَ غَيرَ مُبَرِّحٍ على المُعتَمَدِ.

وفي كتبِ المالكيّة: قال الشَّـيخُ الدُّسُـوقِيُّ: ولا يُحَدُّ بعَدَدٍ كثَلاثةِ أسواطٍ، بَل يَختَلِفُ باختِلافِ حالِ الصِّبيانِ. قال في «مواهبِ الجليلِ في شرحِ مختصرِ خليـل»: فـإن لم يُفِـد القَولُ انتَقَلَ للضَّربِ، والضَّربُ بالسَّـوطِ مـن واحِدٍ إلى ثَلاثـةٍ ضَـربَ إيـلامٍ فقط دُونَ تَأثِيرٍ في العُضوِ، فإن لم يُفِد زادَ إلى عَشـرٍ. قال: ومَن ناهَزَ الحُلُمَ وغَلُظَ حَلقُه، ولَم تَردَعهُ العَشَرَةُ فلا بَأسَ بالزِّيادةِ عليها. قال الحطّابُ الرُّعَينيُّ: قُلتُ: الصَّوابُ اعتِبارُ حالِ الصِّبيانِ، شاهَدتُ بَعضَ مُعَلِّمِينا الصّالِحِين يَضرِبُ الصبيَّ فَوقَ العِشرِينَ وأزيَدَ، وكان مُعَلِّمُنا يَضرِبُ مَن عَظُمَ جُرمُه بالعَصا في سَطحِ أسفَلِ رِجلَيه العِشرِينَ وأكثَرَ. انتَهَى.

وقال الجُزُولِيُّ: يَضرِبُونَ ثَلاثةَ أسواطٍ على الظَّهرِ من فَوقِ الثَّوبِ ويَضرِبُ تَحتَ القَدَمِ عُريانًا، ولا يَزِيدُ على الثَّلاثةِ، فإن زاد عليها كان قِصاصًا فإن نَشَـأ عـن ذلك شَـيءٌ فـإن كان بوجهٍ جائزٍ فلا شَـيءَ عليه وإلا لَزِمَـهُ وقال بَعضُهم: يُضرَبُونَ على الصَّلاةِ ثَلاثةَ أسواطٍ،

وعَلَى الألواحِ خَمسَةً،

وعَلَى السَّبِّ سَبعَةً،

وعَلَى الهَرَبِ عَشَرَةً،

ويَكُونُ ذلك بِسَوطٍ لَيِّنٍ. اهـ.

زاد الشَّيخُ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ: فإن زاد اقْتُصَّ منه.

القـول الثالث: لا يَنبغي الزيادةُ على عشرِ ضربـات؛ لقولِه ﷺ: «لا يُجلَدُ فوق عشرِ جلدات، إلا في حدٍّ من حدودِ الله». رواه البُخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما، واللفظُ للبُخاري.

الرابع: وقَيَّد الحنفيةُ الضربَ بأن يكونَ باليدِ لا بالعصا حيث قالوا: جَوازُ ضَربِ الولَدِ حيث لَزِم ضَربُه بأن يَكُونَ باليَدِ فقط، لا بغَيرِها كالعَصا والسَّوطِ فلا يَضرِبُه الوليُّ والمعلِّمُ بغَيرِها من سَوطٍ أو عَصًا، سواءٌ كان على الصلاةِ أو غيرِها.

قـال ابنُ عابديـن: «قولُه: بيَـدٍ»؛ أي: ولا يُجاوِزُ الثَّـلاثَ، وكذلك المُعَلِّمُ ليـس لـه أن يُجاوِزَهـا «قـال عليه الصَّلاةُ والسَّـلامُ لِمرداسٍ المُعَلِّـم: إيّاكَ أن تَضـرِبَ فـوق الثَّـلاثِ، فإنّـك إذا ضَرَبـتَ فـوق الثَّـلاثِ اقتَصَّ الله منـك»[1]، وظاهِـرُه أنّـه لا يُضـرَبُ بالعَصا في غَيرِ الصَّلاةِ أيضًا. «قَولُه: لا بخَشَـبَةٍ»؛ أي: عَصًا، ومُقتَضَى قَولِه: «بيَدٍ» أن يُرادَ بالخَشَـبةِ ما هو الأعَمُّ منها ومن السَّـوطِ. «قَولُه: لحَديثِ... إلخ» استِدلالٌ على الضَّربِ المُطلَقِ، وأمّا كَونُه لا بخَشَـبةٍ فـلأنّ الضَّربَ بها ورَدَ في جِنايـةِ المُكَلَّفِ. قال في «مراقي الفلاح»: وتضربُ عليها بيدٍ لا بخشـبةٍ، ولا يزيدُ على ثـلاثِ ضرباتٍ. قال الطَّحطاوي: اعتُرِض

---

(١) ابن عابدين (١: ٢٣٥)، (٥: ٣٦٣)، وجواهر الإكليل (٢: ٢٩٦).

بأنّ الدليلَ أعمُّ من المدَّعى، وأُجيب: بأنّه خصَّ الضربَ بغيرِ الخشـبةِ لقرينةٍ، وهـو أنّ الضـربَ بهـا إنّمـا ورَد فـي جنايةٍ صدَرت مـن مكلَّـفٍ ولا جنايةٍ من الصغيرِ، وقد ورَد في بعضِ الآثارِ ما يدلُّ عليه.

وقالت المالِكيّةُ والشافعيةُ: يجوزُ بغَيرِ اليَدِ.

الخامـس: وقيَّـد الشـافعيةُ الضـربَ بما إذا لـم يترتَّب علـى ضربِه ضياعُه وهربُـه، قالـوا: ثـم مَحَلُّ ما ذَكَـر من وُجُوبِ الضَّـربِ ما لم يَترتَّـب عليه هَرَبُه وضَياعُه، فإن تَرَتَّب عليه ذلك تَرَكَه.

السـادس: نـصَّ الأحنـافُ أنّـه لا يجـوزُ ضـربُ الولدِ قبـل أن يَعقِـلَ عند بكائه، قال في «البحرِ الرائق شرحِ كنزِ الدقائق» في مبحثِ جوازِ ضربِ الزوجِ لزوجتِه: ويَنبَغِي أن يُلحَقُ به ما إذا ضَرَبَت الولَدَ الذي لا يَعقِلُ عند بُكائِه؛ لأنَّ ضَربَ الدّابّةِ إذا كان مَمنُوعًا فهذا أولَى.

سِنُّ وجوبِ التعليمِ على الوليِّ للصبيِّ للصلاةِ ونحوِها:

وقـد صَـرَّح الفُقَهاءُ بـأنّ وُجُوبَ تَعلِيـمِ الصِّغارِ يَبدَأُ بعد استِكمال سَـبعِ سِـنِينَ؛ لحَدِيـثِ: «مُـرُوا أولادَكُم بِالصَّلاةِ وهُم أبناءُ سَـبعِ سِـنِينَ، واضرِبُوهُم عليها وهُم أبناءُ عَشرٍ، وفَرِّقُوا بَينَهُم في المَضاجِعِ».

قال ابنُ عابدين: الظاهِرُ أنّ الوُجُوبَ بعد استِكمال السَّبعِ، ويَنبَغِي أن يُؤمَرَ بجَمِيعِ المَأمُوراتِ ويُنهَى عن جَمِيعِ المَنهِيّاتِ.

وقال زَكَرِيّا الأنصارِيُّ نَقلًا عن النَّوويِّ: يَجِبُ على الآباءِ والأمَّهاتِ تَعلِيمُ أولادِهِم الطَّهارةَ والصَّلاةَ والشَّرائِعَ بعد سَبعِ سِنِين.

سنُّ الضربِ على الصلاةِ وما يَتبعُها:

قالت الحنفيةُ والحنابلةُ: بعد العشرِ؛ أي: في أوَّلِ الحاديةَ عشرة.

وقالت المالكيةُ وجماعةٌ من الشافعيةِ: عند الدخولِ في العشرِ؛ أي: في أثناءِ العشرِ.

وتفصيلُ ذلك: أنّه قد ذَهَب الحَنَفيّةُ والحَنابِلةُ إلى أنّ وُجُوبَ الأمرِ بها يَكُونُ بعد استِكمالِ السَّبعِ، والأمرَ بِالضَّربِ يَكُونُ بعد العَشرِ بأن يَكُونَ الأمرُ في أوَّلِ الثامِنةِ وبالضَّربِ في أوَّلِ الحادِيةَ عَشرَةَ.

قال المالِكِيّةُ: يَكُونُ الأمرُ عند الدُّخُولِ في السَّبعِ، والضَّربُ عند الدُّخُولِ في العَشرِ.

وأمّا الشافعيّةُ: فمنهم مَن قال: في أثناءِ العشرِ ولو في أوَّلِ العشرِ، ومنهم مَن قال: بعد العشرِ، قال الرَّمليُّ والخطيبُ الشِّربِينِيُّ والباجوريُّ وعليٌّ الشَّبراملِّسيُّ وصَحَّحه الإسنَوِيُّ، وجَزَم به ابنُ المُقري: قالوا: ويَنبَغِي اعتِمادُه؛ لأنّ ذلك مَظِنّةُ البُلُوغِ. وأمّا الأمرُ بها فلا يَكُونُ إلا بعد تَمامِ السَّبعِ.

وقال ابنُ حجر: «عليها لعشر»؛ أي: بعد العشرِ؛ لما صَحَّ من قولِه ﷺ: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعٍ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ».

جواز الضرب قبل العشر:

نصَّ كثيرٌ من العلماءِ على جوازِ الضربِ للصبيِّ والصبيّةِ قبل العشرِ إذا كان للتأديبِ لا للصلاةِ، وقليلٌ منهم نصَّ على جوازِ الضربِ للصلاةِ قبلَ ذلك:

قال في «الدرِّ المختار»: وفِي «القُنيةِ»: له إكراهُ طِفلِه على تَعَلُّمِ قُرآنٍ وأدَبٍ وعِلمٍ لفَرِيضَتِه على الوالِدَينِ.

قال ابنُ عابدين: وهل يُضرَبُ تَعزِيرًا بمُجَرَّدِ عَقلِه، أو إذا بَلَغَ عَشرًا كما في ضَربِه على الصَّلاةِ؟ لم أرَهُ، نَعَم في «البَحرِ» عن «القُنيةِ»: مُراهِقٌ شَتَمَ عالِمًا فعليه التَّعزِيرُ. اهـ.



المرحلة الرابعة

قال المصنف رحمه الله:

[٤٥] وبَعدَمَـا يُـشرِقُ نُـورُ العَقلِ — عَلَى الصَّـبِي يُؤمَـرْ بِـأن يُصَلِّ
[٤٦] وليَلْـتَزِمْ فِعلَ الكِـرَامِ الشُّرَفَا — المُتَّقِـينَ الصَّالِحِـينَ الأولِيَـا
[٤٧] ويَعتَمِـدْ جُلُوسَـهُ بَينَهُـمُ — حَـتَّى يُوافِـقْ طَبعُـهُ طَبعَهُـمُ
[٤٨] ويَنغَـرِسْ بِقَلبِـهِ مَا يَسـتَمِعْ — ويَنطَبِـعْ فِي قَلبِـهِ مَـا يَنطَبِـعْ
[٤٩] ويَحتَفِـظْ بِـهِ عَـنِ الجُهَّـالِ — وكُلِّ أهـلِ الفِسـقِ والضَّـلَالِ
[٥٠] ومَن عُـرِفْ بِالكِذبِ والخِيَانَهْ — وكُلِّ مَـن لَيسَـتْ لَهُ أمَانَـهْ
[٥١] فَـإنَّ أصـلَ أدَبِ الأخيَـارِ — حِفظُ الصَّبِي عَن صُحبَةِ الأشرَارِ
[٥٢] إذِ الطِّبَـاعُ تَـسرِقُ الطِّبَـاعَا — وكُلُّ مَـن جَالَسْ خَبِيثًـا ضَاعَا
[٥٣] وقَـد أتَى نَـصٌّ عَنِ الرَّسُـولِ — بِـأنَّ طَبـعَ المَـرءِ كَالخَلِيلِ

الشرح:

مهما بـدا في الصبيِّ مـن مخايلِ التمييزِ ينبغي أن يُحسِـنَ الولـيُّ مراقبتَه، وأوَّلُ ذلك ظهورُ الحياء، فإذا كان يحتشـمُ ويسـتحيي من البعضِ فليس ذلك إلا من إشـراقِ نورِ العقلِ عليه، حتى رأى بعضَ الأفعالِ الحسـنةِ فيقتدِي بها، ومخالفًا للبعضِ مما لا يُوافِقُ الأدبَ فيتجنَّبُها، فصار يسـتحيي من شـيءٍ دون شيء، وهذه هديةٌ من الله تعالى إليه، تدلُّ على اعتدالِ الأخلاقِ وصفاءِ القلب،

وهو مبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عند البلوغ، فالصبيُّ المستحيي لا ينبغي أن يُهمَلَ بل يُتعاوَنُ على تأديبه بحيائه وتمييزه.

فضيلة الحياء:

- الحياءُ خُلقٌ رفيعٌ يمنعُ الإنسانَ عن الاتصافِ بالأخلاقِ السَّيِّئة، والأقوالِ الفاحشة، والأفعالِ القبيحة.
- الحيـاءُ هو أسـاسُ مكارمِ الأخلاق، ومنبـعُ كلِّ فضيلةٍ؛ لأنّه يترتَّبُ عليه القولُ الطَّيِّب، والفعلُ الحسن.
- الحياءُ دليلُ الدِّينِ الصَّحيح، وسِمةُ الصَّلاحِ الشامل، وعنوانُ الفلاحِ الكامل.

تعريف الحياء:

خُلقٌ يكفُّ العبدَ عن ارتكابِ القبائحِ والرَّذائل، ويحثُّه على فعلِ الجميل، ويمنعُه من التَّقصيرِ في حقِّ صاحبِ الحقِّ، وهو من أعلى مواهبِ الله للعبد.

قـال الجُنَيدُ رحمه الله: «الحيـاءُ رؤيةُ الآلاءِ ورؤيةُ التقصير» فيتولَّدُ بينهما حالةٌ تُسمَّى الحياءَ «وحقيقتُه خُلُقٌ يبعثُ على تركِ القبائح» ويمنعُ من التفريطِ في حقِّ صاحبِ الحقِّ[(١)].

ومن كلامِ بعضِ الحكماء: أحيُوا الحياءَ بمجالسةِ مَن يُستحيَا منه، وعمارةُ القلب: بالهيبةِ والحياءِ، فإذا ذهَبا من القلبِ لم يَبقَ فيه خيرٌ.

وقال ذو النون: الحياءُ وجودُ الهيبةِ في القلبِ مع وحشةِ ما سبَق منك إلى ربِّك، والحبُّ يُنطِقُ والحياءُ يُسكِتُ والخوفُ يُقلِق.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم (١: ٢٢١)، وتحفة الأحوذي (٦: ١٢٦).

وقال السَّري: إنّ الحياءَ والأنسَ يَطرُقان القلبَ، فإن وَجدا فيه الزهدَ والورعَ وإلا رَحَلا.

رقابةُ الله على عبادِه تُوجِبُ الحياءَ منه سبحانه.

ويَجرِي في الحَياءِ الأحكامُ التَّكلِيفيّةُ:

فإن كان المُستَحيا مِنهُ مُحَرَّمًا، فالحَياءُ مِنهُ واجِبٌ، وإن كان الحَياءُ مِنهُ مَكرُوهًا فَهُو مَندُوبٌ، وإن كان المُستَحيا مِنهُ واجِبًا فالحَياءُ مِنهُ حَرامٌ، وإن كان من مُباحٍ فهو عُرفِيٌّ أو جائِزٌ[1].

فالحَياءُ من تَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ وما يَجِبُ على الإنسانِ العِلمُ به ليس بحَياءٍ شَرعِيٍّ.

فعن عائِشَةَ رضي الله عنها قالت: نِعمَ النِّساءُ نِساءُ الأنصارِ، لم يَكُن يَمنَعُهُنَّ الحَياءُ أن يَتَفَقَّهنَ في الدِّينِ[2]. وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنّها قالت: جاءَت أُمُّ سُلَيمٍ إلى رَسُولِ الله ﷺ فقالت: يا رَسُولَ الله، إنّ الله لا يَستَحيِي من الحَقِّ، هَل على المَرأةِ غُسلٌ إذا هي احتَلَمَت؟

فقال رَسُول الله ﷺ: «نَعَم، إذا رَأتِ الماءَ»[3].

فضائل الحياء:

أوَّلًا: الحياء مفتاحُ كلِّ خيرٍ:

عن عمرانَ بنِ حُصينٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحياءُ خيرٌ كلُّه» قال: إنّه قال: «الحياءُ كلُّه خيرٌ». رواه مسلمٌ.

---

(١) عمدة القاري (١: ١٥٢)، فتح الباري (١: ٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (١: ٢٦١). (٣) أخرجه البخاري (٢٨٢).

ثانيًا: الحياءُ إيمانٌ:

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إنّ الحياءَ والإيمانَ قُرِنا جميعًا، فإذا رُفِع أحدُهما رُفِع الآخرُ». صحيحٌ على شرطِ الشَّيخين.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الإيمانُ بِضعٌ وسبعون شعبةً، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ». رواه مسلمٌ.

ثالثًا: الحياءُ أبهى زينةٍ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما كان الفُحشُ في شيءٍ إلا شانَه، وما كان الحياءُ في شيءٍ إلا زانَه».

فلا يكونُ في شيءٍ من الأقوالِ والأفعال، إلا زيَّنه وجمَّله وحسَّنه؛ ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلا شانه وعابه وقبَّحه، وجرَّ إليه العيبَ والقبح.

الحياءُ مفتاحُ كلِّ خير، بل هو الخيرُ كلُّه.
والفحشُ مفتاحُ كلِّ شر، بل هو الشَّرُّ كلُّه.

رابعًا: الحياءُ خُلقٌ يحبُّه الله تبارك وتعالى:

عن أشجِّ عبدِ القيسِ رضي الله عنه قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «إنّ فيك لخُلُقَين يُحبُّهما الله» قلت: وما هما يا رسولَ الله؟ قال: «الحِلمُ والحياءُ». «الأدب المفرد».

خامسًا: الحياءُ يقودُ إلى الجنَّة:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحياءُ من الإيمان، والإيمانُ في الجنّة، والبذاءُ من الجفاء، والجفاءُ في النار»[١].

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٠٠٩)، وابن ماجه (٣٣٩٢).

سادسًا: الحياءُ خُلقُ الإسلام:

الحياء: هو من أفضلِ الأخلاقِ وأجلِّها، وأعظمِها قدرًا، وأكثرِها نفعًا.

وهو مفتاحُ السعادةِ والتوفيق، عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ لكلِّ دينٍ خُلقًا، وخُلقُ الإسلامِ الحياء»(١).

سابعًا: الحياءُ شريعةُ جميعِ الأنبياءِ عليهم السلام:

عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إنّ ممّا أدرَكَ الناسُ من كلامِ النُّبوةِ الأولى: إذا لم تَستحِ فاصنَع ما شِئتَ»(٢).

رفَع النَّبيُّ ﷺ قدرَ هذه الكلمة، وأجلَّها، وعظَّم شأنَها؛ لأنّها كلمةٌ جامعةٌ لخيرِ الدُّنيا والآخرة. «بحر الفوائد».

ثامنًا: الحياءُ مانعٌ من فعلِ المعاصي:

عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «إنّ ممّا أدرَك النّاسُ من كلامِ النُّبوةِ الأولى: إذا لم تستحِ فاصنَع ما شِئتَ»(٣)، فإذا استحيا لم يتجرأ على فعل الحرام.

والمعنى: أنّ الرادعَ عن القبيحِ إنّما هو الحياء، وبغيابِ الحياء: تتدمَّرُ الأخلاق، وتُرتكَبُ الفواحشُ والموبقات، فمَن لم يستحِ فإنّه يصنعُ ما شاء.

مظاهرُ مشرقةٌ من الحياء:

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن جرَّ ثوبَه خُيَلاءَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٨٩).
(٢) رواه البخاري (٦١٢٠).
(٣) رواه البخاري (٦١٢٠).

لم يَنظُرِ الله إليه يومَ القيامة». فقالت أمُّ سلمةَ: فكيف يصنعنَ النِّساءُ بذيولهنَّ؟ قال: «يُرخِين شِبرًا»، فقالت: إذًا تَنكشِفُ أقدامُهنَّ، قال: «فيُرخِينه ذِراعًا، لا يَزِدن عليه»[١].

سبحانَ الله! الرَّسولُ ﷺ يقولُ لأمِّ سلمةَ: «يُرخِين شِبرًا»، ولكنَّها تقول: إنّ النِّساءَ لا تطيقُ هذا؛ لأنّ أقدامَهنَّ ستنكشفُ عند المشي، فلم تَرضَ أن يُرخى الثَّوبُ شبرًا يجرجرُ في الأرض؛ فليَستمِع نساءُ اليوم.

المرأةُ في الحقيقةِ هي قطعةٌ من الحياء، فإذا فقَدت المرأةُ حياءها؛ فقَدت كلَّ شيءٍ، وفعَلت كلَّ شيءٍ.

خلوةُ الَّذين لا يستحيون من الله:

لمّا غاب الحياءُ من الله عند كثيرٍ من الناس، تَجرَّؤوا على محارمِ الله.

عن ثوبانَ رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لأعلَمنَّ أقوامًا من أمَّتي يَأتون يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ جبالِ تِهامةَ بيضاءَ، فيجعلُها الله عز وجل هباءً منثورًا».

قال ثوبانُ: يا رسولَ الله، صِفهم لنا، جَلِّهم لنا ألا نكونَ منهم ونحن لا نعلمُ. قال: «أما إنّهم إخوانُكم ومن جِلدتِكم، ويَأخذون من الليلِ كما تَأخذون، ولكنّهم أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارمِ الله انتهكوها»[٢].

---

(١) رواه التِّرمذي (١٧٣١)، وابن ماجه (٥٣٥١).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٤٢).

مظاهر قلَّة الحياء:

ـ خروجُ النِّساءِ كاسياتٍ عاريات:

عن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قال: سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يكونُ في آخرِ أمَّتي رِجالٌ يَركَبون على سروجٍ كأشباهِ الرِّحال، يَنزِلون على أبوابِ المساجد، نساؤهم كاسياتٌ عاريات، على رُؤوسِهنَّ كأسنمةِ البُختِ العِجاف، العَنُوهن فإنّهنَّ ملعوناتٌ، لو كان وراءكم أمَّةٌ من الأممِ خدَمتهنَّ نساؤكم كما خدَمكم نساءُ الأممِ قبلكم».

ـ كثرةُ خروجِ المرأةِ من البيت:

عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنّ المرأةَ عورةٌ، فإذا خرَجت استَشرفها الشَّيطان، وأقرَبُ ما تكونُ من وجهِ ربِّها وهي في قعرِ بيتِها»[١].

قولُه ﷺ: «فإذا خرَجت استَشرفها الشَّيطان»؛ أي: زيَّنها في نظرِ الرجال، وقيل: أي: نظَر إليها، ليُغوِيَها ويغويَ بها.

ـ خروجُ المرأةِ متعطرةً:

قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُقبَلُ صلاةٌ لامرأةٍ تطيَّبت لهذا المسجدِ حتَّى ترجعَ فتغتسلَ غُسلَها من الجنابة»[٢]. أي: كغُسلِها من الجنابة.

هذا حكمُ رسولِ الله ﷺ فيمَن خرَجت إلى المسجدِ متعطرةً، فماذا يكونُ

---

(١) رواه ابن خزيمة (١٦٨٥).

(٢) رواه أبو داود (٤١٧٤).

حكمُه فيمَن تخرجُ إلى عُرسٍ ونحوِه متعطرة؟! فاعتبِروا يا أولي الأبصار.

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أيُّما امرأةٍ استَعطرت فمرَّت على قومٍ ليَجِدوا من ريحِها فهي زانية»(١).

ـ مشيُ المرأةِ في وسطِ الطَّريق:

عن أبي أسيدٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه: أنّه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ وهو خارجٌ من المسجد، فاختَلط الرِّجالُ مع النِّساءِ في الطريق: «استأخِرن؛ فإنّه ليس لكنَّ أن تَحقُقنَ الطَّريقَ، عليكنَّ بحافاتِ الطَّريق». قال: فكانت المرأةُ تلتصقُ بالجدارِ حتَّى إنّ ثوبَها ليتعلَّقُ بالجدارِ من لصوقِها به(٢).

سبحانَ الله! بادَرنَ إلى تنفيذِ أمرِ النَّبيِّ ﷺ، بل بالَغن في ذلك.

ـ وضعُ المرأةِ ثيابَها في غيرِ بيتِ زوجِها:

عن أبي المليحِ الهُذَلي: أنّ نساءً من أهلِ حمص، أو من أهلِ الشام، دخَلن على عائشة، فقالت: أنتن اللاتي يدخُلن نساؤكن الحمّامات؟! سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من امرأةٍ تضعُ ثيابَها في غيرِ بيتِ زوجِها إلا هتكَت السِّترَ بينها وبين ربِّها»(٣).

فيحرمُ على المرأةِ أن تخلعَ ثيابَها في غيرِ بيتِ زوجِها: كالمسابح، وصالوناتِ التَّجميل، والأنديةِ الرِّياضيّة.

---

(١) رواه النَّسائي (٥١٤١).
(٢) رواه أبو داود (٥٢٧٢).
(٣) رواه التِّرمذي (٢٨٠٣).

صورٌ من الحياءِ المذموم:

ـ تركُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يَمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا رآه أو شهِده أو سمِعه». إسناده صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ.

كأن يأكلَ والدٌ بشمالِه، فيستحيي الولدُ من نهيِ أبيه عن الأكلِ بالشِّمالِ حياءً منه.

فلا ينبغي لك أن تتركَ الأمرَ بالمعروف، والنَّهيَ عن المنكر، حياءً من الناس.

ـ مقارفةُ الإثمِ استحياءً من الناس:

كأن تمدَّ امرأةٌ أجنبيّةٌ يدَها إلى رجلٍ فيصافِحَها، ويزعمُ أنّه استحيا منها؛ وقد قال رسولُ الله ﷺ: «لأن يُطعَنَ في رأسِ أحدِكم بمِخيَطٍ من حديدٍ خيرٌ له من أن يمسَّ امرأةً لا تحلُّ له».

فمَن صافَح امرأةً أجنبيّةً حياءً منها، فليتذكَّرِ هذا الحديثَ: عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن التَمس رضا الله بسخطِ الناس؛ رضيَ الله عنه وأرضى عنه الناس، ومَن التَمس رضا الناس بسخطِ الله، سخِط الله عليه وأسخَط عليه الناسَ».

واعلَم أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا رضيَ عن العبد، أرضى الناسَ عنه؛ وإذا سخِط على العبد، أسخَط الناسَ عليه.

ـ تركُ طلبِ العلم:

قال مجاهدٌ رحمه الله: «لا يتعلَّمُ العلمَ مستحيٍ ولا مستكبرٌ».

كيف يكونُ الحياءُ من الله؟

عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «استَحيوا من الله حقَّ الحياء». قال: قلنا: يا رسولَ الله، إنّا لنستحيي والحمدُ لله؛ قال: «ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياءَ من الله حقَّ الحياء: أن تحفظَ الرَّأسَ وما وَعى، وتحفظَ البطنَ وما حَوى، ولتذكُرِ الموتَ والبلى، ومَن أرادَ الآخرةَ تركَ زينةَ الدُّنيا، فمَن فعَل ذلك فقد استحيا»(١).

فالمقصودُ من الحديثِ: أنّ الحياءَ من الله يكونُ باتباعِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه ومراقبتِه في السِّرِّ والعلَن.

قال رسولُ الله ﷺ: «أُوصِيك أن تستحييَ من الله تعالى كما تستحيي من الرَّجلِ الصالحِ من قومِك».

وهذا الحياءُ يُسمَّى حياءَ العبوديّةِ الَّذي يصلُ بصاحبِه إلى أعلى مراتبِ الدِّينِ، وهي مرتبةُ الإحسانِ الَّذي يُحسُّ فيها العبدُ دائمًا بنظرِ الله إليه وأنّه يراه في كلِّ حركاتِه وسكناتِه فيتزيَّنُ لربِّه بالطاعات.

وهذا الحياءُ يجعلُه دائمًا يشعرُ بأنّ عبوديَّتَه قاصرةٌ حقيرةٌ أمام ربِّه؛ لأنّه يعلمُ أنّ قدرَ ربِّه أعلى وأجلّ.

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٤٥٨).

قال ذو النُّون: «الحياءُ وجودُ الهيبةِ في القلبِ مع وحشـةٍ ممّا سـبَق منك إلى ربِّك».

وهذا يُسمَّى أيضًا حياءَ الإجلالِ الذي منبعُه معرفةُ الرَّبِّ عز وجل، وإدراكُ عِظَمِ حقِّه ومشاهدةِ مِنَنِه وآلائه. وهذه هي حقيقةُ نَصَبِ الرَّسولِ وإجهادِ نفسِه في عبادةِ ربِّه.

فالحيـاءُ مـن الأخلاقِ الرَّفيعةِ التي أمَر بها الإسـلامُ وأقرَّهـا ورغَّب فيها. وقـد جاء فـي «الصحيحين» قولُ رسـولِ الله ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وسـبعون أو بضـعٌ وسـتون شـعبةً، فأفضلُها قـولُ: لا إلـهَ إلا الله، وأدناها إماطـةُ الأذى عنِ الطَّريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[١].

والسِّـرُّ فـي كـونِ الحياءِ من الإيمـان: أنّ كلًّا منهما داعٍ إلـى الخيرِ مُقرِّبٌ منـه صارفٌ عن الشَّـرِّ مُبعِّدٌ عنـه، فالإيمانُ يبعثُ المؤمنَ علـى فعلِ الطاعاتِ وتـركِ المعاصي والمنكرات. والحياءُ يمنعُ صاحبَه من التَّفريطِ في حقِّ الرَّبِّ والتَّقصيـرِ في شـكرِه، ويمنعُ صاحبَه كذلك من فعلِ القبيـحِ أو قولِه اتِّقاءَ الذَّمِّ والملامة.

حياء أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

خطَب الصِّدِّيقُ الناسَ يومًا، فقال: «يا معشرَ المسلمِين، استَحيوا من الله، فوالـذي نفسـي بيدِه إنِّـي لأظلُّ حين أذهـبُ الغائطَ فـي الفضـاءِ متقنِّعًا بثوبي استحياءً من ربِّي عزَّ وجلَّ».

(١) رواه مسلم (٣٥).

حياء عثمان بن عفّان رضي الله عنه:

عُرِف عثمانُ رضي الله عنه بشدّةِ الحَياء، حتى إنّ الملائكةَ كانت تستحيي منه، فعن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: كان رسولُ الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذَيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكرٍ فأذِن له، وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمرُ، فأذِن له، وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمانُ، فجلَس رسولُ الله ﷺ، وسوَّى ثيابَه - قال محمدٌ: ولا أقولُ ذلك في يومٍ واحدٍ - فدخَل فتحدَّث، فلمّا خرَج، قالت عائشة: دخَل أبو بكر، فلم تهتشَّ له ولم تُبالِه، ثم دخَل عمرُ فلم تهتشَّ له ولم تُبالِه، ثم دخَل عثمانُ فجلَستَ وسوَّيتَ ثيابَك، فقال: «ألا أستحيي من رجلٍ تستحيي منه الملائكةُ؟». مسلم.

حياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كنتُ رجلًا مَذّاءً، فكنتُ أستحيي أن أسألَ رسولَ الله ﷺ لمكانِ ابنتِه، فأمرتُ المقدادَ فسأله، فقال: «يغسلُ ذكَرَه ويتوضَّأ». متفق عليه.

حياءُ عائشةَ رضي الله عنها:

عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «كنتُ أدخلُ بيتي، الذي دُفِنَ فيه رسولُ الله ﷺ وأبي، فأضعُ ثوبي، فأقول: إنّما هو زوجي وأبي، فلمّا دُفِنَ عمرُ معهم، فوالله ما دخلتُ إلا وأنا مَشدُودَةٌ عليَّ ثيابي؛ حَياءً من عمر».

حياء فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها:

عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «جاءت فاطمةُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعةَ تبايعُ النَّبيَّ ﷺ، فأخذ عليها ألا يُشرِكنَ بالله شيئًا ولا يَزنِينَ، الآية. قالت: فوضَعَت

يدَها على رأسِها حَياءً، فأعجَبَ رسولَ الله ﷺ ما رأى منها، فقالت عائشة: أقِرِّي أيَّتها المرأة، فوالله ما بايَعنا إلا على هذا. قالت: فنعَم إذًا. فبايَعها بالآية».

سئل شيخُنا العلّامةُ الحبيبُ عمرُ نفَعنا الله بعلومِه في الدارَين آمين: متى يكونُ الحياءُ مذمومًا ومتى يكونُ محمودًا؟

لا يكونُ الحياءُ في حدِّ ذاتِه مذمومًا إلا ما صُوِّر بصورةِ الحياء، وليس من الحياءِ المحمود، وذلك:

أن يراعيَ الإنسانُ جانبَ الخَلقِ،

أو جانبَ النفسِ مقابلَ الشرعِ المطهَّرِ المصونِ.

فيتركَ أمرَ الشرعِ ويقول: استحييتُ. وما ذلك بحياء.

فإنّ الحياءَ لا يأتي إلا بخيرٍ كما أخبَر صلَّى الله عليه وآلِه وصحبه وسلَّم، فالذي يتركُ واجبًا من الواجباتِ ويقول: استَحييتُ من الناسِ، أو يشاركُ الناسَ في مخالفةٍ للشريعة، فإذا سئل: ما لك؟ قال: استحييتُ منهم ففَعلتُ مثلَ فعلِهم، فهذا ليس بحياء، ولكنه جُبنٌ ومداهنةٌ في الدينِ وضعفٌ، ليس من الحياءِ في شيء.

إنّما حقيقةُ الحياءِ ما أثمَر الخير: فإنّ الحياءَ لا يأتي إلا بخيرٍ كما أخبَرَ صلَّى الله عليه وآلِه وصحبه وسلَّم، حينما سمِع أخًا يُكلِّمُ أخاه أن يقصرَ من الحياءِ ويُقِلَّ من حيائه؛ لأنّه يغلبُ عليه الحياء.

فقال صلَّى الله عليه وآلِه وصحبه وسلَّم: «دعه فإنّ الحياءَ لا يأتي إلا بخيرٍ».

وقد كان يقولُ بعضُ الصحابةِ والتابعين: إذا صارت الأمةُ يجتمعُ منهم نحوُ العشرين ليس فيهم مَن يُستحيا منه، فقد حلَّ بهم البلاء.

حلَّ البلاءُ على الأمة، ولذلك كان من مظاهرِ الحياءِ من الله أن يستحييَ من ذلك الشخصِ أن يقالَ أمامه وفي حضرته ما لا يليقُ بالمروءةِ والأدبِ فضلًا عن أن يُتكلَّمَ بمعصيةٍ أو مخالفةٍ للشرعِ المصون، كذلك في الأفعالِ، فهكذا ينبغي أن يُبتنى فينا الحياءُ على وجهِه المحمودِ وليس في حقيقتِه إلا ما كان محمودًا، ولكن قد تُسمَّى بعضُ المواقفِ من الجبنِ والضعفِ بالحياءِ وليست بحياء، إنّما الحياءُ ما حمَل على الإقبالِ الصادقِ على الله، وعلى تركِ ما لا يرضاه جلَّ جلاله، وعلى بذلِ حقوقِ النفسِ من أجلِ الرحمن، هذا هو الحياء، وأمّا أن يتركَ الشريعةَ ويقول: استحييتُ. فليس هذا بحياء، والله أحقُّ أن يُستحيا منه إذا علِم حقيقةَ الحياء، فكثيرٌ من الناسِ يقصِّرُ في واجب، ومنه سؤالُ العلمِ، وذلك أيضًا مما يلتبسُ بالحياءِ وليس من الحياء، فيحتاجُ إلى المسألةِ في العلمِ وأمامه العالِمُ وهو باسطٌ بساطَه للإفتاءِ وللإجابةِ عن الأسئلةِ، فيسكتُ عن سؤالٍ يحتاجُ إليه، ما بك؟ فيقول: استحييتُ. وليس هذا من الحياءِ المحمود، وليس هذا بحقيقةِ الحياء، ومن هنا قالوا: لا يَنالُ العلمَ مستحيٍ ولا مستكبرٌ؛ أي: من يتقمَّصُ قميصَ الحياءِ في ضعفِه وعجزِه، أو عدمِ صدقِه في أسئلتِه، قال سيدُنا عبدُ الله بنُ عباسٍ لما سُئل عن كثرةِ علمِه، قال: أُعطيتُ لسانًا سَؤولًا وقلبًا عَقولًا.

وفي هذه المرحلةِ الرابعة: من بعد سنِّ تمييزِ الصبيِّ الخطابَ، وردِّه الجوابَ إلى سنِّ البلوغِ والاحتلام، يحرصُ الوليُّ على أمرِه بالآتي:

١ـ الصلاة؛ لحديثِ عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ لسبع، واضربوهم عليها لعشرٍ، وفَرِّقوا بينهم في المضاجع»، رواه أحمدُ وأبو داودَ، ويعلمُه صفةَ الصلاةِ وشيئًا من أحكامِها، وأحكامِ الطهارة.

قال شيخُنا الدكتور أمجد رشيد في كتابه «نورِ المشكاة»: يجبُ على كلٍّ من الأبوينِ تعليمُ الصبيِّ والصبيةِ المميِّزَين الصلاةَ، وأمرُهما بها عَقِبَ بلوغِهما تمامَ سبعِ سنين قَمَرية، وضَربُهما على تركِها عقبَ بلوغِهما تمامَ عشرِ سنين كذلك. ولا يضربُ إلا بِقَدرِ الحاجة، ولا يكون مُبَرِّحًا؛ أي: مُؤلِمًا، ومن بابِ أولى ألا يُنزِلَ دَمًا ولا يَكسِرَ عَظمًا، قالوا: ولو لم يُفِد إلا الضربُ المبرِّحُ تركَ المبرِّحَ وغيرَه. وألا يكونَ على الوجهِ أو الرَّأسِ أو المَقاتِل، وألا يترتبَ عليه هربُه وضَياعُه. اهـ.

قال الإمامُ النَّوَويّ: «قال أصحابُنا: ويأمرُه الوليُّ بحضورِ الصلواتِ في الجماعة، وبالسِّواك، وسائرِ الوظائفِ الدِّينية، ويُعَرِّفُه تحريمَ الزِّنا واللِّواطِ والخَمرِ والكَذِبِ والغيبةِ وشِبهِها»[(١)].

قال ابنُ قدامةَ رحمه الله في «المغني»: «هذا الأمرُ والتَّأدِيبُ المَشرُوعُ في حَقِّ الصَّبِيِّ لتَمرِينِه على الصَّلاةِ، كي يَألَفها ويَعتادَها، ولا يَترُكَها عند البُلُوغِ»[(٢)]. انتهى.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين السُّبكيّ: «يَجِبُ على الوَلِيِّ أن يَأمُرَ الصَّبِيَّ بالصَّلاةِ لسَبعٍ ويَضرِبَه عليها لِعَشرٍ.

(١) المجموع (٣: ١١). (٢) المغني (١: ٣٥٧).

ولا نُنكِرُ وُجُوبَ الأمرِ بِما ليس بِواجِبٍ، والضَّربَ على ما ليس بواجِبٍ، ونحن نَضرِبُ البَهيمةَ لِلتَّأدِيبِ فكيف الصَّبيُّ؟ ذلك لِمَصلَحَتِهِ وأن يَعتادَ بها قبل بُلُوغِه. فإن قُلت: هل تَقُولُونَ: إنّه مَأمُورٌ بأمرِ الولِيِّ فقط أو مَأمُورٌ بأمرِ الشَّارِعِ؟ قُلتُ: قد اختَلَفَ الأُصولِيُّون في ذلك في قَولِهِ ﷺ: «مُرُوهُم بِالصَّلاةِ»»[1].

فيُؤمَرُ الصبيُّ والجاريةُ بالصلاةِ لسبع، ويُضربان عليها لعشر، كما يُؤمَران بصومِ رمضان، ويُشجَّعان على كلِّ خير، من قراءةِ القرآن، وصلاةِ النافلة، والحجِّ والعمرة، والإكثارِ من التسبيحِ والتهليلِ والتكبيرِ والتحميد، ويُمنَعان من جميعِ المعاصي.

ويُشترَطُ في ضربِ الصبيِّ على الصلاةِ أن يكونَ ضربًا هيِّنًا غير مبرِّح، لا يشقُّ جلدًا، ولا يكسِرُ سنًّا أو عظمًا، ويكونَ على الظهرِ أو الكتفِ وما أشبَه ذلك، ويتجنبُ الوجهَ لأنّه يحرمُ ضربُه، لنهيِ النبيِّ ﷺ.

ولا يكونُ فوق عشرةِ أسواط، ويكونُ للتأديبِ والتربية، فلا يظهرُ به الرغبةُ في العقابِ إلا عند الحاجةِ إلى بيانِ ذلك، لكثرةِ نفورِ الصبيِّ وتركِه للصلاةِ ونحوِه.

عن أبي بردةَ الأنصاريِّ أنّه سمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يُجلَدُ أحدٌ فوق عشرةِ أسواطٍ إلا في حدٍّ من حدودِ الله»[2].

---

(١) فتاوى السبكي (١: ١٩١).

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٦) ومسلم (٣٢٢٢).

وقد تكلَّمنا على هذا المبحثِ سابقًا.

ويُرغِّبه في فعلِ المندوبات، والمحافظةِ عليها؛ كنوافلِ الصلاةِ والصيام، والتزامِ سمتِ الصالحِين.

٢ـ مصاحبةُ الأخيار، وحبُّ مجالسِهم، والاقتداءُ بهم، والانتفاعُ بكلامِهم وفعالِهم وسمتِهم؛ ليحفظَه بذلك عن مجالسةِ الجُهّالِ والفُسّاقِ الذين يتصيَّدون الصبيانَ في مثلِ هذه السن؛ لإيقاعِهم في سيئِ الأخلاقِ وخبيثِ الفِعال، ولئلا يسرقَ من طباعِهم ما يُوجِبُ ضياعَه وضلالَه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «الرجلُ على دينِ خليلِه؛ فلينظُر أحدُكم مَن يُخالِلُ»، رواه أبو داودَ والترمذيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه.

شروط الصحبة والصداقة:

كما ذكَرها الإمامُ الغزاليُّ في كتابِ «بداية الهداية»:

إحداهما: مَن يصلحُ للأُخُوّةِ.

أن تطلُبَ أوَّلًا شروطَ الصحبةِ والصداقة، فلا تُؤاخِ إلا مَن يصلحُ للأخوّةِ والصداقة، قال رسولُ الله ﷺ: «المرءُ على دينِ خليلِه فلينظُر أحدُكم مَن يُخالِل».

فإذا طلبَت رفيقًا ليكونَ شريكَك في التعلُّم، وصاحبَك في أمرِ دينِك ودنياك، فراعِ فيه خمسَ خصال: **الأولى**: العقل: فلا خيرَ في صحبةِ الأحمق، فإلى الوحشةِ والقطيعةِ يرجعُ آخرُها، وأحسنُ أحوالِه أن يضرَّك وهو يريدُ أن ينفعَك، والعدوُّ العاقلُ خيرٌ من الصديقِ الأحمق، قال عليٌّ رضي الله عنه:

فَلَا تَصحَب أخَا الجَهلِ وَإيَّـــــــاكَ وَإيَّـــــاهُ
فَكَم مِن جَاهِـلٍ أردَى حَلِيمًـا حِيـنَ آخَـاهُ
يُقَـاسُ المَـرءُ بِالمَـرءِ إذَا مَـا المَـرءُ مَاشَـاهُ
كَحَـذوِ النَّعـلِ بِالنَّعلِ إذَا مَـا النَّعـلُ حَـاذَاهُ
وَلِلشَّـيءِ مِـنَ الشَّـيءِ مَـقَـايِـيـسٌ وَأشـبَـاهُ
وَلِلقَلـبِ عَلَـى القَلبِ دَلِـيـلٌ حِـيـنَ يَـلـقَـاهُ

الثانية: حسن الخلق، فلا تَصحَب مَن ساء خُلقُه، وهو الذي لا يملكُ نفسَه عند الغضبِ والشهوة. وقد جمَعه علقمةُ العُطارديُّ رحمه الله تعالى في وصيَّتِه لابنِه لمّا حضَرته الوفاةُ، قال: يا بُنَي، إذا أرَدتَ صُحبةَ إنسانٍ فاصحَب مَن إذا خَدَمتَه صانَك، وإن صَحبتَه زانَك، وإن قعَدَت بك مؤنةٌ مانَك. اصحَب مَن إذا مَددتَ يدَك بخيرٍ مَدَّها، وإن رأى منك حَسنةً عَدَّها، وإن رأى منك سيئةً سَدَّها.

اصحَب مَن إذا قُلتَ صدَّق قولَك، وإن حاوَلتَ أمرًا أمرَك، وإن تنازَعتُما في شرٍّ آثرَك.

وقال عليٌّ رضي الله عنه رَجَزًا:

إنَّ أخَـاكَ الحَقُّ مَن كَانَ مَعَكْ وَمَـن يَضُـرُّ نَفسَـهُ لِيَنفَعَـكْ
وَمَن إذَا رَيبُ الزَّمَانِ صَدَّعَكْ شَـتَّتَ فِيكَ شَـملَهُ لِيَجمَعَكْ

الثالثة: الصلاح، فلا تَصحَب فاسقًا مُصِرًّا على معصيةٍ كبيرة؛ لأنّ مَن يخافُ الله لا يُصِرُّ على كبيرة، ومَن لا يخافُ الله لا تُؤمَنُ غوائلُه، بل يتغيَّرُ بتغيُّرِ

الأحـوالِ والأعـراض، قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فاحذَر صُحبةَ الفاسـق؛ فإنّ مشـاهدةَ الفسـقِ والمعصيةِ على الدوامِ تُزِيلُ عـن قلبِـك كراهيةَ المعصية، وتهـوِّنُ عليك أمرَها، ولذلك هـان على القلوبِ معصيةُ الغِيبةِ لإلفِهم لها، ولو رأوا خاتمًا من ذهبٍ أو ملبوسًـا من حريرٍ على فقيهٍ لاشتدَّ إنكارُهم عليه، والغِيبةُ أشدُّ من ذلك.

الرابعـة: ألا يكـونَ حريصًا على الدُّنيا، فصحبةُ الحريصِ على الدُّنيا سـمٌّ قاتل؛ لأنّ الطباعَ مجبولةٌ على التشبُّهِ والاقتداء، بل الطبعُ يسرقُ من الطبعِ من حيث لا يَدري، فمُجالسـةُ الحريصِ تزيدُ في حرصِك، ومجالسـةُ الزاهدِ تزيدُ في زهدِك.

الخامسـة: الصـدق، فلا تَصحَـب كذّابًا، فإنّـك منه على غـرور، فإنّه مثلُ السراب، يُقرِّبُ منك البعيدَ، ويُبعِّدُ منك القريبَ.

ولعلك تَعدَمُ اجتماعَ هذه الخصالِ في سُكّانِ المدارسِ والمساجد، فعليك بأحدِ أمرَين: إمّا العزلةِ والانفراد؛ ففيها سلامتُك، وإمّا أن تكونَ مخالطتُك مع شـركائك بقدرِ خصالِهم، بأن تعلمَ أنّ الإخوةَ ثلاثة: أخٌ لآخرتِك فلا تُراعِ فيه إلا الدين، وأخٌ لدنياك فلا تُراعِ فيه إلا الخُلقَ الحسـن، وأخٌ لتأنسَ به فلا تُراعِ فيه إلا السلامةَ من شرِّه وفتنتِه وخبثِه.

والناسُ ثلاثة:

أحدهم: مَثَلُه مثلُ الغذاءِ لا يُستغنى عنه.

والآخر: مثلُه مثلُ الدواءِ يُحتاجُ إليه في وقتٍ دون وقت.

والثالث: مثلُه مثلُ الداءِ لا يُحتاجُ إليه قط، ولكنّ العبدَ قد يتسلَّى به، وهو الذي لا أُنسَ فيه ولا نفع؛ فتجبُ مداراتُه إلى الخلاصِ منه، وفي مشاهدتِه فائدةٌ عظيمةٌ إن وُفِّقتَ لها، وهي أن تشاهدَ من خبائثِ أحوالِه وأفعالِه ما تستقبحُه فتجتنبُه؛ فالسعيدُ مَن وُعِظ بغيرِه، والمؤمنُ مِرآةُ المؤمن، وقيل لعِيسى عليه السلام: مَن أدَّبك؟ فقال: ما أدَّبني أحدٌ، ولكن رأيتُ جهلَ الجاهلِ فاجتنبتُه. ولقد صدق ـ على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ـ فلو اجتَنب الناسُ ما يَكرَهونه من غيرِهم لكمُلت آدابُهم واستغنَوا عن المؤدِّبين.



قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٥٤] ويَمنَعُــوهُ كَــثرَةَ الــكَلَامِ لِأَنَّــهُ مِــن عَادَةِ اللِّئَــامِ
[٥٥] أيضًا وَمِن أن يَبتَـدِي خِطَابَا إلَّا يَكُــونُ قَــولُهُ جَوابَــا
[٥٦] ثُــمَّ اليَمِــينُ يَمنَعُــوهُ مِنهَــا بَتًّــا دَوامًــا دَهــرَهُ يَدَعْهَــا
[٥٧] وجُملَــةُ الأشــعَارِ والأغَانِي يُمنَــعُ مِنهَــا دَائمَــ الزَّمَــانِ
[٥٨] والبَصــقُ والمُخَــاطُ والتَّنَخُّمُ عِندَ الجَلِيــسِ لَا عَلَيــهِ يُقدِمُ
[٥٩] واللَّعنُ والسَّــبُّ وشَتمُ النَّاسِ والاختِــلَاطُ بِــذَوِي الأدنَاسِ

الشرح:

وينبغي تأديبُه في هذه السنِّ على:

١ ـ آداب الكلام؛ لكثرةِ مخالطتِه لغيرِه، وانتقالِه في هذه السنِّ إلى بيئاتٍ جديدةٍ خارجَ بيتِه ومكتبِ قُرآنِه؛ كالمدرسةِ والأسواق، وذكَر من تلك الآدابِ أربعة:

أ ـ منعَه من كثرةِ الكلامِ،

ب ـ ومن أن يبتدئ كلامًا، بل يكونُ في حديثِه كالمجيبِ لغيرِه،

ج ـ وتحذيرَه من التجرُّؤِ على القَسَم، وضربَه على ذلك وعلى الوفاءِ بها،

د ـ ويحذِّرُه أيضًا من أن يشدوَ بأشعارِ الغناءِ والفسوق.

٢ـ ويعوِّده:

أ ـ حُسنَ المنطق؛ كألفاظِ النِّداء: يا عمّ،

ب ـ وأدبَ الاستئذان: أستأذِنُك، من فضلِك، لو سمحتَ، وكلماتِ الشكرِ،

ج ـ وعباراتِ الردِّ على الهاتف،

د ـ وأدبَ استقبالِ الضيوف، والابتسامةَ.

٣ـ وآدابَ المجالسِ والمخالطة، وذكَر منها الناظمُ أربعة:

أ ـ تجنُّبَ ما يؤذِي الجليسَ مما يَستقذِر؛ كالبصقِ والتنخُّم،

ب ـ واللعِبِ بأنفِه،

ج ـ وتركَ الكلامِ البذيءِ الفاحش؛ من سبٍّ وشتمٍ ولعن؛ فلا يجعلُ لسانَه يعتادُ عليه،

د ـ وتركَ مخالطةِ مَن تُعدِي مخالطتُه بالعاداتِ السيئةِ في الأقوالِ والأفعالِ.

آفات الثرثرة وكثرة الكلام والفضول:

روى الترمذيُّ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، أنّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: «إنّ من أحَبِّكُم إليَّ وأقرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيامةِ أحاسِنَكُم أخلاقًا، وإنّ أبغَضَكُم إلَيَّ وأبعَدَكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيامةِ الثَّرثارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ والمُتَفَيهِقُونَ»، قالُوا: يا رَسُولَ الله، قَد عَلِمنا الثَّرثارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ، فَما المُتَفَيهِقُونَ؟ قال: «المُتَكَبِّرُونَ».

الألفاظ:

الثَّرثـار: هو كثيرُ الـكلامِ تكلُّفًا وخروجًا عن الحقّ، والثرثرة: كثرةُ الكلامِ وترديدُه[(١)].

المُتشـدِّق: هو المتطـاوِلُ على الناسِ بكلامِه، ويتكلَّـمُ بملءِ فيه تفاصُحًا وتعظُّمًا بكلامِه، وهو الذي يوسِّعُ شِدقَيه ويملؤهما بالكلامِ[(٢)].

المُتفيهِـق: أصلُـه من الفَهق، وهـو امتلاءُ الغديرِ بالماءِ حتـى لا يكونَ فيه موضـعُ مزيد، والمتفيهق: هو الذي يملأُ فمَه بالكلام، ويتوسَّـعُ فيه ويُغرِبُ به تكبُّرًا وارتفاعًا وإظهارًا لفضلِه على غيرِه[(٣)].

المعنـى: الخُلـقُ حـالٌ للنفسِ تَصـدرُ عنها الأفعـالُ بلا رويّـةٍ ولا تكلُّفٍ كالسـخاء، فإن كانت تلك الحالُ بحيث تصدرُ عنها الخيرات، فالخُلقُ فاضلٌ وحسنٌ كالصدق.

روى الترمذيُّ عن عبدِ الله رحمه الله تعالى في تفسيرِ حُسنِ الخُلقِ، قال: هـو طلاقـةُ الوَجه، وبذلُ المعروفِ، من الأمـرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، والنصيحـةُ بالكلمةِ الطيبةِ باللسـان، وكـفُّ الأذى من قولٍ وفعـلٍ عن الناس، واحتمـالُ المكـروهِ الـذي ينزلُ به، بحسـنِ المـداراة، وتحمُّـلِ الأذى من غيرِ إفراطٍ ولا تفريط.

---

(١) النهاية (٢: ٤٥٣)، وشرح المشكاة للطيبي (١٠: ٣١٠٦).
(٢) انظر: كتاب رياض الصالحين، للنووي.
(٣) المرجع السابق.

قال بعض البُلَغاء: الحسَنُ الخُلقِ من نفسِه في راحة، والناسُ منه في سلامةٍ، والسيئُ الخُلقِ الناسُ منه في بلاءٍ، وهو من نفسِه في عَناء[1].

وقال بعض الحُكماء: عاشِر أهلَك بأحسَنِ أخلاقِك؛ فإنّ الثواءَ فيهم قليلٌ. فإذا حسُنت أخلاقُ الإنسانِ كثُر مُصافوه، وقلَّ مُعادوه، فتسهَّلت عليه الأمورُ الصعاب، ولانت له القلوبُ الغضاب.

وقد رُوي عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أنّه قال: «حُسنُ الخُلقِ وحسنُ الجوارِ يُعمِران الديارَ، ويزيدان في الأعمار».

لذلك كلِّه بيَّن رسولُ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم في هذا الحديثِ أنّ مَن حسُنت أخلاقُه كان أقربَ الناسِ إليه يومَ القيامة.

فإنّ الخُلقَ القويمَ من أقوى دعائمِ إعدادِ الأمَّة؛ لأنّ النفوسَ الضعيفةَ في أخلاقِها، المختلّةَ في كيانِها، تُثيرُ الفوضى في أحكمِ النُّظُم، وتزلزلُ بفسادِ أخلاقِها أركانَ أفضلِ مجتمع، فإذا لم تَصلُحِ النفوسُ أظلمَت الآفاق، وعمَّت الفتنُ حاضرَ الناسِ ومُستقبلَهم، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

فالأمَّةُ لا تصلحُ أحوالُها، ولا تلتئمُ أمورُها، إلا إذا أُسِّس بُنيانُها على الخُلقِ الحسنِ القويم.

ثم انتَقل الحديثُ إلى التحذيرِ من سقطاتِ اللسان، وهفواتِ الكلام.

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي.

وذلك لأنّ اللسان:

من نِعَمِ الله تعالى العَظِيمة،
ولطائفِ صُنعِه الغَرِيبة،
وله في الخيرِ مجالٌ،
وفي الشرِّ مَيدانٌ،
ولا ينجو من شرِّ اللسانِ إلا مَن قيَّده بلجامِ الشرعِ،
فلا يُطلِقُه إلا فيما يَنفعُه،
ويكفُّه عن كلِّ ما يُخشى غائلتُه.
وهو أعصى الأعضاءِ على الإنسانِ؛
لأنّه لا تعبَ في إطلاقِه،
ولا مؤونةَ في تحريكِه،
وقد تساهَل الناسُ في الاحترازِ عن آفاتِه،
والحذرِ عن مصايدِه وحبائلِه.
لذلك جاء الحديثُ محذِّرًا عن شطحاتِه وسقطاتِه؛
ليسلمَ للمسلمِ عِرضُه، وينجوَ من آثامِه بدينِه.
فحذَّر الرسولُ صلوات الله عليه من الثرثرةِ والتشدُّق،
وحثَّ على الصمتِ والتعقُّل؛
لأنّ الكلامَ ترجمانٌ يعبِّرُ عن مستودعاتِ الضمائرِ،
ويخبرُ بمكنوناتِ السرائرِ.
لا يمكنُ استرجاعُ بوادرِه،
ولا يقدرُ على ردِّ شواردِه.

فحقٌّ على العاقلِ أن يحترزَ من زللِـه، بالإمساكِ عنه، والإقلالِ منه.

رُوي عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أنّه قال: «رحِم الله مَن قال خيرًا فغَنِم، أو سـكَت فسَـلِم»[(١)]، وقال صلَّـى الله عليه وآلِه وسـلَّم لمعاذٍ رضي الله عنه: «يا معاذُ، أنت سالمٌ ما سكتَّ، فإذا تكلَّمتَ فعليك أو لك»[(٢)].

وقال عقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه فيما رواه الترمذيُّ: قلت: يا رسولَ الله، ما النجاةُ؟ قال: «أمسِك عليك لسانَك، وليَسَعك بيتُك، وابكِ على خطيئتِك»[(٣)].

وروى أبو نُعيـمٍ فـي «الحليـة» من حديـثِ ابنِ عمرَ رضـي الله عنهما عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَن كثُر كلامُه كثُر سقطُه، ومَن كثُر سقطُه كثُرت ذنوبُه، ومَن كثُرت ذنوبُه كانت النارُ أولى به»[(٤)].

وللَّسانِ آفاتٌ كثيرة:

الآفـة الأولى: الـكلامُ فيما لا يَعني، فإنّ في ذلك مَضيعـةً للزمن، وتبديدًا للوقت، وزجًّا بالنفسِ في مضايقَ قد تُهلكُها، وتجرُّ الويلَ لها.

ففي الحديثِ: أنّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسـلَّم فقدَ كعبًا رضي الله عنه فسأل عنه، فقالوا: مريضٌ، فخرَج يمشي حتى أتاه، فلمّا دخَل عليه قال: «أبشِر

(١) أخرجه الشهاب في مسنده عن الحسن مرسلًا (١: ٣٣٨) (٥٨١).
(٢) تحفـة الأحوذي، باب ما جاء في حرمـة الصلاة (٧: ٣٦٢) برقم (٢٧٤٩). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤: ١٤٨).
(٤) أخرجه أبُو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسـند ضعيف، وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة العُقلاء، والبيهقيّ في الشّعب موقُوفًا على عمر بن الخطاب.

يا كعبُ»، فقالت أمُّه: هنيئًا لك الجنّةُ يا كعبُ، فقال صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «مَن هذه المُتألِّيةُ على الله؟» أي: التي تحلفُ بالله فتحكمُ عليه، قال: هي أُمِّي يا رسولَ الله، قال: «وما يُدرِيكِ يا أُمَّ كعبٍ؟ لعل كعبًا قال ما لا يَعنِيه أو مَنَع ما لا يعنيه»(١).

ومعناه: أنّه إنّما تتهيَّأ الجنّةُ لمَن لا يُحاسَب، ومَن تكلَّم فيما لا يَعنيه حُوسِب عليه، فلا تتهيَّأُ الجنّةُ مع المناقشةِ في الحساب، فإنّه نوعٌ من العذابِ.

الآفة الثانية: فضولُ الكلام، والخوضُ في الباطل؛ قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال عمرُو بنُ دِينار: تكلَّم رجلٌ عند النبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم فأكثَر، فقال له صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «كم دون لِسانِك من حجاب؟» فقال: شفتاي وأسناني، فقال: «أفما كان لك في ذلك ما يَردُّ كلامَك؟!»(٢).

وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جُلساءه يهوي بها أبعَدَ من الثريا»(٣).

وقال صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «أعظمُ الناسِ خطايا يومَ القيامةِ أكثَرُهم

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٠١٧) مطولًا، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٢٣) كلاهما بلفظه، والترمذي (٢٣١٦) بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنيا هكذا مُرسلًا ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٠٩) قال: حدثنا علي بن إسحاق. وابن حبان (٥٧١٦) قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد، قال: حدثنا عبد الوارث بن عُبيد الله العتكي.

خوضًا في الباطل»[(١)]، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وبقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾ [النساء: ١٤٠].

الآفة الثالثة: التقعُّرُ في الكلامِ بالتشدُّقِ والتكلُّف، والتصنُّعِ المذموم، والتفاصُحِ الممقوت. روى مسلمٌ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: قال صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «ألا هلَك المتنطِّعون»، ثلاثَ مراتٍ. والتنطُّع: هو التعمُّقُ والتكلُّف.

وجاء عمرُو بنُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رضي الله عنهما إلى أبيه يسألُه حاجةً، فتكلَّم بين يدَي حاجتِه بكلام، فقال له سعد: ما كنتَ من حاجتِك بأبعَدَ منك اليومَ، إنّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم يقول: «يأتي على الناسِ زمانٌ يتخلَّلون الكلامَ بألسنتِهم كما تتخلَّلُ البقرةُ الكلأ بلسانِها»[(٢)].

فإنّ التكلُّفَ في الكلامِ والتشدُّقَ به من مَظاهرِ العُجب، وقد نَهى الدينُ عن العُجبِ والخُيَلاءِ لما فيهما من الغرورِ الذي يُخفِي عن صاحبِه عيوبَه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدُّنيا من حديث قتادة مُرسلًا ورجاله ثقات، ورواهُ هو والطبرانيّ موقُوفًا على ابن مسعُود بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة عن سعد، وأخرجه أيضًا ابن أبي الدنيا في الصمت (ص١١٠) (١٤٩)، وأخرجه الإمام أحمد.

عن أبي ذرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه أنّه قال: يا رسولَ الله، ما كان في صحفِ إبراهيمَ عليه السلام؟ قال: «كان فيها: ينبغي للعاقلِ ـ ما لم يَكُن مغلوبًا على عقلِه ـ أن يكونَ حافظًا للسانِه، عارفًا بزمانِه، مُقبلًا على شأنِه، فإنّه مَن حَسِب كلامَه من عملِه قلَّ كلامُه إلا فيما يَعنيه».

وعن لقمانَ عليه السلام أنّه قال لابنِه: يا بُنَي، مَن يَصحَب صاحبَ السوءِ لا يَسلَم، ومَن يَدخُل مَدخَلَ السوءِ يُتَّهم، ومَن لا يَملِك لسانَه يَندَم.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أنّه قال: «إذا أصبَح ابنُ آدمَ فإنّ الأعضاءَ كلَّها تكفِّرُ للّسانِ ـ التكفيرُ: الخضوعُ والانقيادُ ههنا ـ تقول: اتَّقِ الله فينا، فإنّما نحن بك، فإن استَقمتَ استَقمنا، وإن اعوجَجتَ اعوجَجنا»[1].

الآفة الرابعة: الكفر القولي.

يقول الحافظُ ابنُ رجب: «فإنّ معصيةَ النطقِ يدخلُ فيها الشركُ وهو أعظمُ الذنوبِ عند الله عز وجل، ويدخلُ فيها القولُ على الله بغيرِ علمٍ.

أنواعِ الكفرِ وأحكامُ الردّةِ:

الردّةُ هي قطعُ الإسلامِ، وتنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: أفعالٍ وأقوالٍ واعتقاداتٍ، كما اتَّفقَ على ذلك أهلُ المذاهبِ الأربعةِ وغيرُهم، كابنِ عابدين (ت١٢٥٢هـ) وغيرِه من الحنفيّة، ومحمد عليّش (ت١٢٩٩هـ) وغيرِه من المالكيّة، والنوويِّ (ت٦٧٦هـ) وغيرِه من الشافعيّة، والبُهوتيِّ (ت١٠٥١هـ) وغيرِه من الحنابلة.

---

(١) رواه الترمذي (ت) وابن خزيمة (هب) عن أبي سعيد (صح).

وكلٌّ من الثلاثةِ كفرٌ بمفردِهِ، فالكفرُ القوليُّ كفرٌ ولو لم يَقترِن به اعتقادٌ أو فعلٌ، والكفرُ الفِعليُّ كفرٌ ولو لم يَقترِن به قولٌ أو اعتقادٌ أو انشراحُ الصَّدرِ به، والكفرُ الاعتقاديُّ كفرٌ ولو لم يَقترِن به قولٌ أو فعلٌ، وسواءٌ حصولُ هذا من جاهلٍ بالحكمِ أو هازلٍ أو غضبان؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الرَّجلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ لا يَرى بها بأسًا يهوِي بها سبعينَ خريفًا في النارِ». رواه الترمذيُّ وحسَّنه، وفي معناه حديثٌ رواه البُخاريُّ ومسلمٌ.

وقال الإمامُ المجتهدُ محمدُ بنُ جريرٍ الطَّبَريُّ (ت٣١٠هـ) في كتابه «تهذيب الآثار»: «إنّ من المسلِمين مَن يخرجُ من الإسلامِ من غيرِ أن يقصدَ الخروجَ منه».

وقال الحافظُ الكبيرُ أبو عوانةَ (ت٣١٦هـ) الذي عَمِل مُستخرجًا على مسلم، فيما نقَله عنه الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري»: «وفيه: أنّ من المسلِمين مَن يخرجُ من الدينِ من غيرِ أن يقصدَ الخروجَ منه، ومن غيرِ أن يختارَ دينًا على دينِ الإسلامِ»(١).

وفي «التوضيحِ في شرحِ المختصرِ الفرعيِّ لابنِ الحاجب» لخليلِ بنِ إسحاقَ بنِ موسى ضياءِ الدينِ الجنديِّ المالكيِّ المصريِّ (ت٧٧٦هـ): «الرِّدّةُ الكُفرُ بعد الإسلامِ، وتَكُونُ بصَريحٍ، وبلَفظٍ يَقتَضِيه، وبفِعلٍ يَتضَمَّنُه.

---

(١) فتح الباري (١٢: ٣٠١، ٣٠٢).

حـدُّ المصنفِ الردةَ ظاهرُ التصوُّرِ، ونسـألُ الله العظيـمَ بجاهِ النبيِّ الكريمِ أن يَعصِمَنا منها، وأن يُميتَنا على الإسـلامِ وهو راضٍ عنّا، وأن يَقلَعَ من قلوبِنا رعوناتِ البشريةِ.

قولـه: «وتَكُـونُ»؛ أي: الـردّةُ، ويجوزُ أن تُقرَأ باليـاءِ المثناةِ من تحت، تعودُ حينئـذٍ على الكفرِ الصريحِ كالكفرِ بالله وبرسـولِه، واللفظِ الذي يقتضيه كجحدِ الصـلاةِ والصـومِ وما عُلم من الدينِ ضرورةً، أو ادَّعى أنّ للنجومِ تأثيرًا، والفعلُ المضمَّنُ قالوا: كإلقاءِ المصحفِ في القاذوراتِ وتلطيخِ الكعبةِ بها وشدِّ الزُّنّارِ ببلادِ الإسلام، والسجودِ للصنم، ونقَل ابنُ عبدِ السلام، وابنُ راشدٍ عن القَرافي، أنّ الخطيـبَ إذا جـاءه مَـن يريـدُ النطـقَ بكلمةِ الإسـلامِ، فقال: اصبِـر حتى أقرَأَ خُطبتي، أنّه يُحكَمُ بكفرِ الخطيبِ؛ لأنّ ذلك يقتضي أنّه أراد بقاءه على الكفرِ».

وقـال الشـيخُ عبدُ الله بنُ الحسـينِ بنِ طاهرِ الحَضرَمـيُّ (ت١٢٧٢هـ) في كتابِه «سُلَّم التوفيقِ إلى محبةِ الله على التحقيق»: «يجبُ على كلِّ مسلمٍ حفظُ إسـلامِه وصونُـه عمّا يفسـدُه ويبطلُـه ويقطعُه، وهو الـرّدةُ والعيـاذُ بالله تعالى، وقد كثُرَ في هذا الزمانِ التسـاهلُ في الكلامِ حتى إنّه يخرجُ من بعضِهم ألفاظٌ تُخرِجُهم عن الإسلامِ ولا يَرَونَ ذلك ذنبًا فضلًا عن كونِه كفرًا».

أقسام الكفر مع أمثلة:

١ـ الكفرُ الاعتقاديُّ: مكانُهُ القلبُ.

ـ كنفـي صفـةٍ من صفـاتِ الله تعالى الواجبةِ لـه إجماعًا؛ كوجـودهِ وكونهِ قادرًا وكونهِ سميعًا بصيرًا.

ـ أو اعتقادِ أنّه نورٌ بمَعنى الضوءِ أو أنّه رُوحٌ.

قـال الشـيخُ عبدُ الغنـيّ النابُلسـيّ[١]: «مَـن اعتقـدَ أنّ الله ملأَ السـماواتِ والأرضَ، أو أنّه جسمٌ قاعدٌ فوقَ العرشِ فهو كافرٌ وإن زعمَ أنّه مسلمٌ».

وكاعتقادِ حلالٍ أنّه حرامٌ؛ نَحوَ شُربِ الخمرِ أو الزِّنا أو نكاحِ المحارمِ أو اعتقـادِ عدمِ وجوبِ الصلواتِ الخمسِ المفروضـاتِ أو صومِ رمضانِ، ونفيِ يومِ القيامةِ والبعثِ والحشرِ والجنةِ والنارِ[٢].

٢ـ الكفرُ الفعليُّ:

ـ كإلقـاءِ المصحـفِ فـي القـاذوراتِ، قـال ابنُ عابدينَ[٣]: ولو لـم يَقصِد الاستخفافَ؛ لأنّ فعلَه يدلُّ على الاستخفافِ.

أو أوراقِ العلومِ الشرعيةِ، أو أيِّ ورقةٍ عليها اسمٌ من أسماءِ الله تعالى معَ العلمِ بوجودِ الاسمِ فيها.

ومَـن عَلَّـقَ شِـعارَ الكفـرِ على نفسِـه، فـإن كان بنيـةِ التبـرُّكِ أو التعظيمِ أو الاستحلالِ من غيرِ ضرورةٍ كان مُرتدًّا.

٣ـ الكفرُ القوليُّ:

كمَن يشتمُ الله تعالى بقوله والعياذُ بالله من الكفر:

كسابِّ الربِّ.

أو لَعنِ الربِّ أو الخالقِ.

---

(١) الفتح الرباني (ص١٢٤).

(٢) انظر: كتاب نور المشكاة في أحكام الطهارة والصلاة، لشيخنا الدكتور أمجد رشيد حفظه الله تعالى ونفعنا بعلومه في الدارين آمين.

(٣) رد المحتار (٤: ٢٢٢).

أو قال: بلعنةِ أختِ رَبِّك.

أو: ابنُ الله، يقعُ الكفرُ هنا ولو لم يَعتقِد أنّ لله أختًا أو ابنًا.

ولو نادى مسلمٌ مسلمًا آخرَ بقوله: يا كافرُ، بلا تأويلٍ كفَر القائلُ؛ لأنّه سمّى الإسلامَ كفرًا.

ويكفرُ مَن يقولُ للمسلمِ: يا يهوديُّ، أو أمثالَها منَ العباراتِ بنيّةِ أنّه ليسَ بمسلمٍ، إلا إذا قَصَد أنّه يشبهُ اليهودَ فلا يكفُر.

ولو قال شخصٌ لآخرَ: «الله يظلِمُك كما ظلمتَني» كفَر القائلُ؛ لأنّه نسَب الظلمَ إلى الله تعالى، إلا إذا كان يفهَمُ أنّ معنى «يظلمُك»: ينتقمُ منكَ، فلا نُكفِّرُه بل ننهاهُ.

وكذلك يَكفرُ مَن يقولُ والعياذ بالله: «فلانٌ زاح ربّي»؛ لأنّ هذا فيه نسبةُ الحركةِ والمكانِ لله.

وكذلك يكفرُ مَن يقولُ والعياذ بالله: «قدّ الله» يقصِدُ المُماثلةَ.

وكذلك يكفرُ مَن نَسَبَ إلى الله جارحةً من الجوارحِ؛ لأنّها من صفاتِ المخلوقاتِ وتكونُ للأجسامِ، والله مُنزَّهٌ عن الجسميةِ سبحانه وتعالى.

وكذلك يكفرُ مَن يقولُ والعياذ بالله: «خَوت ربّي».

أو قال للكافر: «الله يكرمُك» بقصدِ أن يحبَّهُ الله كفَر؛ لأنّ الله تعالى لا يحبُّ الكافرِين؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وكذلكَ القولُ للكافرِ: «الله يَغفرُ لك»، إن قصَد أنّ الله تعالى يغفرُ له وهو على كفرِهِ إلى الموتِ.

وكذلك يكفرُ مَن قال لمَن ماتَ على الكفرِ: «الله يرحمُه» بقصدِ أن يريحَه في قبرِهِ لا بقصدِ أن يخفِّفَ عنه عذابَ القبرِ من غيرِ أن ينالَ راحةً، فإنّه إن قال ذلك بهذا القصدِ فيحتملُ أنّه لا يكفر.

ويكفرُ مَن يستعملُ كلمةَ الخلقِ مضافةً للناسِ في الموضعِ الذي تكونُ فيه بمعنى الإبرازِ من العدمِ إلى الوجودِ، كأن يقولَ شخصٌ ما: «اخلُق لي كذا كما خَلَقَك الله».

ويكفرُ مَن يشتِمُ عزرائيلَ عليه السلام كما قال ابنُ فَرحُونٍ في «تبصرةِ الحُكَّام»، أو أيَّ ملَكٍ من الملائكةِ عليهم السلام.

وكذلكَ مَن يقولُ: «أنا عايف الله»، أي: كرهتُ الله.

ويكفرُ مَن يقول: «الله لا يتحمَّلُ فلانًا» إذا فهِم العَجزَ أو أن الله يَنزعِجُ منه، أمّا إذا كان يفهمُ من هذه الكلمةِ أنّ الله يكرَهُه فلا يكفر.

وكذلكَ مَن يُسمِّي المعابدَ الدينيةَ للكفارِ «بيوتَ الله»، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: ٤٠] فالمرادُ به مَعابدُ اليهودِ والنصارى لَمّا كانوا على الإسلامِ؛ لأنّها كمساجدِ أمةِ محمدٍ؛ حيثُ إنَ الكلَّ بُني لتوحيدِ الله وتمجيدِه لا لعبادةِ غيرِ الله، فقد سمَّى الله المسجدَ الأقصى مسجدًا وهو ليسَ من بناءِ أمةِ محمدٍ. فليتَّقِ الله امرُؤٌ وليَحذَر أن يُسمِّيَ ما بُنِيَ للشركِ بيوتَ الله، ومَن لم يتَّقِ الله قال ما شاء.

وهناكَ بعضُ الشعراءِ والكُتّابِ يكتبُ كلماتٍ كفريةً، كما كتبَ أحَدُهُم: «هرَب الله»، فهذا من سوءِ الأدبِ مع الله المُوقِعِ في الكفرِ.

وقد قال القاضي عِياضٌ في كتابه «الشفا»: «لا خلافَ أنّ سابَّ الله تعالى من المسلمينَ كافرٌ» اهـ.

ويكفرُ مَن يستحسنُ هذه الأقوالَ والعباراتِ، وما أكثرَ انتشارَها في مؤلفاتٍ عديدةٍ!

وسوءُ الأدبِ مع الرسولِ ﷺ بالاستهزاءِ بحالٍ من أحوالِه أو بعملٍ من أعمالِه كفرٌ.

والاستهزاءُ بما كُتبَ فيه شيءٌ من القرآنِ الكريمِ، أو الأنبياءِ عليهم السلام، أو بشعائرِ الإسلامِ أو بحكمٍ من أحكامِ الله تعالى كفرٌ قطعًا.

وكذلكَ استحسانُ الكفرِ من غيرِهِ كفرٌ؛ لأنّ الرضا بالكفرِ كفرٌ.

ونلاحظُ أن أغلبَه موجودٌ ومتداوَلٌ بين الناسِ، فيجبُ تنبيهُ الناسِ وتعليمُهم وإنقاذُهم، وكل ما ذكرناه من وقوع الناس بالكفر؛ إذا كان عامدًا قاصدًا عالمًا بالتحريم، وإلا فلا يكفر بل يُعلم.

الآفة الخامسة: الغِيبة

الغِيبةُ ذِكرُك أخاك بما يكرهُ، سواءٌ أكان فيه ما تقولُ أم لم يكن، هكذا بيَّنها الحبيبُ الأعظمُ ﷺ، يقولُ عز وجل في مُحكَمِ تنزيلِه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

الغِيبةُ لها أسماءٌ ثلاثة كلُّها في كتابِ الله عز وجل: الغِيبةُ والإفكُ والبهتانُ. فإذا كان في أخيك ما تقولُ فهي الغِيبةُ.

وإذا قلتَ فيه ما بلَغك عنه فهو الإفكُ.

وإذا قلتَ فيه ما ليس فيه فهو البهتانُ[١].

هكذا بيَّن أهلُ العلمِ رحمهم الله أنّ الغيبةَ تشـملُ كلَّ ما يُفهَمُ منه مقصودُ الذمِّ[٢]، سواءٌ أكان بكلامٍ أم بغمزةٍ أم إشارةٍ أم كتابةٍ، وإنّ القلمَ لأَحدُ اللسانَين. والغِيبـةُ تكـونُ في انتقاصِ الرجلِ في دينِه وخَلقِه وخُلقِه وفي حَسـبِه ونَسـبِه، ومَن عاب صنعةً فإنما عاب صانِعَها.

يقول الحسـنُ رحمه الله: «والله لَلغيبةُ أسرعُ في دينِ الرجلِ من الأكَلةِ في الجسد».

عجبًـا لمَن ينتسـبُ لأهلِ الحـقِّ والإيمانِ كيف يركبُ مركـبَ الغِيبةِ وقد علم أنّ المبتلَى بها ذو قلبٍ متقلِّبٍ وفؤادٍ مُظلِمٍ؟!

ويشـتدُّ القبـحُ والجُرمُ، ويتعاظَـمُ الذنبُ والذم، حينما تصـدرُ الغِيبةُ ممن ينتسـبون إلى العلمِ والصلاحِ ويتزيَّنون بسـيماءِ أهلِ الزهـدِ والورعِ فيَجمعون في غيبتِهم بين تزكيةِ أنفُسِهم وذمِّ غيرِهم.

وقد يزيدُ البعضُ خبثَه فيقدِّمُ المدحَ لمَن يغتابُه حتى يُظهِرَ تنصُّلَه من الغِيبةِ فيقـول: كان مجتهـدًا فـي العبادةِ والعلـمِ والنزاهةِ والأمانةِ، ولكنّـه فتَر وابتُلي بما ابتُلينا به كلُّنا. ومن ذلك أن يقول: «سـاءني ما وقَع لصديقِنا من كذا وكذا، فنسألُ الله أن يُثبِّتَه» وهو كاذبٌ في ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي (١٦: ٣٣٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة (ص١٧٠).

وكم ترى من رجلٍ متورِّعٍ عن الفواحشِ والظلمِ ولسانُه يَفرِي في أعراضِ الأحياءِ والأمواتِ ولا يُبالِي بما يقولُ.

وقد جمعتُ كتابًا شاملًا لهذه الآفةِ، سمَّيتُه: «الغِيبة: آفاتُها وأهوالُها» فارجِع له؛ ففيه فوائدُ عظيمةٌ.

الآفة السادسة: الكذب

في خبرِ البخاريِّ عن النبيِّ ﷺ فيما حَدَّث به مما رآه من أنواع عذابِ أهلِ النارِ، فكان مما قال عليه الصلاة والسلام: «أمّا الذي رأيتُه يشقُّ شِدقَه فكذّابٌ يكذبُ الكذبةَ فتُحمَلُ عنه حتى تبلغَ الآفاقَ، فيُصنَعُ به ما رأيتُ إلى يومِ القيامةِ»(١).

مَن لَطَخ لسانَه برجسِ الكذبِ وخبيثِ الكلم لا بد أن تبدوَ سريرتُه، وينكشفَ أمرُه، فلا يَلقى من الناسِ إلا الازدراءَ والمَنقصةَ.

أما أهلُ الحقِّ والإيمانِ فيهديهم ربُّهم إلى الطيِّبِ من القول، ويهديهم إلى صراطِ الحميد. يقول عليٌّ رضي الله عنه: مَن كانت له عند الناسِ ثلاثٌ وجَبت له عليهم ثلاثٌ: مَن إذا حَدَّثهم صدَقهم، وإذا ائتَمنوه لم يَخُنهم، وإذا وعَدهم وَفَّى لهم؛ وجَبت عليهم أن تُحبَّه قلوبُهم، وتَنطلقَ بالثناءِ عليه ألسنتُهم، وتَظهرَ له معونتُهم(٢).

يقول عليه الصلاة والسلام: «إنّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنّ البرَّ يَهدِي إلى

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦).
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر (ص١٢٦).

الجنّةِ، وإنّ الرجلَ ليصدُقُ حتى يكونَ صدِّيقًا، وإنّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنّ الفجورَ يهدي إلى النارِ، وإنّ الرجلَ ليكذِبُ حتى يُكتَبَ عند الله كذّابًا»[(١)].

الكذب في المزاح والنكت:

لقد انتَشر بين الناسِ اليومِ نوعٌ من أنواعِ الكذبِ، وهو ما يُسمَّى بـ«النكت»، حيث يصطنعُ بعضُ الناسِ حكاياتٍ لا أصلَ لها عن جنسياتٍ أو أنسابٍ أو بلادٍ لأقوامٍ، وما ذاك إلا من أجلِ إضحاكِ الناسِ، وهذا أمرٌ محرَّمٌ جمَع بين الغِيبةِ لهؤلاء والكذبِ، وقد ورَد الوعيدُ الشديدُ عليه؛ يقولُ النبيُّ ﷺ: «ويلٌ للذي يُحدِّثُ بالحديثِ ليُضحِكَ به القومَ فيكذبَ، ويلٌ له ويلٌ له»[(٢)].

ما يُباحُ من الكذب:

في «الصحيح»: يقولُ رسولُ الله ﷺ: «ليس الكذّابُ الذي يُصلِحُ بين الناسِ فيَنمِي خَيرًا أو يقولُ خيرًا».

وفيه عن الزُّهريِّ قال: «ولم أسمَع يُرخَّصُ في شيءٍ مما يقولُ الناسُ كذبٌ إلا في ثلاث: الحربِ، والإصلاحِ بين الناس، وحديثِ الرجلِ امرأتَه، وحديثِ المرأةِ زوجَها»[(٣)].

الآفة السابعة: الكلامُ بالباطلِ، والسكوتُ عن الحقِّ

اللسانُ فيه آفتان عَظِيمتان،

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، لمحمد فؤاد عبد الباقي (٣: ١٩٨).
(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٥).

إن خلَص من إحداهما لم يَخلُص من الأخرى:

آفةُ الكلامِ،

وآفةُ السكوتِ.

وقد يكونُ كلٌّ منهما أعظمَ إثمًا من الأخرى في وقتِها؛ فالساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرسُ عاصٍ لله مُراءٍ مُداهنٌ إذا لم يَخَف على نفسِه، والمتكلِّمُ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله، وأكثرُ الخَلقِ منحرفٌ في كلامِه وسكوتِه، فهم بين هذين النوعَين.

وأهلُ الوسطِ - وهم أهلُ الصراطِ المستقيمِ - كَفُّوا ألسنَتَهم عن الباطلِ وأطلَقوها فيما يعودُ عليهم نفعُه في الآخرةِ.

الآفة الثامنة: شهادة الزور

قال سبحانه مُثنيًا على صِنفٍ من عبادِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد تَرجَم البُخاريُّ رحمه الله في «صحيحه» بابًا قال فيه: «بابٌ لا يَشهَدُ على شهادةِ جَورٍ إذا أُشهِد»(١).

وعن عَبدِ الله بنِ عَمرِو بن العاصِ رضي الله عنهما قال: جاء أعرابيٌّ إلى

(١) صحيح البخاري (٣: ١٧١).

النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراكُ بالله». قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوقُ الوالدَين». قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمينُ الغموس». قلت: وما اليمينُ الغَموس؟ قال: «الذي يقتطعُ مالَ امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ»(١).

واليَمينُ الغموسُ سُمِّيت بذلك لأنّها تغمسُ صاحبَها في الإثمِ ثم في النارِ، واختَلَفَ الفُقهاءُ هل يَجِبُ بها الكَفّارَةُ أم لا؟ فمَذهَبُ الشَّافِعِيِّ أنّ الكَفّارَةَ فِيها واجِبةٌ، ووُجُوبُها مُقتَرِنٌ بعَقدِها، وهو قَولُ عَطاءٍ والحَكَمِ والأوزاعِيِّ.

وقال أبُو حَنِيفَةَ: لا تَجِبُ به الكَفّارَةُ، وبه قال مالِكٌ، وسُفيانُ الثَّورِيُّ، واللَّيثُ بنُ سَعدٍ، وأحمَدُ(٢).

الآفة التاسعة: القذف

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠].

وهذه آفةٌ لا يكادُ يسلمُ منها اليومَ إلا مُوفَّقٌ؛ من كثرةِ مَن يقعُ فيها. إنّ قذفَ المؤمنين والمؤمناتِ في أعراضِهم أو دينِهم أو اتهامَهم بما هم منه بُرآءٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٠).

(٢) انظر: كتاب الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي للماوردي، وهو شرح مختصر المزني.

كلُّ ذلك بابٌ من الذنبِ عظيمٌ، وهو من الكبائرِ كما صحَّ في ذلك الخبرُ عن المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وقد بُلِينا اليومَ بألسنةٍ صارت تَرى تجريحَ المسلمِين والعلماءِ والصالحِين، وتَعدُو على أئمةِ المذاهبِ وتلاميذِهم، وطعَنوا بالذاكرِين وكفَّروا المُوحِّدِين، واتَّهموهم بالبدعةِ والضلالةِ، وحكَموا على نوايا الناسِ واعتقاداتِهم، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله، بل واتَّهموا المجاهِدين والشهداءِ وطعَنوا في عقائدِهم، وحرَّموا الصلاة عليهم، وحسبُنا الله ونِعمَ الوكيلُ.

أخرَج عبدُ الرزاقِ في «تفسيره»: عن قتادةَ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠١] الآيةَ، قال قتادة: ما بالُ أقوامٍ يتكلَّفون عِلمَ الناس؟! فلانٌ في الجنةِ وفلانٌ في النارِ، فإذا سَألتَ أحدَهم عن نفسِه قال: لا أدري!! لعمري أنت بنفسِك أعلمُ منك بأحوالِ الناسِ، ولقد تكلَّفتَ شيئًا ما تكلَّفه الأنبياءُ قبلك، قال نبيُّ الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نَبيُّ الله شعيبٌ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠١][١].

ملحوظة:

ومن القذفِ السِّبابُ والشتمُ، حتى صار بين بعضِ الشبابِ من بابِ المُزاحِ الطعنُ بالعِرضِ بالأمِّ أو الأختِ: يا ابنَ الفاعلةِ، ويا أخو الفاعلةِ. إلى غيرِ ذلك.

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (١: ٢٥٣)، وعنه ابن كثير (٤: ٢٠٤).

وذاك يسمعُ الطعنَ في أُمِّه ويضحكُ وإن كان سبّابًا يسبُّ عليه بالمثلِ، وكلُّ ذلك محرَّمٌ.

الآفة العاشرة: الحلف بغير الله تعالى

الحلفُ بغيرِ ذاتِ الله وصفاتِه؛ كالنبيِّ، والكعبةِ مكروهٌ، وقيل: يحرمُ على قولٍ، والأوّلُ أصحُّ، ويُكرَهُ الإكثارُ من الحلفِ بالله.

ولا ينبغي أن يحلفَ[(١)].

وفي «الصحيح»: «مَن كان حالفًا فليَحلِف بالله أو ليَصمُت»[(٢)].

الآفة الحادية عشرة: السب والشتم والسخرية بالمؤمنين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فإيّاك ثم إيّاك أن تشتمَ مسلمًا أو تَغمِزَه أو تَلمِزَه، مهما كانت مكانتُه أو جنسيتُه؛ فإنّ عقدَ الإسلامِ يحرِّمُ عليك ذلك.

الآفة الثانية عشرة: اللعن

عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنّ اللَّعّانِين لا يَكُونُونَ شُفَعاءَ، ولا شُهَداءَ يومَ القِيامةِ». صحيح، رواه مسلم.

---

(١) الغاية في اختصار النهاية، لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (٧: ٣٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦) باختلاف يسير.

الشرح:

فـي الحديـثِ التحذيرُ من كثـرةِ اللَّعن، وأنَّ مَن يُكثِـرُ اللَّعنَ ليس له منزلةٌ عند الله تعالى، ولا تُقبَلُ شـفاعتُهم في الدُّنيا؛ لأنّهم غيرُ عُدولٍ، والشَّـهادةُ لا تُقبَلُ إلا من العدل، ولا تُقبَلُ شفاعتُهم في إخوانِهم لدخولِ الجنّةِ ولا شهادتُهم في الآخرة، وأيضًا لا تُقبَلُ شـفاعتُهم على الأممِ السـابقةِ في أنّ رسُـلَهم بلَّغوا الرسالة.

ومن فوائد الحديث:

تحريمُ اللَّعن، وأنّ كثرتَه من كبائرِ الذنوب.

نفيُ النبيِّ ﷺ عن مُكثِرِ اللَّعنِ قبولَ شـهادتِه بالتنبيهِ أنّ كَثِيرَ اللَّعنِ فاسـقٌ؛ لأنّ شـهادةَ المؤمـنِ مقبولةٌ وشـهادةَ الفاسـقِ مـردودة، وكثيـرُ اللَّعنِ شـهادتُه مردودة.

إثباتُ شفاعةِ المؤمنِين يومَ القيامةِ.

معاني بعض المفردات:

اللَّعّانين: جمعُ لَعّان، واللعنُ: هو الطردُ والإبعادُ من رحمةِ الله، واللَّعّان: هو كثيرُ اللَّعنِ.

شُفَعاء: جمعُ شفيعٍ، والشفيعُ هو الذي يُعِينُ صاحبَهُ في تحصيلِ مطلبِهِ.

شُهَداء: جمعُ شهيدٍ، بمعنى شاهدٍ.

يوم القيامة: هو يومُ البعث، سُمِّي بهذا لأنّ الناسَ تقومُ من قبورِهم، وقيل: غيرُه.

وعن أبي الدرداءِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ العبدَ إذا لعَن شيئًا صعِدت اللعنةُ إلى السماءِ فتُغلَقُ أبوابُ السماءِ دونها، ثم تهبطُ إلى الأرضِ فتُغلَقُ أبوابُها دونها، ثم تأخذُ يمينًا وشمالًا فإذا لم تَجِد مساغًا رجعَت إلى الذي لُعِن، فإن كان كذلك أهلًا وإلا رجعَت إلى قائلِها»(١).

الآفة الثالثة عشرة: المزاح

والمنهيُّ عنه المذمومُ منه هو المداومةُ عليه والإفراطُ فيه، فأمّا المداومةُ فلأنّه يكونُ أحيانًا طريقًا لكلمةِ الردّةِ،

وطريقًا للعداوةِ بين الناسِ،

واشتغالًا باللعبِ والهزلِ.

وأمّا الإفراطُ فيه فإنّه:

يُورِثُ كثرةَ الضحكِ،

والضغينةَ في بعضِ الأحوالِ،

ويُسقِطُ المهابةَ والوقارَ.

وأمّا ما يخلو عن هذه الأمورِ فلا يُذَمُّ، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «إنّي لَأمزحُ ولا أقولُ إلا حقًّا». إلا إنّ مثلَه يَقدِرُ على أن يمزحَ ولا يقولُ إلا حقًّا، وأمّا غيرُه إذا فتَح بابِ المزاحِ كان غرضُه أن يُضحِكَ الناسَ كيفما كان.

وقد قال عمر: «مَن مزَح استُخِفَّ به».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٦٢) واللفظ لهما، والبزار (٤٠٨٤) باختلاف يسير.

وقال سعيدُ بنُ العاصِ لابنِه: «يا بُنَي، لا تُمازِحِ الشريفَ فيحقدَ عليك، ولا الدنيءَ فيجترئَ عليك».

وقيل: «لكلِّ شيءٍ بذر، وبذرُ العداوةِ المزاحُ»، ويقال: «المزاحُ مَسلبةٌ للنُّهى، مقطعةٌ للأصدقاءِ».

ومن الغلطِ العظيمِ أن يَتخذَ المزاحَ حِرفةً يُواظِبُ عليه، ويُفرِطَ فيه، ثم يَتمسَّكَ بفعلِ الرسولِ ﷺ، وهو كمَن يدورُ نهارَه مع الزنوجِ ينظرُ إليهم وإلى رقصِهم، ويتمسَّكُ بأنّ رسولَ الله ﷺ أذِنَ لعائشةَ في النظرِ إلى رقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ، وهو خطأٌ.

وبالجملةِ: فإن كنتَ تقدرُ على أن تمزحَ، ولا تقولُ إلا حقًّا، ولا تؤذِي قلبًا، ولا تُفرِطُ فيه، وتقتصرُ عليه أحيانًا على الندورِ ـ فلا حرجَ عليك فيه.

ومن مُطايَباتِه ﷺ ما رُوي أنّ عجوزًا أتَته، فقال لها: «لا يدخلُ الجنةَ عجوز»، فبَكت، فقال لها: «إنّك لست بعجوزٍ يومئذ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٦]».

وجاءت امرأةٌ إليه ﷺ فقالت: إنّ زوجي يدعوك. قال: «ومَن هو؟ أهو الذي بعينه بَياضٌ؟» قالت: والله ما بعينِه بياضٌ، قال: «بلى إنّ بعينه بياضًا»، فقالت: لا والله. فقال ﷺ: «ما من أحدٍ إلا وبعينِه بياضٌ»(١). وأراد بالبياضِ المحيطَ بالحدَقةِ.

وجاءت امرأةٌ أخرى فقالت: يا رسولَ الله، احمِلني على بعيرٍ، فقال: «بل

(١) تنبيه الخواطر (١: ١١٢).

نحملُك على ابنِ البعيرِ». فقالت: ما أصنَعُ به؟! إنّه لا يحملُني. فقال ﷺ: «ما من بعيرٍ إلا وهو ابنُ بعيرٍ»[(١)].

وقال أنسٌ: كان لأبي طلحةَ ابنٌ يُقال له: أبو عُمَيرٍ، وكان رسولُ الله يأتِيهم ويقول: «أبا عُمَير، ما فَعَل النُّغَير[(٢)]؟». النُّغيرُ كان يلعبُ به، وهو فرخُ العصفور.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: خرَجتُ مع رسولِ الله ﷺ في غزوةِ بدرٍ، فقال: «تَعالَي حتى أُسابِقَك». فشَدَدتُ علَيَّ دِرعي، ثم خَطَطنا خطًّا فقُمنا عليه واستَبَقنا، فسَبَقني وقال: «هذه مكانَ ذي المجازِ»[(٣)]. وذلك أنّه جاء يومًا ونحن بذي المجازِ وأنا جاريةٌ، فقد بعَثني أبي بشيءٍ، فقال: «أعطِينيه»، فأبيتُ وسَعيتُ، وسَعى في أثَري فلم يُدرِكني.

وقالت أيضًا: كان عندي رسولُ الله ﷺ وسَودةُ بنتُ زمعةَ، فصنعتُ خزيرًا وجئتُ به، فقلت لسَودةَ: كُلِي. فقالت: لا أُحبُّه. فقلت: والله لتَأكُلِنَّ أو لَأُلَطخنَّ به وجهَك. فقالت: ما أنا ذائقتَه. فأخذتُ بيدي من الصحفةِ شيئًا منه فلطختُ به وجهَها، ورسولُ الله جالسٌ بيني وبينها، فخفَض لها ركبتَه لتستقيد، فتناولتُ من الصحفةِ شيئًا فمسحتُ به وجهي، وجعَل رسولُ الله ﷺ يضحكُ.

وعن أبي سلمةَ: أنّه كان ﷺ يدلعُ لسانَه للحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما، فيَرى الصبيُّ لسانَه فيَهشُّ له.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وأحمد (١٣٨١٧) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، والترمذي (١٩٨٩)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٩٣) واللفظ لهم.

(٣) السنن الكبرى للنسائي (٨: ١٧٨).

وقال عُيَينةُ الفَزاريُّ: واللهِ ليكونَنَّ لي الابنُ قد تزوَّج وبقَل وجهُه وما قبَّلتُه قط. فقال ﷺ: «إنّ مَن لا يَرحَمُ لا يُرحَمُ».

فأكثرُ هذه المُطايَباتِ منقولةٌ مع النساءِ والصبيانِ، وكان ذلك منه ﷺ معالجةً لضعفِ قلوبِهنّ من غيرِ مَيلٍ إلى هزلٍ.

وقال ﷺ مرة لصُهَيبٍ وبه رمدٌ وهو يأكلُ تمرًا: «أتأكلُ التمرَ وأنت رَمِدٌ؟» فقال: إنّما آكلُ بالشقِّ الآخرِ يا رسولَ الله. فتبسَّم ﷺ. قال بعضُ الرواة: حتى نَظرتُ إلى نواجذِه.

وكان نُعَيمانُ الأنصاريُّ رَجلًا مَزّاحًا، لا يَدخلُ المدينةَ طُرفةٌ إلا اشترى منها ثم أتى بها النبيَّ ﷺ فيقول: يا رسولَ الله، هذا قد اشتَريتُه لك وأهديتُه لك. فإذا جاء صاحبُها يَتقاضاه بالثمنِ جاء به إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسولَ الله، أعطِه ثمنَ متاعِه. فيقول له ﷺ: «أوَلم تُهدِه لنا؟!». فيقول: يا رسولَ الله، إنّه لم يَكُن عندي ثمنُه وأحبَبتُ أن تأكلَ منه. فيضحكُ النبيُّ ﷺ ويأمرُ لصاحبِه بثمنِه.

فهذه مُطايَباتٌ يُباحُ مثلُها على الندورِ لا على الدوامِ.

لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله:

في «الصحيحين» أنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قال حين يُصبحُ وحين يُمسي: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، مئةَ مرةٍ حُطَّت خَطاياه وإن كانت مِثلَ زَبدِ البحرِ». وعند مُسلمٍ: أنّه ﷺ قال: «أيَعجِزُ أحدُكم أن يكسبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟» فسألَه سائلٌ من جُلَسائه: كيف يكسبُ أحدُنا ألفَ حسنة؟ قال: «يُسبِّحُ مئةَ تسبيحةٍ فيُكتَبُ له ألفُ حسنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ». وعند أحمدَ وأصحابِ

السنن: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قال: سبحانَ الله وبحمدِه، غُرِست له نخلةٌ في الجنة». فانظُر يا رعاك الله إلى هذه الحسناتِ الهائلةِ وإلى ما يُقابِلُها من العملِ اليسيرِ، حسناتٌ يعبُّ منها الإنسانُ عبًّا، لا غلاءَ ولا كُلفةَ غيرُ توفيقِ الله لمَن بادَر، ألا فليت شِعري أترون نخيلَ الجنةِ كنخيلِ الدنيا؟! لله بكم يُشترَى أطيبُ النخيلِ في دنيانا؟! ألا فالله أكبر ولا إله إلا الله نخلةٌ في الجنةِ ثمنُها: سبحانَ الله وبحمدِه!! أوه تالله لقد فرَّطنا في نخيلٍ كثيرةٍ فالله المستعانُ.

آداب السماع للآخرين:

يقول ابنُ المقفَّع[1]: «تَعلَّم حُسنَ الاستِماع، كما تتعلَّمُ حُسنَ الكلامِ، ومن حُسنِ الاستماعِ إمهالُ المتكلِّمِ حتى ينقضيَ حديثُه، وقلّةُ التلفُّتِ، والإقبالُ بالوجهِ، والنظرُ، والوعيُ لِما يَقول، واعلَم أنّه مما يُهجِّنُ صوابَ ما يأتي به ويَذهَبُ بطعمِه وبهجتِه ويُزري به في قبولِه: عجلتُك به، وقطعُك الحديثَ قبل أن يفضيَ إليك به».

كذلك فإنّ سوءَ الاستماعِ وعدمَ الالتزامِ بآدابه قد يُحدِثُ وحشةً وفجوةً بين المتكلِّمِ والمستمعِ، أو نفورًا من قِبل المتكلِّم، فيزرعُ المستمعُ بسوءِ استماعِه شيئًا من الجفاءِ في قلبِ المتكلِّمِ وربما الضغينةَ.

ومن الآداب التي نراها تنفع بهذا الصدد:

١ـ الترابطُ القلبيُّ بين المستمعِ والمتكلِّم، وذلك عن طريقِ التفاعُلِ القلبيِّ من قِبل المستمِع، بأن يكونَ المستمعُ حاضرًا بكلِّ قلبِه، فليس عدمُ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير، لعبد الله بن المقفع.

جسِّ كلامِ المتكلِّمِ لقلبِ المستمعِ سببُه دائمًا بُعدُ المتكلِّمِ القلبيُّ أو النفسيُّ عن المستمع، بل أحيانًا يكونُ السببُ هو الإدبارَ القلبيَّ من قِبل المستمعِ أو الحضورَ الناقص.

٢ـ عدمُ الانزعاجِ من إطالةِ كلامِ المتكلِّم.

٣ـ تجنُّبُ مقاطعةِ المتكلِّم، وتركُه إلى أن يُنهِيَ كلامَه، فربما فاتَتنا فوائدُ بسببِ المقاطعةِ والدخولِ العرضيِّ.

٤ـ التغلُّبُ على الانزعاجِ النفسيِّ الذي يتولَّدُ من بعضِ كلماتِ المقابلِ والتي يراها المستمعُ أدنى من مستواه، فليس من كلامٍ حوَت كلُّ كلماتِه على فوائدَ إلا ما ندر.

٥ـ تركُ تسخيفِ كلامِ أيِّ متكلِّم.

٦ـ الابتعادُ عن تتبُّعِ عثراتِ المتكلِّم، فإنّه بذرةُ التنافرِ والتباغُض.

٧ـ تركُ الأفعالِ والحركاتِ التي تُوحِي أو تُوهِمُ المقابلَ بعدمِ اهتمامِك بكلامِه.

٨ـ اجعَلِ المتكلِّمَ يشعرُ بأنّه هو المتفضِّلُ بالكلامِ لا أنت المتفضِّلُ بالاستماع.

٩ـ إن أردتَ تصحيحَ بعضِ أخطاءِ المتكلِّم ـ لا كلِّ الأخطاءِ فإنّ بعضَها يجبُ أن يُغفَر ـ فحاوِل أن تصحِّحَها بصورةٍ لطيفةٍ كي لا تكسرَ عزيمتَه وتثبِّطَ همته وتزعزعَ ثقتَه بنفسِه.

١٠ـ اشكُره أو امدَحه عند نهايةِ كلامِه، أو ادعُ له بالخير.

١١ـ حاوِل ألا تُكثِرَ الالتفاتَ يمينًا وشمالًا وتشتِّتَ انتباهَ المتكلِّم.

١٢ـ كثيـرًا ما تصدرُ كلمـاتٌ فيها منافعُ كثيرةٌ ممن لا نتوقَّعُ منه ذلك، فلا تَستصغِرنَّ كلامَ أيِّ متكلِّم، فلا تدري من أين يأتي رزقُك.

١٣ـ إن تكلَّـم بحضرتِك مَن يَرى نفسَـه ليس أهـلًا للكلام، فعظِّمه وارفَع مقامَه، فإنّ مثلَ هؤلاء هم نظرُ عينِ الجبّارِ جلّ جلاله.

١٤ـ حاوِل قدرَ إمكانِك أن تُبادِلَ المتكلِّمَ مشاعرَه، ولا تجعَله غريبًا.

١٥ـ إذا قُطِـع الـكلامُ بقاطعٍ أو زائـرٍ أو أيِّ أمرٍ آخر، فيجبُ أن تكونَ أنت مَن يطلبُ منه إتمامَ كلامِه، فلربما منَعه الحياءُ من الإكمال.

١٦ـ ليـس مـن الأدبِ الإكثارُ من التثاؤبِ أثنـاءَ كلامِ المتكلِّمِ، فينبغي أن تتغلَّبَ عليه بأيِّ صورةٍ كانت.

١٧ـ إن كان الـكلامُ بالموعظـةِ والنصـحِ والتطبيـق، فينبغي للمسـتمع أن يكونَ همُّه الأكبرُ بعد السماعِ هو العملَ على تطبيقِ ما سمِعه، وإلا فقد أضاع على نفسِه عطاءً وعَطَّل جزءًا من أرادتِه.

وقال أهل الذوق: «إذا لم تكن عالمًا ناطقًا فكن مُستمِعًا واعيًا».



قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

[٦٠] وليُلزِمُوهُ كَثرَةَ التَّواضُعِ وتَركَ مَا بَدَا لَهُ مِن طَمَعِ
[٦١] فَإِنَّهُ مِن أعظَمِ الآفَاتِ حَكَيتُهُ نَقلًا عَنِ الثِّقَاتِ
[٦٢] أيضًا وَمِن حُبِّ الذَّهَبْ والفِضَّةِ يُحَذِّرُوهُ فَهْوَ شَرُّ آفَةِ
[٦٣] مِنَ السُّمُومِ القَاتِلَهْ حُبُّهُمَا فَالرَّأيُ تَحذِيرُ الصَّبِيِّ مِنهُمَا

الشرح:

ويُربِّيه على التواضعِ في حديثِه وفي مخالطتِه للناسِ، فيجعلُه دثارَه وشعارَه.

وهذا الخُلقُ كان من أعظمِ أخلاقِ الحبيبِ المصطفى ﷺ.

تواضعه ﷺ:

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ أنّ امرَأةً لَقِيَتِ النَّبيَّ ﷺ في طَرِيقٍ من طُرُقِ المَدِينةِ فقالَت: يا رَسُولَ الله، إنّ لي إليك حاجةً. قال: «يا أُمَّ فُلانٍ، اجلِسِي في أيِّ نَواحِي السِّكَكِ شِئتِ أجلِس إليكِ». قال: فقَعَدت فقَعَدَ إليها رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى قَضَت حاجَتَها. (أبو داود).

وكان سيدُنا عديُّ بنُ حاتمٍ مَلِكًا، وجاء النبيَّ عليه الصلاة والسلام فسألَه عن اسمِه فقال: عديُّ بنُ حاتمٍ، فرحَّب به، وانطَلق به إلى البيتِ، قال: في

الطريقِ استَوقفته امرأةٌ ضعيفةٌ، فوقَف معهـا طويلًا تكلِّمُه في حاجتِها، فقلتُ في نفسي: والله ما هذا بأمرِ ملِكٍ.

كان عليه الصلاة والسلام متواضعًا لا يأنفُ أن يُحدِّثَ أضعفَ الناس، وأفقرَ الناس، أن يُحدِّثَ الفقراءَ والمساكينَ، فهذا من تواضُعِه عليه الصلاة والسلام.

وعـن أنَـسِ بنِ مالِكٍ قال: كان رَسُـولُ الله ﷺ إذا صَلَّى الغَـداةَ جاءَ خَدَمُ المَدِينـةِ بآنِيَتِهـم فيها الماءُ، فما يُؤتَى بإناءٍ إلا غَمَسَ يَدَه فيها، فربما جاؤُوهُ في الغَـداةِ البارِدةِ فيَغمِسُ يَدَه فِيها. (مسـلم). علِم أنّهـم يحبُّون أن يتبرَّكوا به ﷺ فاستجابَ لهم.

وعـن أنَـسِ بـنِ مالِـكٍ قـال: إن كانَـتِ الأمَةُ من أهـلِ المَدِينَـةِ لَتَأخُـذُ بيَدِ رَسُـولِ الله ﷺ فما يَنزِعُ يَدَهُ من يَدِها حَتَّى تَذهَبَ به حيث شـاءَت من المَدِينَةِ فـي حاجَتِهـا. (ابن ماجـه). أي: تُمسِـكه مـن يدِه وهو يمشـي وراءها، إنسـانٌ يتربَّـعُ علـى أعلـى مقامٍ في الأرضِ، وبنتٌ صغيرةٌ تُمسِـكه من يدِه فيسـتجيبُ لهـا ويَتبعُهـا! مَن في العظماءِ لـو أنّ طفلًا صغيرًا جلَس إليه يرتـاحُ إليه؟ طبعًا الأشـخاصُ العاديون كلُّ إنسـانٍ له مقام، وله سن، هذا الإنسانُ لا يتفاعلُ ولا ينطلـقُ إلا مـع مثيلِه، تُلاحِظون في المجالسِ إنسـانًا معه دكتوراه، وله منصبٌ رفيـع، لا ينفـردُ إلا مـع مثيلِه، ما دام رآه دونه يأخـذُ موقفًا، النبيُّ ما كان هكذا، طفـلٌ صغيرٌ، إنسـانٌ بائسٌ، تـراه يجلسُ إليه، تنطلقُ أسـاريرُه، يرحِّـبُ به كأنّه صديقُه، الآن طفلةٌ صغيرةٌ تمسكُ بيدِ النبيِّ فتقودُه فيتبعُها.

وعن أنَسٍ رضي الله عنه قال: أُقيمَتِ الصَّلاةُ ورَجُلٌ يُناجِي رَسُولَ الله ﷺ، فَمـا زالَ يُناجِيـهِ حَتَّى نامَ أصحابُهُ ثم قامَ فَصَلَّـى. (البخاري). أي أنّ الصحابةَ

أدركـوا أنّـه أمـرٌ خطيـرٌ ما دام النبـيُّ يناجيه، ويهتـمُّ به، فلزموا السـكوتَ حتى صلَّى بهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، أحيانًا يكونُ السببُ وجيهًا ومبرِّرًا قويًّا لانشغالِ شخصٍ عن شيءٍ يومي، فكلما كان الإنسانُ قريبًا نفسيًّا من الشخصِ المعنيِّ يُدرِكُ عليه الحكمةَ والمبرِّر.

حَدَّثَنـا حُمَيـدُ بـنُ هِلالٍ قـال: قال أبُو رِفاعـةَ: انتَهَيتُ إلـى النَّبِيِّ ﷺ وهو يَخطُـبُ قال: فقُلتُ: يا رَسُـولَ الله، رَجُلٌ غَرِيبٌ جاء يَسـألُ عـن دِينِهِ لا يَدري مـا دِينُـهُ؟ قـال: فأقبَلَ عَلَيَّ رَسُـولُ الله ﷺ وتَرَكَ خُطبَتَهُ حَتَّى انتَهَـى إلَيَّ، فأُتِيَ بكُرسِـيٍّ حَسِبتُ قَوائِمَهُ حَدِيدًا. قال: فقَعَدَ عليه رَسُولُ الله ﷺ وجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مما عَلَّمه الله، ثم أتَى خُطبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَها. (مسلم).

رجلٌ غريبٌ جاء يسألُ عن دينِه وما يدري ما دينُه، يُقبِل، يُبادِر، يُسرِع!

وعـن أنَـسِ بنِ مالِكٍ قال: كان النَّبِيُّ ﷺ إذا لَقِيَ الرَّجُلَ فكَلَّمَه لم يَصرِف وجهَهُ عنه حَتَّى يَكُونَ هو الذي يَنصَرِفُ، وإذا صافَحَهُ لم يَنزِع يَدَهُ من يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هو الذي يَنزِعُها، ولم يُرَ مُتَقَدِّمًا برُكبَتَيهِ جَلِيسًا له قَطُّ. (ابن ماجه).

إذا صافَح لا يَسـحَبُ يدَه حتى ينزعَ المصافحُ يدَه، أمّا أن يَبدَأ النبيُّ فينزعَ يـدَه فمـا فعلَهـا قـط، إذا جلَس إلى إنسـانٍ لا ينصـرفُ عنه حتى ينصـرفَ هذا الإنسانُ عن رسولِ الله ﷺ.

وكان رَسُـولُ الله ﷺ يُكثِـرُ الذِّكـرَ، ويُقِلُّ اللَّغـو، ويُطِيلُ الصَّـلاةَ، ويُقَصِّرُ الخُطبـةَ، ولا يَأنَـفُ أن يَمشِـيَ مَـعَ الأرمَلـةِ والمِسـكِينِ فيَقضِـيَ لـه الحاجَـةَ. (النَّسائي).

الفرق بين الأقوياء والأنبياء:

عن سيدِنا عمرَ رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ وهو على حصيرٍ. قال: فجلستُ، فإذا عليه إزارُه، وليس عليه غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبِه، وإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحوَ الصاعِ، وقَرَظٍ في ناحيةٍ في الغرفةِ، وإذا إهابٌ مُعلَّقٌ، فابتدَرَت عيناي، فقال: «ما يُبكيكَ يا ابنَ الخطّابِ؟» فقال: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبِك، وهذه خِزانتُك لا أرَى فيها إلا ما أرَى، وذاك كسرَى وقيصرُ في الثِّمارِ والأنهارِ، وأنت نبيُّ الله وصفوتُه وهذه خِزانتُك؟ قال: «يا ابنَ الخطّابِ، أما ترضَى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدُّنيا؟»[١].

أي: أنّ عمرَ رضي الله عنه يقول: هذا المجوسيُّ ينامُ على الحَرِير، وأنت رسولُ الله تنامُ على الحَصِير؟ فقال: «يا عمرُ، أفي شكٍّ أنت من هذا؟ إنّما هي نبوّةٌ وليست مُلكًا».

أنت أخطأتَ حينما توهَّمتَني مَلِكًا، أنا نبيٌّ، لذلك يُستنبَطُ أنّ الملوكَ ملَكوا رقابَ الناسِ بقوّتِهم، أمّا الأنبياءُ فملَكوا رقابَ الناسِ بكمالِهم، وكلُّ إنسانٍ إمّا أنّه تابعٌ لقويٍّ، أو أنّه تابعٌ لنبيٍّ، فإن كنتَ من أتباعِ القويِّ تستخدمُ قوّتَك، وتُرهِبُ بها الناسَ، وإن كنتَ من أتباعِ النبيِّ تستخدمُ كَمالَك لتملكَ قلوبَ الناسِ، فأنت بالقوّةِ أو بالكمالِ، مؤمنٌ بالكمالِ، غيرُ مؤمنٍ بالقوّة، بالقوةِ تملكُ الرقابَ والقلوبُ لا تُحبُّك، أمّا بالكمالِ فتملكُ القلوبَ.

(١) الترغيب والترهيب (٤: ١٧٥).

إجابته ﷺ دعوة الجميع:

عـن أَبِي هُرَيـرةَ عـن النَّبِيِّ ﷺ أنّه قال: «لَـو دُعِيتُ إلى كُـراعٍ أو إلى ذِراعٍ لَأجَبـتُ، ولَـو أُهـدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ لَقَبلـتُ». قال: وما رَأيتُ رَسُـولَ الله ﷺ عابَ طَعامًا قَطُّ، إنِ اشتَهاهُ أكَلَهُ وإلا تَرَكَهُ. رواه الإمامُ أحمدُ.

الكُراعُ: يدُ الغنمِ.

الإنسـانُ أحيانًـا يُدعـى إلى طعـامٍ، تراه كأنّمـا أكَل طعامًا حامضًـا، يُعطِي تعليمـاتٍ وتوجيهاتٍ وملاحظـاتٍ فتَرى صاحبَ الطعامِ قد صَغُر، ونبيُّنا عليه الصلاة والسلام ما ذمَّ طعامًا قطّ.

عن أَبِي هُرَيرةَ قال: ما عابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعامًا قَطُّ، إنِ اشتَهاهُ أكَلَهُ وإن كَرِهَهُ تَرَكَهُ. (البخاري).

وعـن ابنِ عباسٍ أنّـه قال: كان يجلسُ على الأرضِ، ويأكلُ على الأرضِ، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ.

وعـن أَنَـسِ بـنِ مالِـكٍ قـال: كان رَسُـولُ الله ﷺ يَعُـودُ المَرِيضَ، ويُشَـيِّعُ الجِنـازةَ، ويُجِيـبُ دَعوةَ المَملُوكِ، ويَركَبُ الحِمـارَ، وكانَ يومَ قُرَيظةَ والنَّضِيرِ علـى حِمـارٍ، ويَومَ خَيبَرَ على حِمارٍ مَخطُومٍ برَسَـنٍ من لِيفٍ، وتَحتَهُ إكافٌ من لِيفٍ. (ابن ماجه).

قُدوتُنا عليه الصلاة والسلام كان يُجِيبُ دعوةَ المملوكِ، أي: أقلِّ إنسانٍ.

وعـن أَبِي هُرَيـرةَ وأَبِـي ذَرٍّ قالا: كان رَسُـولُ الله ﷺ يَجلِسُ بَيـنَ ظَهرانَي أصحابِـه، فيَجِـيءُ الغَرِيـبُ فـلا يَـدرِي أيُّهُـم هُـو حَتَّـى يَسـأَلَ، فطَلَبنـا إلـى

رَسُولِ الله ﷺ أن نَجعَلَ له مَجلِسًا يَعرِفُهُ الغَرِيبُ إذا أتاهُ، فبَنَينا له دُكّانًا من طِينٍ كان يَجلِسُ عليه. (أبو داود).

لم يَكُن له كرسيٌّ خاصٌّ، ولا ثيابٌ خاصّةٌ، واحدٌ منهم، بالوسطِ يجلسُ ليس له أيُّ ميزةٍ، أيُّكم محمدٌ؟ يقول: «أنا»، وفي رواية: «قد أصبت»، وفي روايةٍ ثالثة: «ذلك الوضيءُ».

وعن قُدامةَ بنِ عَبدِ الله أنّه رَأى النَّبِيَّ ﷺ يَرمِي الجِمارَ على ناقةٍ لا ضَربَ ولا طَردَ ولا إلَيكَ إلَيكَ، وزادَ عَبّادٌ في حَدِيثِه: قال: رَأيتُ رَسُولَ الله ﷺ على ناقةٍ صَهباءَ يَرمِي الجَمرةَ[1].

أي: ناقةٍ شقراءَ متوسِّطةٍ، أي: حاجاتُه عاديّةٌ كحاجاتِ الناس، لا يوجدُ أشياءُ مَلَكيّةٌ خاصّةٌ به، مثلُه مثلُ الناسِ.

وكان عليه الصلاة والسلام يُدعى إلى خبزِ الشعيرِ فيُجِيبُ، والسيدةُ عائشةُ سُئلت: ما كان النَّبِيُّ ﷺ يَصنَعُ في بَيتِهِ؟ قالَت: كان يَكُونُ في مِهنةِ أهلِه؛ تَعنِي: خِدمةَ أهلِه، فإذا حَضَرَتِ الصَّلاةُ خَرَجَ إلى الصَّلاةِ. (البخاري).

وعن عُروةَ، وعَن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبِيهِ قال: سَألَ رَجُلٌ عائِشةَ: هل كان رَسُولُ الله ﷺ يَعمَلُ في بَيتِهِ شَيئًا؟ قالَت: نَعَم، كان رَسُولُ الله ﷺ يَخصِفُ نَعلَهُ ويَخِيطُ ثَوبَهُ ويَعمَلُ في بَيتِهِ كَما يَعمَلُ أحَدُكُم في بَيتِهِ. (الإمام أحمد).

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ قال: ما كان شَخصٌ أحَبَّ إلَيهِم رُؤيةً من رَسُولِ الله ﷺ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٠٣)، والنسائي (٣٠٦١)، وابن ماجه (٣٠٣٥) واللفظ له، وأحمد (١٥٤٤٨).

وكانُوا إذا رَأوهُ لم يَقُومُوا لِما يَعلَمُونَ من كَراهِيَتِهِ لِذَلِكَ. (الإمام أحمد).

وهـذا مـن تَواضُعِـه ﷺ، مـع أنّه كان يحـثُّ على احتـرامِ الكبيـرِ والعالمِ والقيامِ له.

ورُوِينا في «صحيحي البخاري ومسلم» عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنـه، أنّ رسـولَ الله ﷺ قـال للأنصـارِ لمّا أقبَل سـعدُ بنُ معـاذٍ رضي الله عنه: «قُومُـوا إلـى سَـيِّدِكُم»، أو «خَيرِكُـم»، كـذا فـي بعـضِ الرواياتِ: «سـيدكم أو خيرِكم»، وفي بَعضِها: «سيدكم»[١].

حكم القيام للعلماء والصالحين والوالدين:

أمّا حكمُ القيامِ لذوي الفضلِ فجائز، وهو من الآدابِ الإسلاميةِ المطلوبةِ، وقد نصَّت كتبُ الفقهِ في مختلِفِ المذاهبِ على جوازِه.

أ ـ نصوص السادة الشافعية:

قـال العلّامـةُ الفقيهُ محمدُ الشِّـربينيُّ في كتابِه «مغني المحتاج»: «ويُسَـنُّ القيامُ لأهلِ الفضلِ من علمٍ وصلاحٍ أو شرفٍ أو نحوِ ذلك، لا رياءً وتفخيمًا. قال في «الروضة»: وقد ثبَت فيه أحاديثُ صحيحةٌ»[٢]. اهـ.

وللإمـامِ النَّوَويِّ رسـالةٌ خاصّةٌ سـمّاها «رسـالةَ الترخيـصِ بالقيامِ لذوي الفضل» في جوازِ القيامِ للقادِم، واستدلَّ على ذلك بأحاديثَ كثيرةٍ منها:

ما أخرَجه أبو داودَ في «سننه»: أنّ النبيَّ ﷺ كان جالسًا يومًا فأقبَل أبوه من

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لمحمد بن علان الصديقي (٧: ٨٩).

(٢) مغني المحتاج (٣: ١٣٥).

الرضاعةِ فوضَع له بعضَ ثوبِه فجلَس عليه، ثم أقبَلت أمُّه من الرضاعةِ فوضَع لها شـقَّ ثوبِه من الجانبِ الآخَر، ثم أقبَل أخوه من الرضاعةِ فقام فأجلَسـه بين يدَيه.

وأخـرَج الإمامُ مالكٌ في قصـةِ عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ رضي الله عنه، لمَّا فرَّ إلى اليمنِ يومَ الفتحِ ورحَلت امرأتُه إليه حتى أعادَته إلى مكةَ مسلمًا: فلمّا رآه النبيُّ ﷺ وثَب إليه فرحًا، ورمى عليه رداءه.

وقام النبيُّ ﷺ لمّا قَدِم جعفرٌ من الحبشـةِ فقال: «ما أدري بأيِّهما أنا أُسَـرُّ؛ بقُدومِ جعفرٍ أو بفتحِ خيبرَ؟».

وجاء في حديثِ عائشةَ رضي الله عنها: قدِم زيدُ بنُ حارثةَ المدينةَ والنبيُّ ﷺ في بيتي، فقرَع البابَ فقام إليه فاعتَنقه وقبَّله.

وأخرَج أبو داودَ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يُحدِّثُنا، فإذا قام قُمنا إليه حتى نَراه قد دخَل.

ب ـ نصوص السادة الحنفية:

نقَـل العلّامـةُ الفقيهُ المحقِّقُ ابنُ عابدينَ عند قـولِ صاحبِ «الدُّر»: «وفي «الوهبانية»: يجوزُ؛ بل يُندَبُ القيامُ تعظيمًا للقادِم، كما يجوزُ القيامُ ولو للقارئِ بين يدَي العالمِ»: «قال في «القنية»: قيامُ الجالسِ في المسجدِ لمَن دخَل عليه تعظيمًـا، وقيامُ قارئِ القرآنِ لمَن يجيءُ تعظيمًا، لا يُكرَهُ إذا كان ممَّن يسـتحقُّ التعظيمَ. وفي «مشـكل الآثار»: القيامُ لغيـرِه ليس بمكروهٍ لعينِه، إنّما المكروهُ محبةُ القيامِ لمَن يُقامُ له، فإن قام لمَن لا يُقامُ له لا يُكرَهُ.

قال ابنُ وهبانَ: أقول: وفي عصرِنا ينبغي أن يُستحَبَّ ذلك ـ أي: القيامُ ـ؛ لِما يُورِثُ تركُه من الحقدِ والبغضاءِ والعداوة، ولا سيما إذا كان في مكانٍ اعتِيدَ فيه القيامُ. وما ورَد من التوعُّدِ عليه، في حقِّ مَن يحبُّ القيامَ بين يدَيه كما يفعلُه التُّركُ والأعاجمُ»[1] اهـ.

ج ـ نصوص شُرّاح الحديث:

قال أبو سليمانَ الخَطّابيُّ الشافعيُّ شارحًا الحديثَ الذي رواه أبو داودَ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: «إنّ أهلَ قُرَيظةَ لمّا نزَلوا على حكمِ سعدٍ أرسَل إليه النبيُّ ﷺ، فجاء على حمارٍ أقمَر، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «قُومُوا إلى سيِّدِكم أو إلى خَيرِكم»، فجاء حتى قعَد إلى رسولِ الله ﷺ».

قال الخَطّابي: «فيه من العِلم: أنّ قولَ الرجلِ لصاحبِه: يا سيِّدي، غيرُ محظورٍ، إذا كان صاحبُه خيِّرًا فاضلًا، وإنّما جاءت الكراهةُ في تسويدِ الرجلِ الفاجِر، وفيه: أنّ قيامَ المرؤوسِ للرئيسِ الفاضلِ وللوليِّ العادِل، وقيامَ المتعلِّمِ للعالِمِ، مستحبٌّ غيرُ مكروه، وإنّما جاءت الكراهةُ فيمَن كان بخلافِ أهلِ هذه الصفاتِ».

وقال الخَطّابيُّ أيضًا في شرحِه لحديثِ أبي داود الذي رواه معاويةُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ أن يمثُلَ له الرجالُ قيامًا فليتبوَّأ مقعدَه من النار»: «قوله ﷺ: «يمثُل» معناه: يقومُ وينتصبُ بين يدَيه، ووجهُه هو أن

---

(١) حاشية ابن عابدين (٥: ٢٥٤).

يأمرَهم بذلك ويُلزِمَه إيّاهم على مذهبِ الكِبرِ والنخوة»[(١)] اهـ.

وقال العلّامةُ السَّفّارِينيُّ: «وفي «مسند الإمام أحمد» رضي الله عنه: «قُومُوا إلى سيِّدِكم فأنزِلوه»، لكن يَنصُرُ كونَ الأمرِ بالقيامِ له آخرُ الخبَرِ: وكان رجالٌ من بني الأشهلِ يقولون: قُمنا له على أرجُلِنا صَفَّين يُحيِّيه كلُّ رجلٍ منا، حتى انتَهى إلى رسولِ الله عليه الصلاة والسلام، كما في «السيرة الشامية»»[(٢)].

كما ذكَره أيضًا مفتي السادةِ الشافعيةِ بمكةَ المشرَّفةِ العلّامةُ أحمد زيني دحلان في كتابِه «السيرة النبوية والآثار المحمدية».

قال العلامةُ الصابونيُّ رحمه الله[(٣)]: أقول: جمهورُ العلماءِ على جوازِ القيامِ للقادمِ، إلا إذا كان فاسقًا، أو عاصيًا، أو مرتكبًا لكبيرة، أو مشهورًا بالكِبر، وحبِّ الظهور، وأمّا ما استدلَّ به بعضُهم من منعِ القيامِ بحديث: «مَن أحبَّ أن يتمثَّلَ له الناسُ قيامًا...» الحديثَ، فليس فيه دليلٌ لهم؛ لأنّ الرسولَ عليه السلام لم يُطلِق اللفظَ، وإنّما قيَّده بوصفٍ يدلُّ على الكبرياءِ وحبِّ الظهور: «مَن أحبَّ أن يتمثَّلَ له الناسُ قيامًا»، ولم يَقُل صلوات الله عليه: مَن قام له الناسُ فليَتَبوَّأ مقعدَه من النارِ. ولا شكَّ أنّ هذا الوصفَ لا ينطبقُ إلا على المتكبِّرِ المغرورِ، والفرقُ دقيقٌ بين اللفظَين، فلا ينبغي أن يُغفَلَ عنه.

وأمّا ما يقوله بعضُهم من أنّ القيامَ ركنٌ من أركانِ الصلاة، فلذلك يحرمُ؛

---

(١) معالم السنن شرح سنن أبي داود، للخطابي (٤: ١٥٥-١٥٦).

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للعلامة السفاريني الحنبلي (١: ٢٧٦). وقد أورد هذا الخبر العلامة علي بن برهان الدين الحلبي في كتابه السيرة الحلبية (٢: ٣٣٩).

(٣) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، لمحمد علي الصابوني (٢: ٤٥).

لأنّـه يُشـبِهُ العبـادةَ... إلـخ، فهذا جهلٌ مطبِـقٌ لا يصدرُ من فقيـهٍ عالمٍ يتصدى لاستنباطِ الأحكام!

كيف والصلاةُ تشتملُ على أركانٍ كثيرةٍ كالقعود، وقراءةِ القرآن، والتشهُّد، والصلاةِ على النبيِّ ﷺ في بعضِ الأقوالِ كما هو مذهبُ الإمامِ الشافعيِّ؟ فهل يقـولُ أحـدٌ: إنّ الجلوسَ بين يدَي العالمِ حرامٌ؛ لأنّـه ركنٌ من أركانِ الصلاة؟ وإنّ تلاوةَ القرآنِ لا تجوزُ أمامَ أحدٍ؛ لأنّها ركنٌ من أركانِ الصلاة؟ وإنّ الصلاةَ على النبيِّ عليه السلام حرامٌ في حضرةِ الناسِ؛ لأنّها ركنٌ من أركانِ الصلاةِ؟!

وقياسُ القيامِ على الركوعِ والسـجودِ في الحُرمةِ، قياسٌ مع الفارق، وهو قياسٌ باطل؛ لأنّ الركوعَ والسجودَ لا يجوزُ لغيرِ الله كما قال عليه السلام: «لو كنـتُ آمـرًا أحدًا أن يسـجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسـجدَ لزوجِها». وقد ورَد فـي تحريمِه النـصُّ القاطع، أمّا القيامُ، والقعـودُ، والاضطجاعُ، فليس من هذا القبيلِ، وكفانا الله شرَّ الجهل، وحماقةَ المتطفِّلين على العلمِ والعلماء!!

محبته للناس وحرصه على هداهم:

وعن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ قال: أخبَرَني أُسامةُ بنُ زَيدٍ: أنّ النَّبيَّ ﷺ رَكِبَ حِمارًا عليه إكافٌ تَحتَهُ قَطِيفةٌ فَدَكيّةٌ وأردَفَ وراءَهُ أُسـامةَ بنَ زَيدٍ وهو يَعُودُ سَـعدَ بنَ عُبادَةَ في بَنِي الحارِثِ بنِ الخَزرَجِ، وذَلِكَ قبل وقعَةِ بَدرٍ، حَتَّى مَرَّ في مَجلِسٍ فيه أخلاطٌ من المُسـلِمين والمُشـرِكِينَ عَبَدةِ الأوثانِ واليَهُـودِ، وفِيهِم عَبدُ الله ابـنُ أُبَيٍّ بنُ سَـلُولَ، وفِـي المَجلِسِ عَبدُ الله بنُ رَواحةَ، فلَمّا غَشِـيَتِ المَجلِسَ عَجاجةُ الدّابّةِ خَمَّرَ عَبدُ الله بنُ أُبَيٍّ أنفَهُ بردائِهِ، ثم قال: لا تُغَبِّرُوا عَلَينا.

فسَلَّمَ عليهم النَّبيُّ ﷺ ثم وقفَ فنَزَلَ فدَعاهُم إلى الله وقَرَأ عليهم القُرآنَ، فقـال عَبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بنُ سَـلُولَ: أيُّها المَرءُ لا أحسَـنَ مـن هَذا إن كان ما تَقُولُ حَقًّا فلا تُؤذِنا في مَجالِسِنا، وارجِع إلى رَحلِكَ، فمَن جاءَكَ مِنّا فاقصُص عليه.

قـال عَبـدُ الله بـنُ رَواحةَ: اغشَـنا في مَجالِسِـنا؛ فإنّـا نُحِبُّ ذلك، فاستَبَّ المُسـلِمُونَ والمُشـرِكُونَ واليَهُـودُ حَتَّـى هَمُّـوا أن يَتواثَبُوا، فلم يَـزَلِ النَّبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُم ثم رَكِبَ دابّتَهُ حَتَّى دَخَلَ على سَعدِ بنِ عُبادةَ فقال: «أي سَعدُ، ألم تَسمَع إلى ما قال أبُو حُبابٍ؟ ـ يُرِيدُ عَبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ـ قال كَذا وكَذا»، قال: اعفُ عَنهُ يـا رَسُـولَ الله واصفَح، فوالله لَقَد أعطـاكَ الله الذي أعطـاكَ ولَقَدِ اصطَلَحَ أهـلُ هَذِهِ البَحرَةِ على أن يُتَوِّجُوهُ فيُعَصِّبُـوهُ بالعِصابَةِ، فلَمّا رَدَّ الله ذلك بالحَقِّ الـذي أعطاكَ شَـرِقَ بذلك، فذلك الذي فَعَلَ به ما رَأيـتَ. فَعَفا عَنهُ النَّبيُّ ﷺ. (البُخاري).

وعن ثابتٍ عن أنَسٍ رضي الله عنه قال: كان غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخدُمُ النَّبيَّ ﷺ فمَرِضَ، فأتاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُه فقَعَدَ عند رَأسِهِ، فقال له: «أسلِم». فنَظَرَ إلى أبيهِ وهو عِندَهُ فقال له: أطِع أبا القاسِـمِ ﷺ، فأسـلَمَ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ وهو يَقُولُ: «الحَمدُ لله الذي أنقَذَهُ من النارِ». (البُخاري).

وعـن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأبي طَلحةَ: «التَمِس غُلامًـا مـن غِلمانِكُـم يَخدُمُنـي حَتَّى أخـرُجَ إلى خَيبَـرَ»، فخَرَجَ بـي أبُو طَلحةَ مُردِفِـي وأنـا غُلامٌ راهَقتُ الحُلُمَ، فكُنتُ أخدُمُ رَسُـولَ الله ﷺ إذا نَزَلَ، فكُنتُ أسـمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: «اللهمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ من الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجزِ والكَسَـلِ، والبُخلِ والجُبنِ، وضَلَعِ الدَّينِ وغَلَبَةِ الرِّجالِ». (البُخاري).

وعـن عَبـدِ الله بنِ جَعفَرٍ قـال: كان رَسُـولُ الله ﷺ إذا قَدِمَ من سَـفَرٍ تُلُقِّيَ بصِبيـانِ أهلِ بَيتِه قال: وإنّه قَدِمَ من سَـفَرٍ فسُـبِقَ بي إليه فحَمَلَنِـي بَينَ يَدَيهِ، ثم جِـيءَ بأحَـدِ ابنَي فاطِمةَ فأردَفَـهُ خَلفَهُ. قال: فأُدخِلنا المَدِينـةَ ثَلاثةً على دابّةٍ». (مسلم).

تواضعه مع أصحابه ﷺ:

وعن عَبدِ الله بنِ مَسعُودٍ قال: كُنّا يومَ بَدرٍ كُلُّ ثَلاثةٍ على بَعِيرٍ، كان أبُو لُبابةَ وعَلِيُّ بنُ أبِي طالِبٍ زَمِيلَي رَسُـولِ الله ﷺ، قال: وكانَت عُقبةُ رَسُولِ الله ﷺ، قـال: فَقالا: نَحنُ نَمشِـي عَنـكَ؟ فقال: «ما أنتُما بأقوى مِنِّـي ولا أنا بِأغنَى عن الأجرِ مِنكُما». (الإمام أحمد).

في معركةِ بدرٍ رسـولُ الله قائدُ الجيش، سـيدُ الخلـق، عمِل مناوبةً، فكان يمشـي ويركبُ، حينما يأتي دورُه في المشـيِ يتوسَّـلُ صاحباه لأن يبقى راكبًا، فقال: «ما أنتُما بأقوى مِنّي ولا أنا بِأغنَى عن الأجرِ مِنكُما».

وعـن أنَسِ بـنِ مالِكٍ قال: حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ على رَحلٍ رَثٍّ وقَطِيفةٍ تُسـاوِي أربَعـةَ دَراهِـمَ، أو لا تُسـاوِي ثـم قـال: «اللهمَّ حَجَّـةً لا رِياءَ فِيها ولا سُـمعَةَ». (ابن ماجه).

ثيابٌ عاديّةٌ جدًّا، وحجَّ على رحلٍ مركوبٍ رخيصٍ، قال: «اللهمَّ حَجَّةً لا رِياءَ فِيها ولا سُمعَةَ».

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه أنّه مَرَّ على صِبيانٍ فسَـلَّمَ عليهم وقال: كان النَّبِيُّ ﷺ يَفعَلُهُ. (البخاري).

يَبدأُ هو السلام، ومرةً أركبَ صبيًّا وراءه على الناقةِ ليُفرِحَه، ومرةً رأى صبيانًا يلعبون فلعِبَ معهم، ورأى صبيانًا يَتسابَقون فدخَل معهم في السباقِ تأليفًا لقلوبِهم. وكان يقول: «مَن كان له صبيٌّ فليَتَصابَ له».

وكان عليه الصلاة والسلام يزورُ الأنصارَ، ويُسلِّمُ على صبيانِهم، ويمسحُ برؤوسِهم.

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ قال: خَرَجَ نَبيُّ الله ﷺ فتَلَقَّتهُ الأنصارُ بَينَهُم فقال: «والذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ إنِّي لَأُحِبُّكُم؛ إنّ الأنصارَ قد قَضَوا ما عليهم وبَقِيَ الذي عليكم، فأحسِنُوا إلى مُحسِنِهِم وتَجاوزُوا عن مُسِيئِهِم». (الإمام أحمد).

كان عليه الصلاة والسلام إذا فقَد الرجلَ من إخوانِه ثلاثةَ أيام سأل عنه، تفقَّده، فإن كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره، وإن كان مريضًا عاده.

أدبه ﷺ:

عديُّ بنُ حاتمٍ عندما دفَع له النبيُّ وسادةً ليس في بيتِه غيرُها فقال: «اجلِس عليها»، قال: أنت، قال: «بل أنت»، قال: فجلستُ عليها وجلَس هو على الأرضِ.

دخَل عليه رجلٌ عندما شاهَده خاف، فقال له: «هوِّن عليك؛ فلستُ بمَلِكٍ، إنّما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكلُ القديدَ بمكةَ».

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسولَ الله، كُل ـ جَعَلني الله فداءك ـ متكئًا؛ فإنّه أهوَنُ عليك ـ أي: يأكلُ مُضطجِعًا ـ قال: فأصغى برأسِه حتى كاد أن تصيبَ جبهتُه الأرضَ، قال: «لا، بل آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلِسُ كما يجلسُ العبدُ». (ابنُ عساكر).

ومرةً قال للسيدةِ عائشةَ: «يا عائشةُ، لو شئتُ لسارت معي جبالُ الذهب، جاءني ملَكٌ وقال: إنّ ربَّك يُقرِئُك السلامَ ويقول: إن شئتَ كنتَ نبيًّا عبدًا وإن شئتَ كنتَ نبيًّا مَلِكًا، فنظرتُ إلى جبريلَ: أن ضَع نفسَك مكاني، قلتُ: نبيًّا عبدًا؛ أجوعُ يومًا فأذكُرُه، وأشبعُ يومًا فأذكُرُه».

ما رُئي النبيُّ عليه الصلاة والسلام أكَل متكئًا قط، وكان يجلسُ على الأرضِ ويأكلُ على الأرضِ، وكان يقول: «إنّما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبد».

وعن أبِي سَلَمةَ قال: سَألتُ أبا سَعِيدٍ الخُدريَّ فقال: جاءَت سَحابَةٌ فمَطَرَت حَتَّى سالَ السَّقفُ، وكان من جَرِيدِ النَّخلِ فأُقِيمَتِ الصَّلاةُ، فَرَأيتُ رَسُولَ الله ﷺ يَسجُدُ في الماءِ والطِّينِ حَتَّى رَأيتُ أثَرَ الطِّينِ في جَبهَتِهِ. (البخاري).

وعن ابنِ عَبّاسٍ أنّه سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ على المِنبَرِ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لا تُطرُونِي كَما أطرَتِ النَّصارَى ابنَ مَريَمَ؛ فإنّما أنا عَبدُهُ فَقُولُوا: عَبدُ الله ورَسُولُهُ». (البخاري).

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ الله ﷺ فقال: يا خَيرَ البَرِيَّةِ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «ذاكَ إبراهِيمُ عليه السَّلام». (مسلم). تواضعًا قالها له سيدُ الأنبياءِ: «ذلك هو إبراهيمُ».

وأيضًا نُحذِّرُه من:

الطمع:

كما قال المصنِّفُ: «وتَركَ مَا بَدَا لَهُ مِن طَمَعِ».

إنّ من الأمورِ التي تجرُّ الإنسـانَ إلى الهاويةِ وتُلقي بهِ في غياهبِ الجبّ: الطمعَ؛ فهو آفةٌ من آفاتِ النفسِ.

الآفةُ التي تبحثُ عن الدُّنيا وعن كنزِ الذهبِ والفضةِ وغيرِهما من الأمورِ الفانية.

وإنّ للطمعِ عواقِبَ وخيمةً لمَن لم يُسيطَر عليه، ويكبَح جماحَه.

ومنها ما يأتي:

١ـ العملُ الدؤوبُ والانشغالُ الدائم، مع التعبِ المُضنِي الذي من خلالِه يضعُ حقَّ جسدِه وحقَّ زوجتِه وأولادِه.

٢ـ الطمعُ والبركةُ لا يَجتمِعان، فهو يَمحَقُها ويُبعِدُها.

٣ـ يجعلُ الناسَ ينظرون لمَن أصابه الطمعُ نظرةً دونيّةً، ونظرةَ استحقارٍ.

٤ـ الطمـعُ ملازمٌ للذلّةِ وانعدامِ الكرامةِ، فيقدِّمُ مَن أصابه هذا الداءُ الكثيرَ من التنازلاتِ في سبيلِ تحصيلِ الفُتات.

٥ـ الطمعُ يورثُ في النفسِ شعورًا بالفقرِ والحاجة، مهما جمعَ.

٦ـ والطمعُ يتعارضُ مع مبادئِ التوكُّلِ على الله، وحُسنِ الظنِّ بالله.

٧ـ الطمـعُ يتعارضُ مع مبادئِ التضحيةِ والإيثارِ ومسـاعدةِ الغيرِ، ويُعمِي الإنسانَ عن الطريقِ المستقيم.

٨ـ يعودُ على مَن أصابه بالخسرانِ في الدنيا والآخِرة.

٩ـ الطمـعُ يُفكِّكُ المجتمـعَ وينشـرُ البغضاءَ والعـداوةَ، وعـدمَ الثقةِ بين أفرادِه.

١٠ـ الطمعُ يُقلِّلُ من مكانةِ الإنسانِ وقيمتِه مهما جمعَ من مالٍ.

١١ـ يُسهمُ في نشرِ الفَوضى والملمّاتِ بين الناس.

١٢ـ الطمعُ بوابةٌ للظلمِ والفسادِ إن كان في منصبٍ من مناصبِ الدولة.

١٣ـ الطمعُ يؤدِّي إلى الكذبِ، والغشِّ، والخِداعِ، وانعدامِ المصداقيّةِ، وهو طريقٌ إلى العُجبِ، والرِّياء، والسمعةِ السيئةِ.

١٤ـ يؤدِّي إلى مفاسدَ اقتصاديّةٍ؛ لِما فيه من احتكارٍ للسلعِ والمعدّاتِ والبضائع.

١٥ـ يورثُ الطمعُ عدمَ الراحةِ والطمأنينةِ، ويؤدِّي إلى ارتكابِ الذنوبِ والمعاصي والمنكراتِ.

معنى الطمع:

الطمعُ في اللغة: من طَمِعَ طَمَعًا فهو طامِعٌ، وأطمعَهُ غيرُه، وإنّه لطَمِعٌ: أي: حَرِيصٌ، واصطلاحًا: ورَد في مَعنى الطمعِ عدّةُ أقوالٍ، وهي كما يأتي: قال الرّاغب: «نزوعُ النّفسِ إلى الشّيءِ شهوةً له». قال المُناويُّ: «الطّمعُ تعلُّقُ البالِ بالشّيءِ من غيرِ تقديمِ سببٍ له». قال العضُدُ: «الطّمعُ ذلٌّ يَنشأُ من الحرصِ والبطالةِ والجهلِ بحكمةِ الباري».

أنواع الطمع:

إنّ الطمعَ على ضربَين، وهما كما يأتي:

١ـ **الطمعُ المحمودُ:** وهو النوعُ الذي يجبُ أن يكونَ متوافرًا في نفسِ كلِّ مسلمٍ؛ لأنّه يدفعهُ إلى كلِّ خيرٍ، ومن هذا الخيرِ الطمعُ في طلبِ مغفرةِ الله للإنسانِ، والطمعُ في دخولِ الجنّةِ، والطمعُ في كرمِ الله والمعرفةِ بالله.

٢ـ الطمع المذموم: وهو الطمعُ الذي يورثُ في النفسِ ذِلّةً ومهانةً وهوانًا بين الناس، فيجبُ أن يحرصَ المسلمُ على التخلُّصِ منه، ويكونُ في الطمعِ في طلبِ الدنيا وجمعِ المال، والطمعِ في سلطةٍ أو منصبٍ، والطمعِ في المأكلِ والمشربِ والملذّات.

ونربِّيه على الزهدِ في الدنيا؛ لكثرةِ ما سيراه من فعالِ أهلِها، ويسمعُ من حديثِهم عنها؛ إذ إنّ حبَّ الذهبِ والفضّةِ والطمعَ فيما بين أيدي الناسِ من السمومِ التي تصيبُ القلبَ في مَقاتلِه؛ فيُحذِّرُ صَبيَّه منها، ويعوِّدُه احترامَ ملكيّةِ غيرِه، فلا يمدُّ يدَه إلى ما لغيرِه من ألعابٍ ومأكولاتٍ، ولو كانت لعبةَ أخيه.



قال المصنِّف رحمه الله:

[٦٤] ويُكـرِمُ الإخـوانَ بِالتَّأدُّبِ وكُلَّ مَـن عَاشَرَهُ مِـن صَاحِبِ
[٦٥] وَأن يُوسِّـعْ لِـلَّذِي يَأتِيـهِ مَجلِسَـهُ الَّذِي اسـتَقَرَّ فِيـهِ
[٦٦] ويُكـرِمُ الواصِـلَ بِالقِيَـامِ لِأنَّـهُ مِـن أدَبِ الكِـرَامِ
[٦٧] ويَسـتَمِعْ كَلَامَ كُلِّ عَاقِـلِ ويُحسِـنُ الإصغَا لِقَـولِ القَائِلِ

الشرح:

ويُؤدِّبُه كذلك على آدابِ عِشرةِ الإخوانِ والأصحاب؛ ومن أجَلِّها:

١ـ إكرامُهم وتقديرُهم والأدبُ معهم.
٢ـ والأدبُ الجمُّ في التعامُلِ معهم.
٣ـ والتلطُّفُ لهم.
٤ـ والتوسيعُ لهم في المجالسِ.
٥ـ ويُتحِفُ القادمَ بالبشاشةِ وحسنِ الاستقبالِ.
٦ـ ويُحسِنُ الإصغاءَ لحديثِ متحدِّثِهم.
٧ـ ولا يُقاطِعُه أو يُكثِرُ من جدالِه.
٨ـ ولا يَتفاخَر على أقرانِه بحطامِ الدنيا، من طِيبِ مأكلٍ أو مشربٍ، أو مالٍ.

ويُربِّيه أيضًا على آدابِ احترامِ أهلِ الفضل، وإجلالِهم؛ من كلِّ ذي علمٍ وصلاحٍ، ووالدٍ، وكلِّ مَن له به نسبُ تعليمٍ، أو رحمٍ، أو صحبةٍ:

١ـ فلا يَمشِي أمام أبوَيه أو مَن هو أكبرُ منه في الطريقِ.

٢ـ ولا يدخلُ قبلهما إلى المكانِ؛ تكريمًا لهما.

قال الماوَرديُّ رحمه الله: فأمّا التأديبُ اللازمُ للأبِ فهو أن يأخذَ ولدَه بمبادئِ الآداب؛ ليأنَسَ بها، وينشَأ عليها؛ فيسهُلَ عليه قبولُها لاستئناسِه على مبادئها في الصغرِ؛ لأنّ نشأةَ الصغيرِ على شيءٍ تجعلُه متطبِّعًا به.

عَوِّد بَنِيكَ عَلَى الآدَابِ فِي الصِّغَرِ كَيمَا تَقَرَّ بِهِم عَينَاكَ فِي الكِبَرِ
فَإِنَّمَا مَثَلُ الآدَابِ تَجمَعُهَا فِي عُنفُوَانِ الصِّبَا كَالنَّقشِ فِي الحَجَرِ



قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[٦٨] لَا يَفتَخِــرْ بِمَطعَــمٍ أو مَشرَبِ ولَا بِشَيءٍ صَــارَ مِن مِلكِ الأبِ
[٦٩] ثُــمَّ لِيُعظِــمْ غَايَــةَ الإعظَامِ مَــن كَانَ ذَا دِيــنٍ مِــنَ الأنَامِ
[٧٠] والوالِدَيــنِ الــكُلَّ والمُؤَدِّبَــا والأقرَبِــينَ نِســبَةً والصَّاحِبَــا

الشرح:

يَروي هذا الحديثَ الصحابيُّ الجليلُ أبُو مُوسَى الأشعَرِيُّ رضي الله عنه: قـال رَسُـولُ الله ﷺ: «إنّ مـن إجـلالِ الله: إكرامَ ذِي الشَّـيبَةِ المُسـلِمِ، وحامِلِ القُرآنِ غَيرِ الغالِي فيه، والجافِي عَنهُ، وإكرامَ ذِي السُّلطانِ المُقسِطِ»[١].

«إنّ من إجلالِ الله»؛ أي: تَبجِيله وتَعظيمِه.

«إكرامَ ذي الشَّيبةِ المُسلمِ»؛ أي: تَعظيمَ الشيخِ الكبيرِ في الإسلام، بتوقيرِه فـي المجالـس، والرفـقِ بـه، والشـفقةِ عليـه، ونحوِ ذلـك، كلُّ هذا مـن كمالِ تعظيمِ الله؛ لحرمتِه عند الله.

«وحاملِ القُرآن»؛ أي: وإكرامَ حافِظِه، وسمّاه حاملًا له لِما يَحمِل لمشاقَّ كثيـرةٍ، تزيـدُ على الأحمـالِ الثقيلة، قالـه العَزيزيُّ. وقال القـاري: أي: وإكرامَ

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسـنه النووي في رياض الصالحين (٣٥٨)، والذهبي في ميزان الاعتـدال (٤: ٥٦٥)، وابن مفلـح فـي الآداب الشـرعية (١: ٤٣٤)، والعراقـي في تخريج الإحياء (٢: ٢٤٥)، وابن حجر في تلخيص الحبير (٢: ٦٧٣).

قارئه، وحافظِه، ومفسِّره.

«غيرِ الغالي فيه»؛ أي: في القُرآن. والغلوُّ: التشديدُ ومجاوزةُ الحدِّ، يعني: غيرَ المتجاوِزِ الحدَّ في العملِ به، وتتبُّعِ ما خفِي منه واشتَبه عليه من معانِيه، وفي حدودِ قراءتِه ومخارجِ حروفِه، قاله العزيزيُّ.

«والجافي عنه»؛ أي: وغيرِ المتباعدِ عنه، المُعرِضِ عن تلاوتِه، وإحكامِ قراءتِه، وإتقانِ معانِيه، والعملِ بما فيه.

وقيل: الغلوُّ: المبالغةُ في التجويدِ، أو الإسراعُ في القراءةِ بحيث يمنعُه عن تدبُّرِ المعنى.

والجفاء: أن يتركَه بعدما علِمه، لا سيما إذا كان نسِيه، فإنّه عُدَّ من الكبائرِ.

قال في «النهاية»: ومنه الحديثُ: «اقرَؤوا القرآنَ ولا تَجفُوا عنه»؛ أي: تَعاهَدوه ولا تبعُدوا عن تلاوتِه؛ بأن تَترُكوا قراءتَه، وتَشتَغِلوا بتفسيرِه وتأويلِه.

ولذا قيل: «اشتَغِل بالعلمِ بحيث لا يمنعُك عن العملِ، واشتَغِل بالعملِ بحيث لا يمنعُك عن العلمِ».

وحاصلُه: أنّ كُلًّا من طرفَي الإفراطِ والتفريطِ مذمومٌ، والمحمودُ هو الوسطُ العدلُ المطابقُ لحالِه ﷺ في جميعِ الأقوالِ والأفعال. كذا في «المرقاة شرح المشكاة».

«وإكرامَ ذي السلطانِ المُقسطِ» بضمِّ الميم؛ أي: العادِلِ.

ويؤدِّبُه أنّ العزَّ والفخرَ بتقوى الله وليس بالمَطعَمِ والمَشرَبِ والمَنصِبِ والجاهِ؛ فنحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلامِ.

وانظروا معي:

وقَف هارونُ الرشيدُ يومًا ينظرُ إلى السماءِ فرأى سَحابةً تمرُّ، فخاطَبها قائلًا: أمطِري أنَّى شئتِ، فسيأتيني خراجُك.

فالسحابةُ إمّا أن تُفرِغَ ماءها في أرضٍ إسلاميةٍ أو غيرِ ذلك، ففي الأولى سينتفعُ بها المسلمون في شرابِهم وزراعتِهم، وفي الثانيةِ سينتفعُ ببعضِها أيضًا المسلمون في صورةِ جزيةٍ يؤدِّيها غيرُ المسلِمين إلى دولةِ الخِلافة.

هذه الصورةُ تعبِّرُ عن حالةِ العزّةِ التي وَصَل إليها المسلمون في سالفِ الزمانِ حين كانوا عامِلين بدينِهم ولدينِهم، وعزُّهم بإسلامِهم وأخلاقِهم وتقواهم.

والمسلمون في هذا الزمانِ مُطالَبون بالأخذِ بأسبابِ العزةِ.

فما معنى العِزّة؟

إنّ العزّةَ في اللغةِ تدورُ حول: القوّةِ والغلَبة، والرِّفعةِ والامتناع؛ فهي حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ أن يُغلَبَ أو يُمتهَنَ. قال ابنُ الجَوزيِّ رحمه الله: قال بعضُ المفسِّرين: العزّةُ في القرآنِ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحدها: العظمة، ومنه قولُه تعالى عن سَحَرةِ فِرعونَ: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقولُه عن إبلِيسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

والثاني: المنَعةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٣٩].

والثالث: الحَمِيّةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وقولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

ومن ذلك نَلحظُ أنّ هناك عزّةً ممدوحةً، وأخرى مذمومةً:

فالعزةُ الممدوحةُ: هي التي لله ولرسولِه وللمؤمنين، فهي عزّةٌ حقيقيّةٌ دائمة؛ لأنّها من الله وبالله الذي لا يُغالَبُ ولا يُقاوَمُ سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

أمّا عزّةُ الكفّارِ فهي في الحقيقةِ ذلٌّ وهوانٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقد أخطَأ كثيرٌ من الناسِ طريقَ العزِّ والغلَبةِ والتمكينِ، فطلَبها بعضُهم بالمال، وما علِم أنّ هذا المالَ فتنةٌ ووبالٌ إن لم يُؤدِّ صاحبُه حقَّ الله تعالى، بل قد يكونُ هذا المالُ سبيلًا إلى ذُلِّه. قال الحسنُ: والله ما أعزَّ أحدٌ الدرهمَ إلا أذلَّه الله. وكم رَأينا ذلك في دنيا الناسِ.

وبعضُهم يَتعزَّزُ بمنصبِه وجاهِه، وهو ما قد يحقِّقُ له عزًّا مؤقتًا، لكنّه إن لم يكن على أساسٍ من العدلِ وحُسنِ السيرة، فإنّه حتمًا لن يدومَ، فكم رأينا من رئيسٍ أو زعيمٍ كان يملأُ الدنيا ضجيجًا إذا به يصبحُ أسيرَ القضبانِ في غياهبِ السجون؛ فتبدَّل عزُّهُ ذُلًّا. وبعضُهم تقتلُه بعوضةٌ، وبعضُهم خسَف الله به الأرضَ.

وأخطرُ من ذلك: مَن يطلبُ العزّةَ عند الكافرِين فيواليهم ويميلُ إليهم، ولو كان على حسابِ المسلمِين!!

وهذا وهمٌ؛ إذ هو في الحقيقةِ ذُلٌّ عاجلٌ.

ومن واقعِ الناسِ نلحظُ أنّ أوّلَ مَن يتسلَّطُ على هؤلاء هم أولياؤهم من الكافرين.

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

فالارتماءُ في أحضانِ الكافرين طلبًا للعزِّ هو في الحقيقةِ أقصرُ طريقٍ إلى الذلِّ والهوان؛ لأنّ هؤلاء الكافرِين لن يَرضَوا منّا بأقلَّ من الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومن الناسِ مَن يعتزُّ بنسبِه وقبيلتِه، وإن كانوا على غيرِ هُدًى.

وعن أبي ريحانةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن انتَسب إلى تسعةِ آباءٍ كفارٍ، يريدُ بهم عزًّا وفخرًا، فهو عاشرُهم في النارِ».

والحقُّ الذي لا مِراءَ فيه أنّ مَن رام العزّةَ: فليطلُبها بطاعةِ الله.

إنّ المسلمَ حين يعيشُ حياةَ الطاعةِ فإنّه يعيشُ عزيزًا كريمًا.

نعم قد يُبتلَى لكنّه ذو نفسٍ عزيزةٍ، وقد تَجلَّى ذلك واضحًا في حياةِ السلفِ رضي الله عنهم، حتى في أحلَكِ اللحظاتِ وأشدِّ المواقفِ وأقساها.

مواقف تشهد بعزتهم:

بلالُ بنُ رباحٍ رضي الله عنه:

مشهدُ العزّةِ الذي يتجلَّى في حالةِ بلالٍ رضي الله عنه، وهو يُعذَّبُ بمكةَ في حَرِّها، وتُوضَعُ الصخرةُ العظيمةُ على صدرِه، لا ليرتدَّ عن الإيمان، ولكن

ليكفَّ عن سبِّ آلهتِهم أو ليسكُتَ، لكنَّ عزةَ الإيمانِ تنطقُ على لسانِه: «أحدٌ أحدٌ». لتظلَّ أنشودةً خالدةً تترنَّمُ بها الأجيالُ على مدى الزمانِ، وليصبَّ اليأسَ في نفوسِ مَن عذَّبوه.

فمَن العزيزُ في هذا المَشهَد؟ أهو ذلك العبدُ المستضعَفُ المُعذَّب، أم ذلك الكافرُ المتغطرِس؟

بلالٌ بلا شكٍّ هو العزيزُ؛ لأنّ العزّةَ عزّةُ الطاعةِ، والذليلُ ذليلُ المعصيةِ والكفر.

عبدالله بن حُذافة السَّهمي:

جاء في «سيرِ أعلامِ النبلاء»: أحدُ السابقِين، هاجَر إلى الحبشة، ونفَّذه النبيُّ ﷺ رسولًا إلى كِسرى، وله روايةٌ يسيرة.

خرَج إلى الشامِ مجاهدًا، فأُسِر على قيساريةَ، وحمَلوه إلى طاغيتِهم، فراوَده عن دينِه، فلم يَفتتِن.

حدَّثنا عبدُ العزيزِ القَسمَليُّ: حدَّثنا ضرارُ بنُ عمروٍ، عن أبي رافعٍ، قال: وجَّه عمرُ جيشًا إلى الرومِ، فأسَروا عبدَ الله بنَ حُذافة، فذهَبوا به إلى مَلِكِهم، فقالوا: إنّ هذا من أصحابِ محمدٍ، فقال: هل لك أن تتنصَّرَ وأُعطِيَك نصفَ مُلكِي؟ قال: لو أعطَيتَني جميعَ ما تملكُ، وجميعَ ما تملكُ، وجميعَ مُلكِ العربِ، ما رجعتُ عن دينِ محمدٍ طرفةَ عينٍ. قال: إذًا أقتلُك. قال: أنت وذاك، فأمَر به، فصُلِب، وقال للرُّماة: ارمُوه قريبًا من بدنِه، وهو يعرضُ عليه، ويأبى.

فأنزَلـه، ودَعـا بقِـدرٍ، فصـبَّ فيها مـاءً حتى احتَرقـت، ودعا بأسـيرَين من المسلمِين، فأمَر بأحدِهما، فأُلقي فيها، وهو يعرضُ عليه النصرانيّةَ، وهو يأبى، ثم بَكى، فقيل للملك: إنّه بَكى، فظنَّ أنّه قد جزِع، فقال: رُدُّوه. ما أبكاك؟ قال: قلـت: هـي نفسٌ واحدةٌ تُلقى السـاعةَ فتذهـبُ، فكنتُ أشـتهي أن يكونَ بعددِ شعري أنفسٌ تُلقى في النارِ في الله.

فقال له الطاغيةُ: هل لك أن تُقبِّلَ رأسي وأُخلِّي عنك؟

فقال له عبدُ الله: وعن جميعِ الأُسارى؟ قال: نعم، فقبَّل رأسَه.

وقدِم بالأسـارى على عمرَ، فأخبَره خبرَه، فقال عمرُ: حقٌّ على كلِّ مسلمٍ أن يقبِّلَ رأسَ ابنِ حُذافةَ، وأنا أبدأُ، فقبَّل رأسَه.

وحدَّثنـا أبو عمـرٍو، ومالكُ بنُ أنسٍ: أنّ أهلَ قيسـاريةَ أسَـروا ابنَ حُذافةَ، فأمَـر بـه ملكُهم، فجُرِّب بأشـياءَ صبَر عليها. ثم جعَلوا له فـي بيتٍ معه الخمرَ ولحمَ الخنزيرِ ثلاثًا لا يأكلُ، فاطَّلعوا عليه، فقالوا للملكِ: قد انثَنى عنقُه، فإن أخرجتَـه وإلا مـات، فأخرَجه، وقال: ما منعَك أن تأكلَ وتشـربَ؟ قال: أما إنّ الضرورةَ كانت قد أحلَّتها لي، ولكن كرهتُ أن أشـمِّتَك بالإسـلام. قال: فقبِّل رأسـي، وأُخلِّي لك مئةَ أسـيرٍ. قال: أمّا هذا، فنعم. فقبَّل رأسَـه، فخلَّى له مئةً، وخلَّى سبيلَه.

وقـد رَوى ابنُ عائـذٍ قصـةَ ابنِ حُذافةَ فقـال: حدَّثنا الوليدُ بـنُ محمدٍ: أنّ ابنَ حذافـةَ أُسـر، فذكَـر القصةَ مطوَّلةً، وفيهـا: أطلَق له ثلاثَمئةِ أسـيرٍ، وأجازه بثلاثين ألفَ دينارٍ، وثلاثين وصيفةً، وثلاثين وصيفًا.

ولعل هذا الملكَ قد أسلَم سِرًّا. ويدلُّ على ذلك مبالغتُه في إكرامِ ابنِ حُذافةَ.

وكذا القولُ في هِرَقلَ إذ عرَض على قومِه الدخولَ في الدينِ، فلمّا خافهم قال: إنّما كنتُ أختبرُ شدّتكم في دينِكم.

ومات ابنُ حُذافةَ في خلافةِ عثمانَ رضي الله عنهم.

سببُ ذُلِّ المسلمِين اليوم:

تصديقًا لقولِ الرسولِ ﷺ: «وجعَل الذلةَ والصَّغارَ على مَن خالَف أمري». وها نحن نرى ما يحدثُ للمسلمِين في فلسطينَ وغزةَ وغيرِهما، هنا وهناك ولا يتحرَّكُ ساكنٌ، وكأنّ ما يحدثُ لإخوانِنا المسلمِين لا يَعنِينا، برغمِ أنّ تاريخَنا يشهدُ أنّنا لم نكن كذلك فيما مَضى.

فحين استغاثَت امرأةٌ مسلمةٌ وقَعت في أسرِ الرومِ بعَمُّوريةَ بخليفةِ المسلمِين المعتصمِ وأطلقَت صيحتَها المشهورةَ: واإسلاماه، أجابها المعتصمُ بملءِ فيه: لبَّيكِ، وجهَّز جيشًا قرابةَ تسعين ألفًا سار به إلى عَمُّوريةَ، وأنزَل بأهلِها شرَّ هزيمةٍ، واستَنقذ المرأةَ المسلمةَ من أيدِي المشركِين.

وبدخولِ المسلمِين للمدينةِ وسيطرتِهم عليها والقبضِ على حاكمِها؛ انتهت معركةُ عَمُّوريةَ بنصرٍ مؤزَّرٍ للمسلمِين، حيث غنِموا من عَمُّوريةَ أموالًا لا تُحَدُّ ولا تُوصفُ، فحمَلوا منها ما أمكَن حَملُه، وأمرَ المعتصمُ بإحراقِ ما بقِي من ذلك، وبإحراقِ ما هنالك من المجانيقِ والدباباتِ وآلاتِ الحربِ؛ لئلّا يتقوّى بها الرومُ على شيءٍ من حربِ المسلمِين، ثم انصرف المعتصمُ

راجعًا إلى ناحيةِ طَرَسوسَ في آخرِ شوالٍ من هذه السنةِ. وكانت إقامتُه على عَمُّوريةَ خمسةً وعشرين يومًا، كما يَروي ابنُ كثيرٍ.

أبو تمام يخلِّد المعركة:

لم يُخلِّد نصٌّ تاريخيٌّ معركةَ عَمُّوريةَ مِثلَما خلَّدها أبو تمامٍ الشاعرُ الحكيمُ الطائيُّ الذي رافَق الجيشَ الفاتحَ، من التخطيطِ إلى التنفيذِ إلى الأوبةِ المظفَّرةِ، وقد دخَلت قصيدتُه الشهيرةُ أرحامَ الأيامِ وتَناسَلتها السنون، وهي تضجُّ في الدواوينِ وعلى ألسنةِ الخطباء وفي رنينِ القصص.

لم يُطِلَّ أبو تمامٍ قصيدتَه بمقدمةٍ طلَليةٍ، بل دخَلها فارعَ الحكمة وهاج البيانُ مسقطًا سطوةَ التنجيمِ، ومتوِّجًا السيفَ والرمحَ على عرشِ البيانِ والاقتدار:

السَّيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بيضُ الصَّفَائحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ
وَالعِلمُ فِي شُهُبِ الأرمَاحِ لَامِعَةً بَينَ الخَمِيسَينِ لَا فِي السَّبعَةِ الشُّهُبِ
أينَ الرِّوَايَةُ، بَل أينَ النُّجُومُ وَمَا صَاغُوهُ مِن زُخرُفٍ فِيهَا وَمِن كَذِبِ؟
تَخَرُّصًا وَأحَادِيثًا مُلَفَّقَةً لَيسَت بِنَبعٍ إذَا عُدَّت وَلَا غَرَبِ
عَجَائِبًا زَعَمُوا الأيَّامَ مُجفِلَةً عَنهُنَّ فِي صَفَرِ الأصفَارِ أو رَجَبِ
وَخَوَّفُوا النَّاسَ مِن دَهيَاءَ مُظلِمَةٍ إذَا بَدَا الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذُو الذَّنَبِ
وَصَيَّرُوا الأبرُجَ العُليَا مُرَتَّبَةً مَا كَانَ مُنقَلِبًا أو غَيرَ مُنقَلِبِ
يَقضُونَ بِالأمرِ عَنهَا وَهْيَ غَافِلَةٌ مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنهَا وَفِي قُطُبِ
لَو بَيَّنَت قَطُّ أمرًا قَبلَ مَوقِعِهِ لَم تُخفِ مَا حَلَّ بِالأوثَانِ وَالصُّلُبِ

فَتــحُ الفُتُــوحِ تَعَالَى أن يُحِيــطَ بِهِ   نَظمٌ مِنَ الشِّــعرِ أو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَتــحٌ تَفَتَّــحُ أبــوَابُ السَّــمَاءِ لَــهُ   وَتَبــرُزُ الأرضُ فِي أثوَابِهَا القُشُــبِ
يَــا يَــومَ وَقعَــةِ عَمُّورِيَّــةَ انصَرَفَت   عَنكَ المُنَى حُفَّلًا مَعسُــولَةَ الحَلَبِ
أبقَيــتَ جَدَّ بَنِي الإســلَامِ فِي صُعُدٍ   وَالمُشــرِكِينَ وَدَارَ الشِّركِ فِي صَبَبِ
أُمٌّ لَهُــم لَو رَجَوا أن تُفتَــدَى جَعَلُوا   فِــدَاءَهَــا كُــلَّ أُمٍّ بَــرَّةٍ وَأبِ

ورَدًّا على المنجِّمِين ومَن سار في رَكبِهم ممن نصَحه ألا يَغزُوَ في الصيفِ، بل ينتظرُ نضجَ التينِ والعنبِ:

تِســعُونَ ألفًا كَآسَادِ الشَّرَى نَضِجَت   جُلُودُهُم قَبلَ نُضــجِ التِّينِ وَالعِنَبِ

مدحُ الخليفةِ، وسامُ الشعرِ لصانعِ الانتصارِ العسكريِّ:

ثـم يُضفِي الشـاعرُ أبو تمامٍ أسـمى آياتِ المـدحِ، وأبهرَ حُلَلِ الثناءِ على المعتصمِ الذي قاد هذا الفتحَ، وأنجَد تلك المرأةَ الصارخة:

لَقَــد تَرَكــتَ أَمِيــرَ المُؤمِنِيــنَ بِهَا   لِلنَّارِ يومًا ذَلِيلَ الصَّخرِ وَالخَشَــبِ
غَادَرتَ فِيهَا بَهِيمَ اللَّيلِ وَهْوَ ضُحًى   يَشُــلُّهُ وَســطَهَا صُبحٌ مِــنَ اللهبِ
حَتَّى كَأنَّ جَلَابِيــبَ الدُّجَى رَغِبَت   عَن لَونِها أو كَأنَّ الشَّــمسَ لَم تَغِبِ
ضَوءٌ مِــنَ النَّــارِ وَالظَّلمَــاءُ عَاكِفَةٌ   وَظُلمَةٌ مِن دُخَانٍ فِي ضُحًى شَحِبِ
فَالشَّــمسُ طَالِعَةٌ مِــن ذَا وَقَد أفَلَت   وَالشَّــمسُ وَاجِبَةٌ مِن ذَا وَلَم تَجِبِ

نظَـم أبو تمـامٍ قصيدةً عظيمةً مجَّد فيها انتصارَ المعتصـمِ وفتحَه لعَمُّوريةَ رغمَ تخرُّصاتِ المنجِّمين:

تَصَرَّحَ الدَّهــرُ تَصرِيــحَ الغَمَامِ لَهَا   عَن يَومِ هَيجَــاءَ مِنهَا طَاهِــرٍ جُنُبِ

لَم تَطلُعِ الشَّــمسُ فِيهِ يَومَ ذَاكَ عَلَى ... بَانٍ بِأهــلٍ وَلَم تَغــرُب عَلَى عَزَبِ
مَــا رَبــعُ مَيَّــةَ مَعمُــورًا يُطِيــفُ بِهِ ... غَيلَانُ أبهَى رُبًا مِــن رَبعِهَا الخَرِبِ
وَلَا الخُدُودُ وَقَــد أُدمِينَ مِن خَجَلٍ ... أشــهَى إلَى نَاظِرِي مِن خَدِّهَا التَّرِبِ
سَــمَاجَةٌ غَنِيَــت مِنَّــا العُيُــونُ بِهَا ... عَن كُلِّ حُســنٍ بَــدَا أو مَنظَرٍ عَجَبِ
وَحُســنُ مُنقَلَــبٍ تبقَــى عَوَاقِبُــهُ ... جَاءَت بَشَاشَــتُهُ عَن سُــوءِ مُنقَلَبِ
لَم يَعلَمِ الكُفرُ كَم مِن أعصُرٍ كَمَنَت ... لَــهُ المَنِيَّــةُ بَيــنَ السُّــمرِ وَالقُضُبِ



قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[٧١] وإن ظَهَــر فِعلُ الجَميــلِ مِنهُ   فَيَنبَــغِي بِــأن يُجَــازَى عَنــهُ
[٧٢] وأن يُجِــلَّ قَــدرَهُ ويَمــدَحْ   بِمَــا بــه مــن الأنَــامِ يَفــرَحْ
[٧٣] وإن فَعَــلْ فِعــلًا ذَميمًــا سِرًّا   فَيَنبَــغِي ألَّا يُعَاتَــبْ جَهــرَا
[٧٤] ولَا يُــذَمَّ بَينَ أصنَــافِ الورَى   فَإنَّــهُ يُخــشَى بِــأن يَتْجــاسَرا
[٧٥] ولَا يُبَــالِي بَعــدَهُ بِالعَــذلِ   وبِالمَــلَامِ عِنــدَ كُلِّ فِعــلِ
[٧٦] بَــل يَنبَــغِي عِتَابُــهُ بِحَيثُ لَا   يَظهَــرْ عليــه أحَدٌ مِــنَ المَلَا
[٧٧] يَقُــولُ: هَذِي ـ إن عَلِمْ عَلَيهِ ـ   فَضِيحَــةٌ، فَــلَا يَعُــد إلَيــهِ
[٧٨] ولَا تُكَــثِّرْ عِنــدَهُ الكَلَامَــا   فَإنَّــهُ يُهَــوِّنُ المَلَامَــا
[٧٩] يُخــشَى بِــأن يَجــزِمْ ولَا يُبَالِي   بِمَــا أتَــاهُ بَعــدُ مِــن أفعَــالِ
[٨٠] يُحَــذِّرُوهُ غَايَــةَ التَّحذِيــرِ   مِنَ الكَــذِبْ والفُحشِ والفُجُورِ
[٨١] وسِرقَــةٍ والأكلِ لِلحَــرَامِ   فَإنَّــهُ مِــن مُوجِــبِ الآثَــامِ

الشرح:

وطريقةُ التربيةِ في هذه المرحلةِ، والتي هي الأخطرُ والأصعبُ:

١ـ الحرصُ البالغُ على التشجيعِ، والمدحُ والمكافأةُ بما يُفرِحُه ويُنشِّطُه للخيرِ.

٢ـ تَذكَّروا أيُّها الآباءُ أنّ الدمَ الصحيَّ الذي يحتاجُ إليه أبناؤكم هو التقديرُ والتشجيعُ، لا تَحرِموهم منه؛ فقد يُصابون بفقرِ الدمِ.

٣- أن يحرصَ على نُصحِه سرًّا إن أخطأ سِرًّا.

٤- ولا يذمَّه بين الناسِ.

٥- ولا يُكثِر عليه في اللوم؛ لئلا يتجاسرَ على اقترافِ الخطأ مكابرةً، أو تسهُلَ عليه معرّةُ فعلِه، ولا يُبالِي بعد ذلك بلومِ اللائمِ.

بل يهدِّدُه أنّ ذلك قد يَظهَرُ للناس؛ فيفتضحُ بينهم، وهذه المرحلةُ من بداياتِ فترةِ المراهقةِ الحرجة؛ فيأخذُ في تربيتِه بهذا فهو من أنفعِ الأمور.

ويهتمُّ كذلك بحسنِ التحاورِ معه؛ لإفهامِه عواقبَ ما لا يُحمَدُ مما يظهرُ على الصبيانِ في هذه المرحلةِ من الكذبِ والسرقةِ، أو فعلِ فُحشٍ، أو أكلِ مالٍ حرام، أو تدخينٍ أو مخدِّراتٍ أو غيرِ ذلك.

ولا نَنسى أنّ الباطنَ مهمٌّ في التربيةِ، وأقصدُ به الذكرَ والدعاءَ والإكثارَ من الذكرِ والتهجُّدِ والدعاءِ لهم في ساعاتِ التهجُّد(١).

وقد سبَقَ أنّ من أهمِّ وسائلِ التربيةِ في هذه السنِّ بناءَ صحبةٍ طيبةٍ مع الأخيارِ؛ لينطبعَ بطباعِهم، ويسلمَ من مصاحبةِ الأشرارِ، ومصاحبتَه لمجالسِ العلمِ وتعرُّضَه للصالحِين، قال الإمامُ السَّمَرقَنديُّ: مَن جلَس مع الصالحِين زاده الله الرغبةَ في الطاعاتِ واجتنابِ المحرماتِ.

---

(١) ومما أخبرنا به شيخنا الشيخ حسن رزوق رحمه الله أنه اشتكى له رجل وهو يبكي حال أولاده أنهم لا يصلون، فقال له: إذا أردت لهم الهداية فعليك بالتهجد سبع ليالٍ متواصلة، والدعاء لهم مع التذلل لله والبكاء من أجلهم، فذهب الرجل وعاد بعد مدة يقبِّل يد الشيخ، وقال له: والله هم الآن يوقظونني لصلاة الفجر. وهي مجرَّبة لكل حاجة يريدها الإنسان، فلا تتركوها مع التنبيه إلى ضرورة البكاء، وأن تكون سبع ليالٍ متتالية دون انقطاع.

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحَبَشيُّ: الفهمُ نورٌ يُشرِقُ في القلبِ، ولا يُعطاه إلا مَن جالَس الصالحِين وطالَع كتبَهم.

وقال بعضُ العارفِين بالله: مَن جالَس الأخيارَ حظِي بالمعارفِ والأسرارِ، ومَن جالَس الأشرارَ استحقَّ العارَ والنارَ.

وقال الإمامُ الحدّاد: واعلَم أنّ مخالطةَ أهلِ الخيرِ ومجالستَهم تزرعُ في القلبِ محبّةَ الخيرِ، وتُعِينُ على العملِ به، كما أنّ مخالطةَ أهلِ الشرِّ ومجالستَهم تغرسُ في القلبِ حبَّ الشرِّ وحبَّ العملِ به.

فهذا خِطابي إلى أولادي وطلابي وكل من يقبل نصحي:

أي بُنَيَّ،

بالله عليك،

احذَر كلَّ الحذرِ من صحبةِ أصحابِ السوءِ الذين يدلُّونك على الحرامِ والتدخينِ والفواحشِ، ويَصرِفونك عن المساجدِ، فصاحبُ السوءِ سمٌّ قاتلٌ.

واعلَم أنّ صحبةَ الصالحِين أمانٌ للإنسانِ في الدنيا والآخرةِ.

وإليك فوائدَ مجالسةِ الصالحِين:

١ـ أنّ مَن جالَس الصالحِين تشملُه بركةُ مجالسِهم، ويعمُّه الخيرُ الحاصلُ لهم، وإن لم يَعمَل عملَهم، قال بعضُ الحُكماءِ: «مَن جالَس خيِّرًا أصابَته بركتُه، فجليسُ أولياءِ الله لا يَشقى وإن كان كلبًا ككلبِ أصحابِ الكهفِ».
يقولُ الحبيبُ عبدُ الرحمنِ السقّافُ: جلوسُك بين يدَي العارفِ خيرٌ لك من

أن تتقطّعَ بالعبادةِ، فإمّا أن ينظُرَ إليك أو تنظرَ إليه، فإن نظرتَ إليه اقتبست منه، وإن نظرَ إليك غيَّر حالَك.

٢ـ أنّ المرءَ مجبولٌ على الاقتداءِ بجليسِه والتأثُّرِ بعلمِه وعملِه وسلوكِه ومنهجِه، قال الرسولُ ﷺ: «المرءُ على دينِ خليلِه، فليَنظُر أحدُكم مَن يُخالِل». (رواه أبو داودَ).

٣ـ أنّ جَلِيسَك الصالحَ يُبصِّرُك بعيوبِك ويدلُّك على أوجُهِ الضعفِ عندك، قال الحسنُ رحمه الله: «المؤمنُ مرآةُ أخِيه؛ إن رأى فيه ما لا يُعجِبُه سَدَّده وقَوَّمه وحاطه، وحفِظه في السرِّ والعلانيةِ».

٤ـ أنّك تتعرَّفُ على أخطائك السلوكيةِ وفي أمرِ العبادةِ من خلالِ مقارنةِ أعمالِك بما عليه جليسُك.

٥ـ أنّك تكفُّ بسببِ جليسِك الصالح عن المعصيةِ.

٦ـ أنّه يُرشِدُك ويدلُّك على أمورٍ من أمورِ الخيرِ ينفعُك العلمُ بها.

٧ـ أنّ مجالستَهم حفظٌ للوقتِ الذي هو الحياةُ، وهو الوعاءُ لكلِّ الأعمالِ.

٨ـ أنّ جليسَك الصالحَ يحفظُك في حضرتِك وغيبتِك، فلا يُفشِي لك سرًّا، ولا ينتهكُ لك حُرمةً.

٩ـ أنّ المرءَ بمجرَّدِ رؤيتِه الصالحِين والأخيارَ يذكرُ الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «أولياءُ الله تعالى الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله تعالى». قال قوسُ بنُ عقبةَ رحمه الله: «إنّي كنتُ لألقى الأخَ من إخواني فلَأكونُ بلُقيِّه عاقلًا أيامًا».

١٠ـ أنّهم زَينٌ وأنسٌ لك في الرخاءِ، وعدّةٌ في البلاءِ، وخيرُ معينٍ لتخفيفِ همومِك وحلِّ مشكلاتِك، خرَج ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه مرةً على أصحابه فقال: أنتم جلاءُ حزني. وقال أكثَمُ بنُ صيفيٍّ رحمه الله: لقاءُ الأحبّةِ مَسلاةٌ

للهَمِّ. وقال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: عليك بإخوانِ الصدقِ فعِش في أكنافِهم؛ فإنّهم زينٌ في الرخاءِ وعُدّةٌ في البلاءِ.

١١ـ أنّ مصاحبتَك لأهلِ الخيرِ سببٌ في دخولِك ضمنَ الذين لا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ ولاهم يَحزَنون؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ❁ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧-٦٨].

١٢ـ أنّك تنتفعُ بدعائهم لك بظهرِ الغيبِ في حياتِك وبعد مماتِك؛ قال عليه الصلاة والسلام: «دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيه بظهرِ الغيبِ مستجابةٌ، عند رأسِه ملَكٌ موكَّلٌ كُلَّما دَعا لأخيه بخيرٍ قال الملَكُ الموكَّلُ به: آمين ولك بمثلٍ». (رواه مسلمٌ).

وقال عبيدُ الله بنُ الحسينِ رحمه الله لرجُلٍ: استَكثِر من الصديقِ ـ يعني الصالحَ ـ؛ فإنّ أيسرَ ما تصيبُ أن يبلغَه موتُك فيدعوَ لك.

١٣ـ أنّ مجالسَ أهلِ الخيرِ يَهابُها شياطينُ الإنسِ والجنِّ؛ قال عليه الصلاة والسلام: «عليك بالجماعةِ؛ فإنّما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ». (أخرَجه الإمامُ أحمدُ).

١٤ـ أنّ المجالسةَ والمصادقةَ والزيارةَ في الله سببٌ لمحبّةِ الله تعالى، كما في الحديثِ القدسيِّ: قال رسولُ الله ﷺ: «وجَبت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالِسين فيَّ، والمُتَزاوِرين فيَّ، والمُتَبادِلين فيَّ». (رواه مالكٌ).

١٥ـ أنّ مجالسَ الصالِحين مجالسُ ذكرِ الله عز وجل، قال ﷺ: «لا يقعدُ قومٌ يَذكرون الله عز وجل إلا حَفَّتهم الملائكةُ، وغشِيتهم الرحمةُ، ونزَلت عليهم السكينةُ، وذكَرهم الله فيمَن عنده». (رواه مسلمٌ).

١٦ـ أنّ المرءَ بزيارتِه إخوانَه في الله يطيبُ بنفسِه ويطيبُ ممشاه ويتبوَّأُ منازلَ عظيمةً في الجنةِ، قال ﷺ: «مَن عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه مُنادٍ: أن طِبتَ وطاب مَمشاك وتبوَّأتَ من الجنةِ منزلًا». (أخرَجه الترمذيُّ).

١٧ـ ومن ثمراتِ مجالسةِ الصالحِين أنّها تُؤدِّي إلى محبَّتِهم في الله، والحبُّ في الله له ثمراتٌ عظيمةٌ وآثارٌ جليلةٌ في النفوسِ، وقد رتَّب الله عليه الأجورَ العظيمةَ والثوابَ الجزيلَ.

١٨ـ وبالجملةِ: فالجليسُ الصالحُ مَنفعةٌ لك من كلِّ وجهٍ في دِينِك ودُنياك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ إن ماشَيتَه نفَعك، وإن شاوَرتَه نفَعك، وإن شارَكتَه نفَعك، وكلُّ شيءٍ من أمرِه مَنفعةٌ». (رواه أبو نُعيم).

يا بُنَيَّ،

اعلَم يا بُنيَّ وفَّقك الله للصوابِ أنّه لم يتميَّزِ الآدميُّ بالعقلِ إلا ليعملَ بمقتضاه، فاستحضِر عقلَك، وأعمِل فِكرَك، واخلُ بنفسِك، واعلَم أنّك مخلوقٌ مكلَّف، وأنّ عليك فرائضَ أنت مُطالَبٌ بها، وأنّ الملَكَين يُحصِيان ألفاظَك ونظراتِك، وأنّ أنفاسَ الحيِّ خُطاه إلى أجَلِه، ومقدارَ اللُّبثِ في الدنيا قليلٌ، والحبسَ في القبورِ طويلٌ، والعذابَ على موافقةِ الهوى وَبيل، وراعِ عواقبَ الأمورِ يَهُن عليك الصبرُ عن كلِّ ما تَشتهِي وما تَكرَهُ، وإن وجَدتَ من نفسِك غفلةً فاحمِلها إلى المقابرِ وذكِّرها قُربَ الرحيلِ.

فأين لذةُ أمس؟ رحَلت وأبقَت ندمًا.
وأين شهوةُ النفس؟ وكم نكَّست رأسًا وأزلَّت قدمًا؟

وما سعِد مَن سعِد إلا بخلافِ هَواه، ولا شقِي مَن شقِي إلا بإيثارِ دنياه، واعلم أنّ أداءَ الفرائضِ واجتنابَ المحارمِ لازمٌ، فمتى تعدَّى الإنسانُ فالنارُ النار.

فانتبِه يا بُنيَّ لنفسِك.
واندَم على ما مَضى من تَفريطِك.

واجتهِد في لحاقِ الكاملِين ما دام في الوقتِ سَعةٌ، واسقِ غُصنَك ما دامت فيه رطوبةٌ، واذكُر ساعتَك التي ضاعت فكفَى بها عِظةً، ذهبَت لذةُ الكسلِ فيها، وفاتَت مراتبُ الفضائلِ.

بكَى رجلٌ فقالوا: ما يُبكِيك؟ فقال: على يومٍ مَضى ما صُمتُه، وعلى ليلةٍ ذهبَت ما قُمتُها.

واعلَم يا بنيَّ أنّ الأيامَ تُبسَط ساعاتٍ، والساعاتِ تُبسَطُ أنفاسًا، وكلَّ نفَس خِزانةٌ، فاحذَر أن يذهبَ نفَسٌ بغيرِ شيءٍ فترَى في القيامةِ خِزانةً فارغةً فتندَم، وحاسِب نفسَك عند كلِّ نظرةٍ وكلمةٍ.

وأدِّ إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وانظُر لساعةٍ من ساعاتِك بماذا تذهبُ، فلا تُودِّعها إلا أشرَفَ ما يُمكِنُ، ولا تُهمِل نفسَك، وعوِّدها أشرفَ ما يكونُ من العملِ وأحسَنَه، وابعَث إلى صندوقِ القبرِ ما يسرُّك يومَ الوصولِ إليه كما قيل:

يَا مَن بِدُنيَاهُ اشتَغَلْ ... وَغَرَّهُ طُولُ الأَمَلْ
المَوتُ يَأتِي بَغتَةً ... وَالقَبرُ صُندُوقُ العَمَلْ

ثم يُوكِّلُ الأبُ لابنِه الأعمالَ المهمّة، ويُشارِكُه فيها أو يُتابِعُه على أدائها، والله يقول: ﴿طَوَّفُونَ عَلَيْكُم﴾ [النور: ٥٨]؛ أي: بالخدمةِ ونحوِها، وهذا إبراهيمُ

عليه السلام يُشرِكُ ابنَه إسماعيلَ عليه السلام في عملٍ من أشرفِ الأعمالِ ومن أعظمِها بركةً؛ وهو بناءُ البيتِ المحرَّم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ومع التوجيهِ عند الخطأ، والتشجيعِ عند الإصابةِ تكبُرُ المسؤولياتُ، ويكبرُ معها التميُّزُ في أدائها، والإبداعُ في عملِها.

فإذا كان النشوءُ صالحًا، كان هذا الكلامُ عند البلوغِ واقعًا مؤثِّرًا ناجعًا يَثبتُ في قلبِه كما يثبتُ النقشُ على الحجرِ، وإن وقَع النشوءُ بخلافِ ذلك حتى ألِف الصبيُّ اللعبَ، والفُحشَ والوقاحةَ، وشرَهَ الطعامِ واللباسِ، والتزيُّنَ والتفاخُرَ؛ نَبا قلبُه عن قبولِ الحقِ نَبْوةَ الحائطِ عن الترابِ اليابسِ، فأوائلُ الأمورِ هي التي ينبغي أن تُراعى؛ فإنّ الصبيَّ بجوهرِه خُلِق قابلًا للخيرِ والشرِّ جميعًا، وإنّما أبواه يَميلان به إلى أحدِ الجانبين؛ قال ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ، وإنّما أبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه».

قصص من ثمرة تربية الأولاد:

نسردُ عليكم بعضَ القصصِ والمواقفِ التي تعكسُ مدى اهتمامِ السلفِ الصالحِ بكيفيةِ تربيةِ الأولاد، وكيف كان يُربَّى أولادُ الصحابةِ، وثمرةَ ذلك.

منها: ما رواه البخاريُّ عن عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ رضي الله تعالى عنه قال: وقَف غلامٌ عن يَميني يسألُني في غزوةِ بدرٍ فقال: يا عمِّ، دُلَّني على أبي جهلٍ! ـ انظر كيف تَربَّى هذا الولدُ على عداوةِ أعداءِ الله ـ فقلتُ له: وما لك يا بُنيَّ من أبي جهلٍ؟! فقال: والله إن رأيتُه لن أُفلِتَه، لقد كان يُؤذِي رسولَ الله ﷺ.

فـإذا غـلامٌ آخرُ عن يَسـارِي، فسـألَني مثلَ الأوَّل، ثـم تحتدمُ المعركةُ ويشـتدُّ بأسُـها، فيلتفـتُ عبدُ الرحمنِ إلى الغلامَين فقال لهمـا: ذاك الذي تَبغِيان، ذاك أبو جهـلٍ، فينطلقـان مُسـرِعَين كلٌّ منهما يريدُ أن ينالَ شـرفَ السـبقِ في طعنِ عدوِّ الله ورسولِه ﷺ، فيَضرِبانه ضربةً قويةً فيَسقُطُ أبو جهلٍ فِرعونُ هذه الأمةِ على الأرضِ، فيَتَسـابقان بزفِّ البشـارةِ إلى رسـولِ الله ﷺ، ويقـولُ كلُّ واحدٍ منهمـا: أنـا الذي قَتلتُه يا رسـولَ الله، فيقـولُ لهم النبيُّ عليه الصلاة والسـلام: «أرِياني سُيوفَكما»، فيَرى عليهما آثارَ الدماءِ، فقال لهما: «كِلاكما قَتَله». فهذا ثمرةُ التربيةِ على محبّةِ هذا النبيِّ ﷺ والتضحيةِ لدينِ الله.

وهذه قصة أخرى:

مـرَّ الحارثُ المُحاسِـبيُّ وهـو صبيٌّ بصِبيانٍ يلعبون على بـابِ رجلٍ تمّارٍ يبيعُ التمر، فوقَف الحارثُ ينظرُ إلى لعبِهم، وخرَج صاحبُ التمرِ ومعه تمراتٌ فقـال للحـارثِ: كُلْ هـذه التمراتِ، فقال الحـارثُ: من أين أتيـتَ بالتمراتِ؟ قال: إنّي بِعتُ السـاعةَ تمرًا من رجلٍ فسَـقَطت هذه التمراتُ منه، فخُذها أنت كُلْها، فقال الحارثُ له: أتعرفُه؟ قال: نعم، فالتَفت الحارثُ إلى إخوانِه الصبيانِ الذين كانوا يلعبون فقال لهم: أهذا الشيخُ مسلمٌ؟!

قالوا: نعم، فتَرَكه، فتبِعه التمّارُ حتى قَبَض عليه وقال له: والله ما تَنفلتُ من يديَّ حتى تقولَ لي ما في نفسِـك مني، فقال: يا شـيخُ، إن كُنتَ مسلمًا فاطلُب صاحبَ التمراتِ حتى تتخلَّصَ من تبِعتِه، كما تطلبُ الماءَ إذا كنتَ عطشـانَ، يا شيخُ، تُطعِمُ أولادَ المسلمِين السُّحتَ وأنت مسلمٌ؟!

فقال الشيخ: والله لا اتَّجرتُ للدُّنيا أبدًا.

فهذه لم تأتِ من فراغ، بل هي ثمرةُ التربيةِ الصحيحةِ التي أخرَجت مثلَ هذه النماذج، على التقوى والورع؛ حتى إنّ الحارثَ المحاسبيَّ كان في إصبعِه عِرقٌ كلما وقَع في يدِه شيءٌ فيه شَبهةٌ ينبضُ هذا العرقُ، وهي كرامةٌ من الله له لحرصِه على أكلِ الحلالِ.

قصة أخرى:

قال ابنُ غفرٍ المكيُّ: بلَغني أنّ أبا سليمانَ داودَ بنَ نصيرٍ الطائيَّ رحمه الله لمّا بلَغ من العمرِ خمسَ سنواتٍ أسلَمه أبوه إلى المؤدِّب، فابتَدَأ بتلقينِ القرآنِ، وكان لَقِنًا ـ يعني: كان يحفظُ بسرعةٍ ـ فلمَّا تعلَّم سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١] وحفِظها رَأته أمُّه يومَ الجمعةِ وجهُه مُقبلٌ على الحائطِ يشيرُ متفكِّرًا بيدَيه، فخافت أمُّه على عقلِه فنادَته: قُم يا داودُ فالعَب مع الصبيانِ، فلم يُجِبها، فضَمَّته إليها وقالت: يا وَيلاه، فقال: ما لك يا أمّاه؟! أبك بأسٌ؟ قالت: أين أنت؟ قال: مع عبادِ الله. قالت: أين هم؟ قال: في الجنةِ، قالت: ما يَصنَعون؟ قال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ثم مرَّ في تلاوةِ السورةِ وهو شاخصٌ كأنّه يتأمَّلُ شيئًا، حتى تَلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، ثم قال: يا أمّاه، ما كان سَعيُهم؟ فلم تَدرِ ما تجيبُه، فقال لها: قومي عني حتى أتنزَّه عندهم ساعةً، فقامت عنه، فأرسلَت إلى أبيه، فأعلَمته شأنَ ولدِه، فقال له أبوه: يا داودُ، كان سعيُهم أن قالوا: لا إلهَ إلا الله، محمدٌ رسولُ الله ﷺ، فكان يقولُها في أكثرِ أوقاتِه حتى يكونَ ممن سعَى هذا السعيَ المشكورَ.

ومن ذلك ما حَكاه ابنُ غفرٍ المكيُّ أنّ أبا يزيدَ طيفورَ بنَ عيسى البِسطاميَّ لمّا بدَأ يحفظُ سورةَ المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]،

قال لأبيه: يا أبتِ، مَن الذي يقولُ الله تعالى له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؟

قال: يا بُنَيَّ، ذلك سيدُنا محمدٌ ﷺ، قال: يا أبتِ، ما لك لا تصنعُ كما صنَع سيدُنا رسولُ الله ﷺ؟!

فقال: يا بُنَيَّ، إنّ قيامَ الليلِ خُصِّص به ﷺ دون أُمَّتِه، فسكَت عنه، واستمرَّ في حفظِ السورةِ، فوصَل إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]، فالولدُ تأمَّل قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، وأبوه قال له: إنّها خاصةٌ بالرسولِ عليه الصلاة والسلام دون سائرِ الأمّة، فقال: يا أبتِ، إني أسمعُ أنّ طائفةً كانوا يقومون الليلَ مع النبيِّ ﷺ، فمَن هذه الطائفة؟ قال: يا بُنَيَّ، أولئك الصحابةُ رضوان الله عليهم أجمعين، قال: يا أبتِ، فأيُّ خيرٍ في تركِ ما عمِله النبيُّ ﷺ وأصحابُه؟! فقال: صدقتَ يا بُنَيَّ.

يعني: أقام عليه الحجّةَ أنّ قيامَ الليلِ ليس خاصًّا بالرسولِ عليه الصلاة والسلام، وإنما خُصَّ بالوجوبِ لكن الاستحبابُ للأمّةِ كُلِّها، فكان أبوه بعد ذلك يقومُ من الليلِ ويصلِّي، فاستيقَظ أبو يزيدَ في ليلةٍ فإذا أبوه يصلِّي، فقال: يا أبتِ، عَلِّمني كيف أتطهَّرُ وأصلِّي معك؟ فقال أبوه: يا بُنَيَّ، ارقُد فإنّك صغيرٌ بعدُ، قال: يا أبتِ، إذا كان يومُ ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] أقولُ لربِّي: إنّي قلتُ لأبي: عَلِّمني كيف أتطهَّرُ لأصلِّيَ معك، فأبى وقال لي: ارقُد فإنّك صغيرٌ بعد، أتحبُّ هذا؟ أتحبُّ أن أشكوَك إلى الله؟ فقال له أبوه: لا والله يا بُنَيَّ ما أحبُّ هذا، وعلَّمه فكان يصلِّي معه!

قصة أخرى:

قال سهلُ بنُ عبدِ الله التُّسترَيُّ: كنتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنين، أقومُ بالليلِ فأنظرُ إلى صلاةِ خالي محمدِ بنِ سوارٍ، فقال لي يومًا: ألا تذكرُ الله الذي خلقَك؟ فقلت: كيف أذكرُه؟ قال: قل بقلبِك عند تقلُّبِك في ثيابِك ثلاثَ مراتٍ من غيرِ أن تحرِّكَ به لسانَك: الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهِدي، فقلتُ ذلك لياليَ، ثم أعلمتُه فقال: قل في كلِّ ليلةٍ سبعَ مراتٍ، فقلتُ ذلك ثم أعلمتُه فقال: قل ذلك كلَّ ليلةٍ إحدى عشرةَ مرةً، فقلتُه فوقَع في قلبي حلاوتُه.

فلمّا كان بعد سنةٍ، قال لي خالي: احفَظ ما علَّمتُك ودُم عليه إلى أن تدخلَ القبرَ، فإنّه ينفعُك في الدنيا والآخرةِ. فلم أزَل على ذلك سنين، فوجدتُ لذلك حلاوةً في سرِّي. ثم قال لي خالي يومًا: يا سهلُ، مَن كان الله معه وناظرًا إليه وشاهدَه أيَعصِيه؟ إياك والمعصيةَ، فكنتُ أخلو بنفسي، فبعَثوا بي إلى المكتبِ فقلتُ: إنّي لأخشى أن يتفرَّقَ عليَّ همِّي، ولكن شارِطوا المعلِّمَ أنّي أذهبُ إليه ساعةً فأتعلَّمُ ثم أرجع، فمضيتُ إلى الكُتّابِ فتعلَّمتُ القرآنَ وحفظتُه وأنا ابنُ ستِّ سنين أو سبعِ سنين، وكنتُ أصومُ الدهرَ وقُوتِي من خبزِ الشعيرِ اثنتي عشرةَ سنةً.

فوقَعت لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، فسألتُ أهلي أن يبعَثوني إلى أهلِ البصرةِ لأسألَ عنها، فأتيتُ البصرةَ فسألتُ علماءها، فلم يَشفِ أحدٌ عني شيئًا، فخرَجت إلى عَبّادانَ إلى رجلٍ يُعرفُ بأبي حبيبٍ حمزةَ بنِ أبي عبدِ الله العَبّادانيِّ فسألتُه عنها فأجابني، فأقمتُ عنده مدةً أنتفعُ بكلامِه وأتأدَّبُ بآدابِه، ثم رجعتُ إلى تُسترَ فجعلتُ قُوتِي اقتصادًا على أن يُشترى لي بدرهمٍ من

الشعيرِ الفَرَقُ فيُطحَنَ ويُخبزَ لي فأُفطِرَ عند السحرِ على أوقيةٍ كلَّ ليلةٍ بحتًا من غيـرِ ملـحٍ ولا أدمٍ، فكان يكفيني ذلك الدرهمُ سـنةً، ثم عزمتُ على أن أطويَ ثلاثَ ليالٍ، ثم أُفطِرَ ليلة، ثم خمسًـا ثم سـبعًا ثم خمسًـا وعشرين ليلةً، فكنتُ على ذلك عشـرين سـنةً، ثم خرجتُ أسـيحُ في الأرضِ سنين، ثم رجعتُ إلى تُستَرَ، وكنتُ أقومُ الليلَ كُلَّه ما شاء الله تعالى. قال أحمدُ: فما رأيتُه أكلَ الملحَ حتى لقِي الله تعالى.



المرحلة الخامسة

قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[٨٢] فإن أتَى وَقــتُ البُلُوغ والصَّبِي ... بِهَــذِهِ الأشــيَا خَبِــيرٌ لَا غَــبِي
[٨٣] يُعَرِّفُــوهُ مَقصِــدَ الأشــيَاءِ ... بِمُــدَّةِ الدُّنيَـا ولِلأُخـرَاءِ
[٨٤] فَإنَّ طِيبَ عِيشَـةِ الإنسَـانِ ... عَــونٌ على عِبَـادَةِ الرَّحمَـنِ
[٨٥] أقوَى لِذِي تَقــوَى عَلَى العِبَادَهْ ... وَهْيَ الَّــتِي تَحصُلْ بِهَا السَّــعَادَهْ
[٨٦] والمَــوتُ أقرَبْ كُلِّ شَيءٍ يُنتَظَرْ ... وهَــذِهِ الدُّنيَـا لَنَـا دَارُ مَمَــرّ
[٨٧] والآخِــرَهْ دَارُ مَقَــرٍّ بَــاقِي ... والآدَمِي لِفِعلِــهِ مُــلَاقِي
[٨٨] فَيَنبَــغِي التَّكثِــيرُ لِلطَّـاعَاتِ ... تَــزَوُّدًا في مُــدَّةِ الحَيَـاةِ
[٨٩] وحِينَمَـا يَنشَـا الــولَدْ مُؤَدَّبَا ... يَكُــونُ في بُلُوغِــهِ مُهَذَّبَـا
[٩٠] تُؤَثِّــرُ الأشــيَا بِــهِ في القَلبِ ... تَأثِيرَ حَدِّ السَّــيفِ عِندَ الضَّربِ
[٩١] وتَنتَقِــشْ في قَلبِــهِ مَحَبَّــهْ ... لِرَبِّــهِ وطَاعَــةٌ ورَغبَــهْ
[٩٢] لِــكُلِّ مَـا يُــدنِي مِــنَ الجِنَانِ ... ويَلتَزِمْهَـا دِائِــمَ الزَّمَـانِ
[٩٣] وإن وَقَعْ نَشُــو الــوَلَدْ بِغَيرِ مَا ... قُلنَـا بِهِ أضــحَى كَذُوبًـا نَهِمَا
[٩٤] مُفَاخِــرًا مُبَاهِيًـا لِلنَّـاسِ ... مُلَازِمًـا طَبَائِــعَ الخِسَـاسِ
[٩٥] كَلَامُنَا لِنَفسِــهِ لَا يَتَّسِــعْ ... قَد صَارَ طَبعُ الشَّرِّ فِيــهِ مُنطَبِعْ

* * *

المرحلة الخامسة:

ما بعد سنِّ البلوغ.

وأوَّلُ ما يَحرِصُ عليه المربِّي أن يُلزِمَه بالطاعاتِ، وتركِ المحرماتِ، ويُفهِمَه معنى جريانِ القلمِ عليه بالتكلِيفِ، ويحرصَ على تفهيمِه:

١ـ مَقصدَ بقائنا في الدنيا، وأنّها دارُ تكسُّبِ ما يُعينُ على العبادةِ والتقوى، ودارُ ممرٍّ إلى دارِ الجزاءِ والحسابِ.

٢ـ ومقصدَ حياةِ الآخرة، وأنّها محلُّ السعادةِ والنعيمِ المُقِيم.

٣ـ وحقيقةَ الموتِ، وأنّه مفارقةُ الجسدِ للروحِ، وأنّه يأتي بغتةً، وهو مفارقةٌ لدارِ العملِ إلى دارِ الجزاء.

٤ـ وصحةَ المعتقدِ: عن يحيى بنِ عونٍ: قال: دخلتُ مع سُحنونٍ على ابنِ القصّارِ وهو مريضٌ، فقال: ما هذا القلقُ؟ قال له: الموتُ والقدومُ على الله. قال له سحنون: ألستَ مصدِّقًا بالرسلِ والبعثِ والحسابِ، والجنةِ والنارِ، وأنّ أفضلَ هذه الأمةِ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، والقرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنّ الله يُرى يومَ القيامة، ولا تخرجُ على الأئمةِ بالسيفِ، وإن جاروا؟ قال: إي والله، فقال: مُت إذا شِئتَ، مُت إذا شِئتَ[1].

لِيَحمَدِ الله مَن هداه الله لعقيدةِ السلفِ عقيدةِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ، والتي عليها تسعون في المئةِ من أمّةِ محمدٍ ﷺ الأشاعرةِ والماتُريديةِ، عقيدةِ التنزيهِ، ونجّاه من العقائدِ الباطلة، كعقائدِ المجسِّمةِ والعياذُ بالله. فالعقيدةُ الصحيحةُ

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢: ٦٧).

أساسُ النجاةِ وقاعدةُ الفوزِ والفلاح، وعند الموتِ لا مجالَ للاستكثارِ من الأعمالِ الصالحةِ، فناسَب التذكيرُ بالمعتقَدِ الصحيحِ ليكونَ خاتمةَ العبدِ من الدنيا، وفي الدعاءِ: «اللهمَّ مَن أحيَيتَه مِنّا فأحيِه على الإسلامِ، ومَن توفَّيتَه مِنّا فتوفَّه على الإيمانِ».

والعقيدةُ مبحثان، مُقتبَسان من كلمةِ التوحيدِ: لا إلهَ إلا الله، محمدٌ رسولُ الله، مبحثُ الإلهياتِ ومبحثُ النبويّات:

تكلَّمنا في بدايةِ الكتابِ عن مبحثِ النبوياتِ.

أمّا مَبحثُ الإلهياتِ فهو: معرفةُ ما يجبُ وما يجوزُ وما يستحيلُ في حقِّ مولانا جلَّ جلالُه.

أقسامُ الحكمِ العقليِّ الثلاثةُ في حقِّ الله تعالى: الواجب، المستحيل، والجائز.

١ـ الواجبُ في حقِّ الله تعالى (صفات الكمال).

الواجبُ في حقِّ الله تعالى هو كلُّ صفةِ كمالٍ لا يَتصوَّرُ العقلُ عدمَها أو انتفاءها عنه سبحانه بأيِّ حال، مثلَ الوجود، والوحدانيّة، والقُدرة، والعِلم، والحَياة.

ـ الدليلُ من العقلِ (البرهان):

إنّ هذا العالمَ حادثٌ؛ أي: وُجِدَ بعد أن لم يَكُن، وكلُّ حادثٍ لا بُدَّ له من مُحدِثٍ (خالق) أوجَده.

هـذا المحـدِثُ يجبُ أن يكـونَ قديمًـا (واجبًا للوجـود)، وإلا كان حادثًا مثلَه، وتَسلسَلَ الأمرُ إلى ما لا نهاية، وهو مُحالٌ عقلًا.

وبما أنّه الخالقُ لكلِّ شيء، فلا بدَّ أن يكونَ متصفًا بجميعِ صفاتِ الكمالِ (كالقـدرةِ المطلَقـة، والعلمِ المُحِيـط، والإرادةِ النافِذة، والحَيـاة الأزليّة)؛ لأنّ انتفاءَ هذه الصفاتِ عنه يعني النقصَ، والنقصُ على الخالقِ الكاملِ مستحيلٌ.

صفات الله تعالى:

الصفـةُ النفسـيّة: هـي أسـاسُ كلِّ الصفاتِ الأُخـرى الواجبةِ فـي حقِّ الله تعالى.

الصفة النفسية: الوجودُ (البقاء).

الصفـةُ النفسـيةُ هي صفةُ الوجـودِ (أي: الثبوت)، وهي تلـك الصفةُ التي لا يُفهَـمُ لـذاتِ الله تعالـى وجودٌ إلا بها، وهي لا تزيدُ على الـذاتِ معنًى زائدًا (علـى خـلافِ صفاتِ المعاني). وهي الصفةُ التي يجـبُ أن تثبُتَ لذاتِه تعالى بلا واسطة، وهي أصلُ الصفات.

ـ الدليلُ من العقل (البرهان):

الدليـلُ العقلـيُّ علـى وجـوبِ صفةِ الوجـودِ لله تعالـى يقومُ علـى بُرهانِ الحدوثِ والإمكان، ونلخِّصُه فيما يأتي:

ـ **إمكانُ العالَـم**: هـذا العالَـمُ الـذي نـراه ونعيشُ فيـه (من سـماءٍ وأرضٍ ومخلوقـات) هو من قَبيلِ الممكنـات؛ أي: يجوزُ عقلًا وجودُه ويجوزُ عدمُه؛ (لأنّه لم يَكُن ثم كان، وهو يتغيَّرُ ويَفنى).

ـ **حاجةُ الممكنِ إلى مُوجِد**: الممكنُ لا يمكنُ أن يخرجَ من حيِّزِ العدمِ إلى حيِّزِ الوجودِ بنفسِه، بل لا بدَّ له من مُرجِّحٍ يُرجِّحُ وجودَه على عدمِه، وهو المُوجِدُ (الخالق).

ـ **وجوبُ الوجودِ للموجِد**: هذا الموجِدُ (الخالق) لا يمكنُ أن يكونَ ممكنًا (أي: يحتاجُ إلى موجِدٍ آخَر)، وإلا لَزِم التسلسُلُ (احتياجُ الموجِدِ إلى موجِدٍ آخرَ إلى ما لا نهاية)، وهو مُحالٌ عقلًا. لذلك، يجبُ أن يكونَ هذا الموجِدُ واجبًا للوجود؛ أي: أنّ وجودَه ذاتيٌّ لازمٌ له ولا يَقبلُ العدم.

النتيجة: يجبُ أن يكونَ الله تعالى موجودًا، والعدمُ في حقِّه مستحيلٌ عقلًا.

ـ الدليلُ من الكتابِ والسنةِ (النقل):

من الكتاب: القرآنُ الكريمُ كلُّه دليلٌ على وجودِ الله تعالى، من خلالِ وصفِه بالأسماءِ الدالةِ على الإيجادِ والخلقِ والتصرُّفِ، مثلَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

وكلُّ شيءٍ هو العالَمُ.

والعالَم: كلُّ شيءٍ سِوى الله.

كما أنّ وصْفَه تعالى بـ«الحق» يَنفِي عنه صفةَ العدمِ والزوالِ ويُثبِتُ له الوجودَ المطلقَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وكلُّ آيةٍ تُثبِتُ له صفةً من الصفاتِ (كالعلمِ والقدرةِ والحياة) هي دليلٌ على الوجودِ، إذ يستحيلُ أن يتصفَ المعدومُ بصفاتِ الكَمال.

من السنة: كلُّ الأحاديثِ النبويةِ التي تتحدَّثُ عن خلقِ السماواتِ والأرض، وتدبيرِ الأمور، وإرسالِ الرسُلِ، والمعجزاتِ، هي أدلّةٌ متواترةٌ على وجودِ الخالقِ سبحانه.

حديثُ النبيِّ ﷺ الذي رواه البخاريُّ عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ: «كان الله ولم يَكُن شيءٌ قبله»، أو «كان الله ولم يَكُن شيءٌ غيرَه» هو دليلٌ على وجودِ الله الأزليِّ ونفيِ العدمِ عنه.

وله أيضًا من الصفات: السلبية، والمعاني، والمعنوية.

١ـ الصفات السلبية (صفات التنزيه): هي التي تَسلُبُ عن الله تعالى كلَّ ما لا يليقُ بكمالِه وجلالِه، أي: تنفي النقائصَ عنه. وهي خمسُ صفاتٍ تشملُ: القِدمَ، والبقاءَ، ومخالفتَه للحوادثِ، وقيامَه بالنفسِ، والوحدانيةِ. وسنتناولُ دليلَها من خلالِ الصفةِ الجامعةِ، وهي مخالفتُه للحوادثِ (أي: لا يشبهُ المخلوقات).

ـ الدليلُ من العقلِ (البرهان):

لو أنّ الله تعالى كان مُماثِلًا للمخلوقاتِ في ذاتِه أو صفاتِه أو أفعالِه، لكان حادثًا مثلَها، ولو كان حادثًا لاحتاجَ إلى مُحدِثٍ يُوجِدُه، ولو احتاج إلى مُحدِثٍ لَما كان إلهًا خالقًا.

وبما أنّ العقلَ قد أثبت أنّ هذا العالَمَ لا بدَّ له من خالقٍ قديمٍ وواجبِ الوجودِ، فلا بدَّ أن يكونَ هذا الخالقُ مخالفًا لجميعِ الممكناتِ والمخلوقاتِ في كلِّ الأحوال. إذًا، المماثلةُ للمخلوقاتِ مستحيلةٌ، والمخالفةُ للحوادثِ واجبةٌ.

ـ الدليلُ من الكتابِ والسنةِ (النقل):

من الكتاب: قال تعالى دالًّا على نفيِ المماثلةِ ونفيِ الشريكِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقال سبحانه دالًّا على البقاءِ والقِدمِ ونفيِ العدمِ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

من السنّة: قولُه ﷺ في الدُّعاء: «أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ». وهو دليلٌ صريحٌ على القِدَمِ والبقاءِ.

٢ـ صفات المعاني (الصفات الوجودية): هي سبعُ صفاتٍ وجوديةٍ قائمةٍ بذاتِ الله تعالى لا تنفكُّ عنها، وهي: القدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والحياةُ، والسمعُ، والبصرُ، والكلامُ. وهي الصفاتُ التي تثبتُ بها أفعالُه تعالى.

ـ الدليل من العقل (البرهان):

إنّ وجودَ هذا الكونِ العظيمِ وما فيه من إتقانٍ ونظامٍ وتخصيصٍ، هو أكبرُ دليلٍ على وجوبِ هذه الصفاتِ.

ـ فوجودُ الكونِ دليلٌ على القدرةِ (لأنّه أوجَده).

ـ وكونُ الكونِ على هيئةٍ مخصوصةٍ (كـ: الأرضُ كرويّةٌ، والشمسُ مضيئةٌ) دليلٌ على الإرادةِ والتخصيص.

ـ وإتقانُ الكونِ وتناسُقُه دليلٌ على العلمِ المطلَقِ للخالقِ.

ـ وثبوتُ هذه الصفاتِ (القدرة والإرادة والعلم) يستلزمُ الحياةَ، إذ لا يمكنُ أن يكونَ الخالقُ قادرًا وعالمًا وهو غيرُ حيٍّ. وبما أنّ العالَمَ موجودٌ

ومتقَـنٌ، فثبـوتُ هذه الصفـاتِ واجبٌ عقلًا، وانتفاؤها مسـتحيلٌ. أمّا السـمعُ والبصـرُ والكلامُ، فتنزيـهُ الخالقِ عن العيوبِ يُوجِبُ له أكملَ الصفاتِ، ومنها السمعُ والبصرُ والكلامُ.

ـ الدليلُ من الكتابِ والسنةِ (النقل):

من الكتاب:

الحَياة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

القُدرة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

العِلم: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

السَّمعُ والبَصر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥].

الكَلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

مـن السـنّة: الأحاديـثُ النبويـةُ كثيـرةٌ جدًّا في إثبـاتِ هذه الصفـات، مثلَ قولِه ﷺ: «إنّ الله لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ». (دليلٌ على كمالِ الحياةِ ونفيِ النقصِ).

٣ـ الصفات المعنوية (صفات الأحوال): هي الأحوالُ التي تَلزَمُ وتنتجُ عن ثبـوتِ صفاتِ المعاني، وهي سـبعُ صفاتٍ تُقابِلُ صفاتِ المعاني السـبع. وهي وصفُ الله تعالى بكونِه: قادرًا، مُرِيدًا، عالمًا، حيًّا، سميعًا، بصيرًا، متكلمًا.

ـ الدليلُ من العقلِ (البرهان):

بما أنّنا أثبَتنا وجوبَ صفاتِ المعاني (القدرة، العلم، إلخ) بالدليلِ العقلي، فـإنّ الـلازمَ من ثبوتِ هذه الصفاتِ هو ثبوتُ الأحوالِ المعنويّة. فكونُه تعالى

متصفًا بصفةِ القدرة، يلزمُه وجوبًا أن يكونَ قادرًا. وكونُه متصفًا بصفةِ العلم، يلزمُه وجوبًا أن يكونَ عالمًا. فثبوتُ الصفاتِ المعنويّةِ لازمٌ عقليٌّ لثبوتِ صفاتِ المعاني.

ـ الدليلُ من الكتابِ والسنّةِ (النقل):

إنّ الأدلّةَ النقليّةَ التي تُثبِتُ صفاتِ المعاني تُثبِتُ ضمنًا الصفاتِ المعنويّة؛ لأنّها تصفُ الذاتَ الإلهيّةَ بهذه الأوصافِ. فعندما يصفُ القرآنُ الكريمَ الله بـ«قَدِيرٍ وعَلِيمٍ وسَمِيعٍ»، فهو يصفُه بالحالِ المعنويِّ الناتجِ عن الصفةِ القائمةِ بذاتِه:

من الكتاب: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

من السنة: الأحاديثُ التي تُطلِقُ على الله أسماءه الحُسنى (القدير، العليم، السميع، البصير) هي دليلٌ على ثبوتِ هذه الأحوالِ المعنويّةِ له.

ويجبُ الإيمانُ بكلِّ ما أخبَر به ﷺ مما يأتي بعد الموتِ، **وهي ما تُسمَّى في العقيدةِ: السمعياتِ، ومنها:**

عذاب القبر:

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقال ﷺ: «إنّ العبدَ إذا وُضِع في قبرِه وتولّى عنه أصحابُه إنّه ليسمعُ قرعَ نعالِهم إذا انصرَفوا، أتاه مَلَكان فيُقعِدانه فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ

مُحمَّدٍ ﷺ؟ فأمّا المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنّه عبدُ الله ورسولُه، فيُقالُ له: انظُر إلى مَقعدِك من النارِ، أبدلَك الله به مقعدًا من الجنةِ، فيراهما جميعًا، وأمّا الكافرُ أو المنافقُ فيقول: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ فيه، فيُقال: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ، ثم يُضرَبُ بمِطرقةٍ من حديدٍ بين أُذنَيه، فيصيحُ صيحةً يسمعُها مَن يَليه إلا الثقلَين». رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ.

نعيم القبر:

يجبُ الإيمانُ بنعيمِ القبرِ؛ فإنّ النبيَّ ﷺ أخبَر بذلك، ومنه توسيعُ القبرِ سبعين ذراعًا في سبعين ذراعًا للمؤمنِ التقيِّ ومَن شاء الله له من غيرِ الأتقياءِ، كبعضِ الشهداءِ ممَّن نالوا الشهادةَ ولم يكونوا أتقياءَ، وتنويرُه بنورٍ يشبهُ نورَ القمرِ ليلةَ البدر، وغيرُ ذلك كشمِّ رائحةِ الجنة، قال ﷺ: «إذا قُبِر الميتُ أو الإنسانُ أتاه مَلَكان أسوَدان أزرَقان يُقال لأحدِهما: مُنكَرٌ، وللآخرِ: نَكِيرٌ، فيَقولان له: ما كُنتَ تقولُ في هذا الرجلِ محمدٍ؟ فهو قائلٌ ما كان يقولُ، فإن كان مؤمنًا قال: هو عبدُ الله ورسولُه، أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولان له: إن كنا لَنعلَمُ أنّك لَتقولُ ذلك، ثم يُفسَحُ له في قبرِه سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا، ويُنوَّرُ له فيه، فيُقال له: نَم، فيَنامُ كنَومِ العروسِ الذي لا يُوقِظُه إلا أحبُّ أهلِه، حتى يَبعَثَه الله من مَضجعِه ذلك». رواه ابنُ حِبّانَ.

سؤال الملكين منكر ونكير:

يجبُ الإيمانُ بسؤالِ الملَكَين منكرٍ ونكيرٍ، وهو يحصلُ للمؤمنِ والكافرِ من أمّةِ الدعوة، ثم المؤمنُ الكاملُ لا يلحقُه فزعٌ ولا انزعاجٌ من سؤالِهما؛

لأنّ الله يثبِّتُ قلبَه فلا يرتاعُ من منظرِهما المخيف، لأنّهما كما جاء في الحديثِ: «أسوَدان أزرَقان»، ويُستثنى من السؤالِ الطفلُ والشهيدُ، وكذلك الأنبياءُ، والمرادُ بالطفلِ مَن مات دون البلوغِ، وبالشهيدِ شهيدُ المعركةِ.

البعث:

البعثُ هو خروجُ المَوتى من القبورِ بعد إعادةِ الجسدِ الذي أكَله الترابُ إن كان من الأجسادِ التي يأكلُها الترابُ، وهي أجسادُ غيرِ الأنبياءِ وشهداءِ المعركةِ، وكذلك بعضُ الأولياءِ لا يأكلُ الترابُ أجسادَهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

الحشر:

الحشرُ هو سَوقُ مَن يخرجُ من القبورِ إلى الموقفِ، والناسُ في الحشرِ يكونون على ثلاثةِ أحوالٍ: فقسمٌ منهم كاسُون راكِبون طاعِمون وهم الأتقياءُ، وقسمٌ حُفاةٌ عُراةٌ وهم الفاسِقون، وقسمٌ حفاةٌ عراةٌ يُجَرُّون على وجوهِهم وهم الكفّارُ، فالإنسُ يُحشرون وكذلك الجنُّ والوحوشُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

يوم القيامة:

القيامةُ أوَّلُها من خروجِ الناسِ من قبورِهم إلى استقرارِ أهلِ الجنّةِ في الجنّةِ وأهلِ النارِ في النار، ومقدارُ القيامةِ خمسون ألفَ سنةٍ مما نَعُدُّ، قال الله

تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤].

الحساب وتطاير الصحف:

الحسابُ هو عرضُ أعمالِ العبادِ عليهم وتوقيفُهم عليها بعد أخذِهم كتبَهم، فأمّا المؤمنُ فيأخذُ كتابَه بيمينِه، وأمّا الكافرُ فيأخذُ كتابَه بشمالِه من وراء ظهرِه، وهذا الكتابُ هو الكتابُ الذي كتَبه الملكان رقيبٌ وعتيدٌ في الدُّنيا؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا * وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ * فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا * وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

وحقيقة الحساب أنّ الله تعالى سيسألُ كلَّ عبدٍ عن عملِه، ولفظِه، ولحظِه، فيجعلُ مِن تذكُّر ذلك كلِّه ما يتزوَّدُ به تقربًا لله.

الميزان:

هما الكِفّتان اللتان تُوضَعُ عليهما الأعمالُ، وكلُّ أعمالِ البرِّ والطاعةِ تثقلُ في الميزانِ، وتجعلُ كِفّةَ الحسناتِ راجحةً على كِفّةِ السيئاتِ، ولكن هناكَ أشياءُ تجعلُ كفّةَ الحسناتِ ثقيلةً جدًّا، منها:

أ ـ حُسنُ الخلق: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من شيءٍ أثقَلُ في ميزانِ العبدِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من حُسنِ الخُلُقِ، وإنّ الله يُبغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ».

ب ـ تسبيحُ الله وتحميدُه: قال رسولُ الله ﷺ: «كَلِمتانِ خَفِيفتانِ على اللسانِ، ثَقِيلتانِ في الميزانِ، حَبِيبتانِ إلى الرحمنِ: سُبحانَ الله وبحَمدِهِ وسبحانَ الله العظيم».

ج ـ الحمـدُ لله: قال رسـولُ الله ﷺ: «الطُّهورُ شَـطرُ الإيمـانِ، والحمدُ لله تمـلأُ الميـزانَ، وسُـبحانَ الله والحمدُ لله تَمـلآن ـ أو تَملأُ ـ ما بينَ السـماواتِ والأرضِ، والصـلاةُ نـورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضيـاءٌ، والقرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليـكَ، كلُّ النـاسِ يَغـدُو، فبائـعٌ نفسَـه، فمُعتِقُهـا أو مُوبِقُهـا». ففـي قولـه: «وسـبحانَ الله والحمدُ لله تَملآن ـ تَملأُ ـ ما بين السـماواتِ والأرضِ» سـببُ عظيمِ فضلِها؛ ما اشتَملت عليه من التنزيهِ لله تعالى، والافتقارِ إليه.

د ـ احتباسُ الخيلِ في سـبيل الله: قال رسـولُ الله ﷺ: «مَنِ احتَبسَ فرسًـا في سبيلِ الله إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعدِه، كان شِبَعُه وريُّه ورَوثُه وبَولُه حسناتٍ في ميزانِه يومَ القيامةِ»[١].

الصراط:

الصراطُ جِسرٌ ممدودٌ على جهنَّمَ، يجوزُ عليه العبادُ بقدرِ أعمالِهم، وإنّهم يتفاوَتـون في السـرعةِ والإبطاءِ على قدرِ ذلك. وقال الإمـامُ النَّوَويُّ: «مذهبُ أهلِ الحقِّ أنّه جِسرٌ ممدودٌ على متنِ جهنَّمَ يمرُّ عليه الناسُ كلُّهم؛ فالمؤمنون يَنجُون على حسـبِ أعمالِهـم ومنازلِهم، والآخَرون يَسـقطون فيها، عافانا الله الكريم».

طريقة التربية في هذه المرحلة:

أجملُ ما يسـتعملُه المربِّي في ذلك: أسـلوبُ المحاوَرة والإقناع؛ ليصيرَ المتربِّي بهذه الأشياءِ خبيرًا، ورَبطُه بشيوخِ السلوكِ والتربيةِ وشيوخِ العلمِ.

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (٢: ١٣٤).

- وليَعلَمِ المربِّي أنّه بعد تعبِه في تعاهُدِه وتربيتِه لابنِه في الصغرِ سيَجنِي بعد بلوغِه: حُسنَ أدبِه، وانطباعَ معاني الأخلاقِ الكريمةِ في فؤادِه، وبناءَ قواعدِ العبوديةِ في قلبِه؛ محبةً ورغبةً وطاعةً والتزامًا.

- وفي المقابلِ: إذا قصَّر وفرَّط في ذلك: جَنى مع ابنِه بعد بلوغِه سيئَ الأخلاقِ؛ من كذبٍ، وطمعٍ، وكبرٍ، وخِسّةِ طبعٍ، لا يفيدُ فيه نصحٌ، ولا يستمعُ معه لوعظٍ؛ لتأصُّلِ الشرِّ في قلبِه، والعياذُ بالله؛ لأنّه كما تَزرعُ تحصُد، وتَجنِي كما تَبذُر، وإنّك لا تحصدُ من الشوكِ العِنَب.

يقولُ ابنُ خلدون في «مقدمته»: «التعليمُ في الصغَرِ أشدُّ رسوخًا، وهو أصلٌ لما بعده».

فوائد العلم في الصغر:

عن أبي الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الذي يتعلَّمُ العلمَ في صغرِه كالنقشِ على الحجرِ، ومثلُ الذي يتعلَّمُ العلمَ في كِبَرِه كالذي يكتبُ على الماءِ». رواه الطَّبَرانيُّ في «الكبير»، وفيه مَروانُ بنُ سالمٍ الشاميُّ، ضعَّفه البخاريُّ ومسلمٌ وأبو حاتمٍ.

ينقلُ الإمامُ ابنُ الجَوزيِّ (ت٥٩٧هـ) في «المنتظم» عن الإمامِ الشافعيِّ (ت٢٠٤هـ) قولَه: «حفظتُ القرآنَ وأنا ابنُ سبعِ سنين، وحفِظت «الموطأ» وأنا ابنُ عشرِ سنين، وما أفتيتُ حتى حفِظتُ عشرةَ آلافِ حديثٍ... وأفتى وله خمسَ عشرةَ سنةً»!! في هذا النصِّ يَتراءى لنا أثرُ الحراكِ المعرفيِّ الذي أحدَثه الإسلامُ في البيئاتِ التي انتَشر فيها، فقد جاء الدينُ الجديدُ بقيَمِ الوحي وبما تَدعُو إليه من ثورةٍ على التقليدِ، وتحضُّ عليه من تنافُسٍ على اكتسابِ العلومِ

النافعـةِ دِينًـا ودُنيـا، فصار بذلـك العلمُ دينًا والدينُ علمًا يُنشَّـأُ عليـه الأطفالُ، وتتحلَّـقُ حولـه الجماهيـرُ، ولو كان للعالِم خمسَ عشـرةَ سـنةً كما حدَث مع الشافعيِّ ومن قبله شيخُه الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ (ت١٧٩هـ).

إنّ ظاهـرةَ النبـوغِ الشـبابيِّ في الحضارةِ الإسـلاميةِ من المداخـلِ المهمّةِ لفهـمِ كيـف تحرَّكت تلـك الحضارةُ الشـابّةُ صُعُـدًا فـي مدارجِهـا التاريخيّةِ، وظلَّت قرونًا تسـيرُ علـى ظهرِ الزمانِ بقوةٍ وحركةٍ تحبسُ الأنفاسَ. فبدءًا من زُهاءِ سـنِّ العاشـرة؛ تنجمُ بواكيرُ النبوغِ عند الكثيرِ من مفكِّري الإسـلام، كما تُحدِّثُنا كتبُ التراجمِ والسِّيَرِ عن ظهورِ مؤلَّفاتٍ بالغةِ التأثيرِ في تاريخِنا العلميِّ والثقافيِّ خطَّتها أقلامُ عددٍ من الشبابِ العلماءِ قبل سِنّ العشرين، وهو ما يفسِّرُ عظمةَ العطاءاتِ العلميةِ والمشـروعاتِ الفكريةِ التي قدَّمها الكثيرُ من العلماءِ الأوائـلِ، فقـد كانـت أعمارُهـم كلُّهـا تقريبًا ـ إلا بضعَ سـنين للنشـأةِ الأولى ـ مبذولةً للمِحبرةِ والدواةِ.



الخاتمة

قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[٩٦] فَيَنبَغِي لِلوالِدِ التَّعَنِّي ... بِكُلِّ بِنتٍ وبِكُلِّ إبنِ
[٩٧] صَونًا لَهُم عَن مُوجِبِ المَآثِمِ ... لَا تُهمِلُوا الصِّبيَانَ كَالبَهَائِمِ
[٩٨] فَفِي كِتَابِ اللهِ: (قُوا أنفُسَكُمْ) ... مَفهُومُهُ: وكُلَّ مَن يَلزَمُكُمْ
[٩٩] مُرَادُهُ بِالفِقهِ والتَّأدِيبِ ... وكَثرَةِ التَّعلِيمِ والتَّهذِيبِ
[١٠٠] وفِي الحَدِيثِ لِلنَّبِيِّ المُرسَلِ ... مُحَمَّدِ المُعَظَّمِ المُبَجَّلِ
[١٠١] أنَّ الوَلَدْ بِالفِطرَةْ الإسلَامِيّهْ ... يُولَدْ ويَرجِعْ بَعدُ لِلهودِيّهْ
[١٠٢] يُهَوِّدَاهُ والِدَاهُ تَاعِسَا ... وقَد يُنَصِّرَاهُ أو يُمَجِّسَا
[١٠٣] فَإن هُمَا سَاقَاهُ لِلصَّوابِ ... يُشَارِكَانِ الكُلَّ في الثَّوابِ
[١٠٤] وإن شَقِي وضَاعَ مِن يَدَيهِمَا ... وفَرَّطَا فَوِزرُهُ عَلَيهِمَا

الشرح:

ـ ثم ختَم الناظمُ رحمه الله بالتذكيرِ بما بدَأ به بأهميّةِ الاهتمامِ بتربيةِ الصبيانِ من صغرِهم، بناتٍ وأولادًا، والتحذيرِ من إهمالِهم كالسوائمِ البهائمِ؛ فنبَّه على أدلّةِ ذلك من الكتابِ والسنةِ.

فمن الكتابِ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ

وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومن السنّة: سنذكُر مجموعةً من الأحاديثِ في تربيةِ الأولادِ والحرصِ على تعليمِهم مع شرحٍ بسيطٍ لها:

«أدِّبوا أولادَكم على ثلاثِ خِصالٍ: حُبِّ نبيِّكم، وحُبِّ أهلِ بيتِه، وقراءةِ القرآنِ؛ فإنّ حمَلةَ القرآنِ في ظلِّ الله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه مع أنبياءِ الله وأصفيائه». (رواه أبو النصرِ عبدُ الكريمِ بنُ محمدٍ الشِّيرازيُّ في «فوائده»).

الطفلُ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى مثَلٍ أعلى، فإن لم يَكُنِ النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرامُ مُثُلًا عُليا لابنِكَ، فالممثِّلون والمُمثِّلات ولاعبو الكرةِ والساقطون والساقطاتُ هم المُثُلُ العُليا لابنِك؟!

وماذا ستكونُ النتائج؟

الابنُ في طَورِ التقليدِ، وفي طورِ التطلُّعِ إلى مَن هو أكبرُ منه، فإن لم تَملأْ هذا الفراغَ بصحابيٍّ، بالنبيِّ ﷺ، بِخُلُقِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ، بشجاعةِ النبيِّ، بكرمِ النبيِّ، برحمةِ النبيِّ ﷺ، باستقامةِ النبيِّ، بعدلِ النبيِّ ﷺ، بأخلاقِ أصحابِه الأطهار... تعلَّق هؤلاء الصغارُ بأناسٍ ساقطين منحرفين يعلِّمون هؤلاء الصغارَ كلَّ لقيطةٍ وكلَّ انحرافٍ.

لذلك هذا الحديثُ خطيرٌ: «أدِّبوا أولادَكم على ثلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيِّكم، وحُبِّ أهلِ بيتِه، وقراءةِ القرآنِ»، طبعًا من السذاجةِ أن تَفهَمَ هذا الحديثَ أنّه أن تقولَ: يا بُنَيَّ أحِبَّ الله، أحِبَّ رسولَ الله.

ليست التربيةُ هكذا.

الطريـقُ لتطبيـقِ هـذا الحديـثِ أن تُعرِّفَه بشـمائِله، أن تُعرِّفَـه بأخلاقِه، ما الـذي يمنعُ أن تجلـسَ مع أولادِك في الأسـبوعِ مرّةً تقرأُ لهم فصلًا من سـيرةِ رسولِ الله؟ أنت لا تدري ما يحصلُ لنفسِ هذا الصغيرِ، هكذا كان النبيُّ ﷺ، هكذا كان رحيمًا، هكذا كان يُصغي الإناءَ للهِرّة، هناك طفلٌ كُلما شاهَد حيوانًا يدهسُـه عـن غيرِ فهم، أمـا حينما تُعلِّمُ ابنَـك أن يُصغيَ الإناءَ للهِـرّة، أن يُطعمَ الهِـرّةَ الجائعـةَ، أن يُنقِـذَ النملةَ من الغرقِ، أن يرحـمَ الحيـوانَ، أن يعطفَ على الصغيرِ... فهذه أخلاقٌ.

لقد أصبَح الطفلُ في أمريكا يتلذَّذُ في قتلِ الجماعيةِ، قتَل مُدرِّسـتَه وأربعَ طلابٍ بلا سببٍ، فلذلك هذا الحديثُ فيه أمرٌ، والأمرُ يقتضي الوجوبَ: «أدِّبوا أولادَكم على ثلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيِّكم، وحُبِّ أهلِ بيتِه، وقراءةِ القرآنِ».

معنى ذلك أنّه لا بُدَّ من أن تجلسَ مع أولادِك لتُعلِّمَهم سيرةَ النبيِّ، أي: أنّ أمتَعَ جلسةٍ في المنزل، أمتَعَ جلسةٍ بينك وبين أولادِك حينما تُحدِّثُهم بالعلمِ، حينما تجلسُ جلسةً لا علاقةَ لها بتنظيفِ المنزلِ ولا بمشكلاتِ المنزلِ، ولكن لها علاقةٌ بالعلمِ وهذا شيءٌ مُؤنِسٌ، وتلاوةِ القرآنِ... هذا القرآنُ ربيعُ القلوبِ، تلاوتُـه عبادةٌ، حفظُه عبـادةٌ، فهمُه عبادةٌ، تطبيقُه سـعادةٌ، منهجُنا المُقرَّر، هذه ثـلاثُ فِقـراتٍ في المنهـجِ النبويِّ: «أدِّبـوا أولادَكم على ثـلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيِّكم، وحُبِّ أهلِ بيتِه، وقراءةِ القرآنِ؛ فإنّ حَمَلةَ القرآنِ في ظلِّ الله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه مع أنبياءِ الله وأصفيائه».

لا يُوجَدُ شيءٌ أروعُ في الطفلِ من أن يُتقِنَ القرآنَ، يُتقِنَ تلاوتَه، يُتقِنَ فهمَه، يُتقِـنَ العمـلَ به، وهذا معنـى قولـه تعالـى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ

تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

قراءةُ القرآنِ حقَّ تلاوتِه أن تَقرَأه قراءةً صحيحةً، وأن تفهمَهُ فهمًا صحيحًا، وأن تُطبِّقَهُ تطبيقًا صحيحًا.

أخرَج الترمذيُّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: قال النبيُّ ﷺ: «إنِّي أُعَلِّمُك كلماتٍ: احفَظِ الله يَحفَظك، احفَظِ الله تَجِدهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستَعِن بالله، واعلم أنَّ الأمّةَ لو اجتَمعت على أن يَنفَعوك بشيءٍ لم يَنفعوك إلا بشيءٍ قد كتَبه الله لك، وإن اجتَمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يَضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتَبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحف». (أخرَجَه الترمذيُّ).

والله هذا الحديثُ للصغارِ والكبارِ، احفَظ أمرَ الله يَحفَظك من كلِّ مكروهٍ، أنت في أمنٍ، أنت في سلامةٍ، أنت في سعادةٍ، أنت في رِضًا، أنت في طُمأنينةٍ.

«احفَظِ الله يَحفَظكَ، احفَظِ الله تَجِدهُ تُجاهَكَ»: تقَعُ في مأزقٍ تقول: يا ربِّ، يقول لك: لبَّيكَ يا عبدي، إن عَرَفتَني في الرخاءِ أعرِفك في الشِّدةِ، إذا سألتَ فاسألِ الله:

لَا تَسألَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً   وَسَلِ الذِي أبوَابُهُ لا تُغلَقُ
الله يَغضَبُ إن تَرَكتَ سُؤَالَهُ   وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسألُ يَغضَبُ

أي: إنسانٌ قال: يا ربِّ، إذا أعطَيتَني سوف أبنِي جامعًا، قال له شخصٌ ساخِرًا: من أين لكَ أن تكونَ غنيًّا؟! هذا شيءٌ من رابعِ المستحيلاتِ، فقال له: أنت أكرمُ من الله عزّ وجل؟

قصةٌ في بلدٍ إسلاميٍّ: إنسانٌ بائعٌ متواضعٌ فقيرٌ يعيشُ يومًا بيومٍ، يكسبُ قوتَ يومِهِ، فادَّخر بعضَ المدَّخراتِ الماليةِ واستدان واقترَض، وكانت في البلدِ مولِّداتُ الكهرباءِ رائجةً جدًّا في البلدِ، واشترى أربعين مولِّدًا بكلِّ ما يملكُ ومع الديونِ والقروض، وبعد شرائه للمولِّداتِ أُسِّست شركةٌ للكهرباءِ في هذا البلدِ، هذه المولِّداتُ لا تُباعُ ولا تُشترى فأين يَضعُها؟ اشتَرى أرضًا بعيدةً ووضع فيها المولِّداتِ وسوَّرها بشريطٍ شائكٍ ونسِي الموضوعَ كُليًّا.. كليًّا حتى أقسَم بالله أنّه نسِي الأرضَ والموضوعَ كُلَّهُ.. شيءٌ انتهى بيعُه، كان هناك شركاتٌ خاصّةٌ توصِّلُ التيارَ الكهربائيَّ للمدينةِ، فعندما أُسِّست شركةُ كهرباءٍ عامةٌ لم يعُد لهذه المولِّداتِ قيمةٌ إطلاقًا.. إطلاقًا، وبعد عشرِ سنواتٍ وَصَل العمارُ إلى هذه الأرضِ وأصبَحت منظَّمةً، فباعها بأربعين مليونًا، وبنى مسجدًا ضخمًا، فالله إذا أعطَى أدهَش، وإذا أخذ فتش.

«إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستَعِن بالله، واعلَم أنّ الأُمَّةَ لَوِ اجتَمَعَت على أن يَنفَعُوكَ بشَيءٍ لم يَنفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قد كَتَبه الله لك، ولو اجتَمَعوا على أن يَضُرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضُرُّوكَ إلا بشَيءٍ قَد كَتَبه الله عليك. رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وروى أبو داودَ والحاكمُ عن عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعٍ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقُوا بينهم في المضاجعِ». (رواه أبو داود).

لاحِظ أنّ الأبَ إذا جاء إلى المنزلِ مساءً يسألُ زوجتَه: الأولادُ تناوَلوا الطعامَ؟ تُجيبُه بأنّهم تَناوَلوه، أدَّوا واجباتِهم المدرسيّة؟ تجيبُه بنعم... أمّا هل

أقاموا الصلاةَ؟! فقلّما يسألُ عن هذا السؤال.

أمّا النبيُّ عليه الصلاة والسلام فكان إذا دخَل بيتَه يسألُ الأولادَ: هل صلَّوا العشاءَ؟ الصغار.. هذا هو الحِرصُ، سيدُنا عمرُ طُعِن وهو إمامٌ أُغمِي عليه ونزَف منه الدمُ، وعندما أفاق قال: هل صلَّى المسلمون الفجرَ؟ لذلك: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعٍ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقُوا بينهم في المضاجِع».

واسمَع أيها الأبُ المربِّي: «لا تَقدِرُ أن تُربِّيَ ولدَك في سنِّ الخامسةَ عشرةَ»، إن لم تَبدَأ تربيتَه في سنِّ الخامسةِ فلن تستطيعَ السيطرةَ عليه بعد ذلك، إياك أن تغفوَ وتصحوَ بعد فواتِ الأوانِ، لا تُهمِلهُ وهو صغيرٌ فيكتسبَ عاداتٍ سيئةً ويتعلَّم كلماتٍ بذيئةً، زبعد ذلك تتألَّمُ أشدَّ الألمِ... إخوانَنا الشبابَ الذين عندهم أولادٌ صِغار: يجبُ أن تعتنيَ به منذ سِنِّ الخامسةِ لكي يتشرَّبَ الدين، يتشرَّبَ حُبَّ الله ورسولِه ﷺ، يتشرَّبَ المسجدَ، يتشرَّبَ الكلامَ الطيِّبَ.. العِفّةَ.

قد يقولُ أحدُكم: أمرٌ تكليفيٌّ، لا.. هذا أمرٌ تأديبيٌّ، يوجدُ شيءٌ في الفقهِ اسمُه: أمرٌ تأديبيٌّ، الطفلُ إذا بلَغ مُكلَّفٌ بالصلاةِ تكليفًا شرعيًّا، لكن الطفلُ مستحيلٌ فجأةً أن يُصلِّيَ، لا بُدَّ من أن تؤدِّبَهُ على الصلاةِ في سِنٍّ مبكِّرةٍ، في السابعةِ هناك أمرٌ، وفي العاشرةِ هناك ضربٌ.

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: جاءَ غلامٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي أُريدُ الحجَّ. فمَشى معه رسولُ الله ﷺ فقالَ: «يا غلامُ، زَوَّدك الله التَّقوى، ووجَّهكَ في الخيرِ، وكَفاك الهمَّ». انظُروا لعَظَمةِ رسولِ الله؛ كبير.. صغير..

طفل صغيـر.. جـاء غـلامٌ قال لـه: إنّـي أُريدُ الحـجَّ، فدعا لـه قال: «يـا غلامُ، زَوَّدك الله التَّقـوى، ووجَّهـكَ في الخيرِ، وكَفاك الهـمَّ». قال: فلمّا رجَع الغلامُ إلى النبيِّ ﷺ قال: «يا غُلامُ، قَبلَ الله حَجَّك، وغفَر ذنبَك، وأخلَف نَفقتَك».

هناك شـيءٌ في التربيةِ اسمُه: احترامُ شخصيةِ الطفلِ لأشخاصِ العُظماءِ، تلقَّوا تربيةً راقيةً جدًّا، الأبُ يضربُ ابنَه أمامَ أصدقائه.

كم هي صعبةٌ.. كلمةُ مُجرِمٍ... الطفلُ له مكانةٌ، له كيانٌ.

حينما ضُرِبَ أمام أصدقائه فقد حطَّمتَه وسحَقتَه.

أما بينك وبينه فحاسِبه، وأدِّبه، واضربه أحيانًا ولكن احترِم شخصيتَه، مثلًا أُمٌّ يأتـي صديـقُ ابنِهـا عندها فتُعِـدُّ له عصيـرًا.. لا تدري كم من السـعادةِ التي تدخلُ على قلبِ الطفلِ، شيءٌ لا يُقدِّمُ ولا يُؤخِّرُ، طلَب منها عشاءً فتجيبُه بكلِّ لباقةٍ... هناك قصةٌ رواها لنا أخٌ:

أخٌ مُقيـمٌ فـي أمريـكا وله ابنٌ جاء فـي الصيفِ في دورةٍ هنـا، ولهذا الابنِ صديـقٌ زَنجـيٌّ وثنيٌّ، فمرةً زاره هذا الصديقُ فلاحَـظ الزنجيُّ أنّ الابنَ قبَّل يدَ والدِه ووقَف باحترامٍ بالغٍ أمامه، وعندما عَرَف الأهلُ بأنّ معه صديقًا فصَنعوا طعامًا وقدَّمـوه إليـه، هذا الشـابُ الزنجـيُّ الوثنيُّ أعجَبـه هذا الديـنُ، أعجَبه احتـرامُ الابـنِ للأب، وأعجَبه عنايةُ الأبِ بصديقِ الابـنِ... يعني هيَّؤوا طعامًا وقدَّمـوه لـه.. أنت في المنزلِ عندما تحترمُ أصدقاءَ ابنِك طبعًا في حالِ كونِهم منضبطِين، يعني أمامَ صديقِه كنتَ لطيفًا مع ابنِك، أثنيتَ عليه، شـجَّعتَه، شَـعَر أنّـكَ أخَذتَـه معك دائمًا... الحياةُ تحتاجُ إلى عنايةٍ بالغةٍ بالأطفالِ حتى إذا كَبِر يُعجبُك، وإذا كَبِر يكونَ قرّةَ عينٍ لك.

لذلك أحدُ مبادئِ التربيةِ احترامُ شخصيّةِ الطفلِ، لا تُهِنه، لا تُحطِّمه، هذا الضربُ المُبرِّحُ، الضربُ على الوجهِ، السِّبابُ، الشتائمُ هذه تُحطِّمُ الطفلَ، تجعلُه مُشاكسًا، وكُلُّ أخٍ له علاقةٌ بالعلمِ والتعليمِ والمدارسِ.. الطفلُ المُشاكسُ، المُزعِجُ، المؤذِي، البذيءُ، هذا طفلٌ يعيشُ في منزلٍ مُنهارٍ، المنزلُ المُنهارُ يُفرِزُ أطفالًا سيئين، والمنزلُ المتماسِكُ يفرزُ أطفالًا متوازِنين.

يقول المربُّون: هذا الصغيرُ هو كبيرٌ لكنّ قياسَه صغيرٌ، عامِله كأنّه كبيرٌ، احترِمه، ودَلله، أقنِعه.. يعني.. ابنُك وقَع في الغلطِ أقنِعه بأنّه على غلطٍ، بيِّن له، اجعَله صادقًا معك، لا تكن عنيفًا فيكذبَ عليك بعدها، يشعرُ أنّه ممكنٌ أن يقول لك كُلَّ شيءٍ.. كُلَّ شيءٍ فعَله.. استمِع منه وحذِّره بألا يُقدِمَ عليه مرةً أخرى:

«عَلِّموا ولا تُعنِّفوا، فإنّ المعلِّمَ خيرٌ من المعنِّفِ». (أخرَجَه الحارث، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة).

وعن عائِشةَ رضي الله تعالى عنها قالت: كُنتُ على بَعِيرٍ صَعبٍ فجَعَلتُ أضرِبُه، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «عليكِ بالرِّفقِ؛ فإنّ الرِّفقَ لا يكونُ في شَيءٍ إلا زانَه، ولا يُنزَعُ من شَيءٍ إلا شانَه».

طالِبٌ أرسَله والدُه من أمريكا لبلدٍ عربيٍّ ليتعلَّمَ الدينَ واللغةَ، فالتَحق بمعهدٍ، يجوزُ أنّه ارتَكب غلطةً فعُوقب عليها وأُهِين، كُلَّما يُذكَرُ اسمُ ذلك البلدِ وهو في أمريكا يرتجفُ، يعني عنده أنّ في هذا البلدِ عقوبةً، المعلِّمُ القاسي يُكرِّهُ الطلابَ فيما يدرِّسُ.

انظر لأخلاقِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام: «يا غلامُ، زَوَّدك الله التَّقوى، ووجَّهكَ في الخيرِ، وكَفاك الهمَّ». وبعدها قال له: «قَبِلَ الله حَجَّك، وغفر ذنبَك، وأخلَف نَفقتَك».

أخرَجَ الإمامُ أحمدُ والبخاريُّ ومُسلمٌ عن ثابتٍ البُنانيِّ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: خَدَمتُ رسُولَ الله ﷺ يومًا حَتَّى إذا رَأيتُ أنِّي قد فَرَغتُ من خِدمَتِه قُلتُ: يَقِيلُ رَسُولُ الله ﷺ، فخَرَجتُ إلى صِبيانٍ يَلعَبُونَ، قال: فجِئتُ أنظُرُ إلى لَعِبهم. قال: فجاءَ رَسُولُ الله ﷺ فسَلَّمَ على الصِّبيانِ وهم يَلعَبُونَ، فدَعانِي رَسُولُ الله ﷺ فبَعَثَنِي إلى حاجةٍ له، فذَهَبتُ فيها وجَلَس رسُولُ الله ﷺ في فَيءٍ، حَتَّى أتَيتُه واحتَبَستُ عن أُمِّي عن الإتيانِ الذي كُنتُ آتِيها فيه، فلمّا أتَيتُها قالَت: ما حَبَسَكَ؟ قُلتُ: بَعَثَني رسُولُ الله ﷺ في حاجةٍ له. قالَت: وما هي؟ قُلتُ: هو سِرٌّ لرسُولِ الله ﷺ. قالَت: فاحفَظ على رَسُولِ الله ﷺ سِرَّهُ. قال ثابتٌ: قال لي أنَسٌ: لو حَدَّثتُ به أحَدًا من الناسِ أو لو كُنتُ مُحَدِّثًا به لَحَدَّثتُكَ به يا ثابِتُ.

يعني أعجَبه أنّه يحفظُ سِرَّ رسولِ الله ﷺ، تجدُ أطفالًا في عهدِ النبيِّ والصحابةِ الكِرامِ شيئًا لا يُصدَّق، سيدُنا عمرُ يمشي في الطريقِ فرأى أطفالًا عندما رأوه هرَبوا فتوقَّف واحدٌ ولم يَهرُب، فلَفَت نظرَ سيدِنا عمرَ، فسأله وقال له: يا غلامُ، لِمَ لَم تَهرُب مع مَن هرَب؟ قال له: أيُّها الأميرُ، لستَ ظالمًا فأخشَى ظُلمَكَ، ولستُ مذنبًا وأخشَى عقابَكَ، والطريقُ يَسَعُني ويَسَعُك. ذكاءٌ وأدبٌ وفهمٌ.

في عهدِ عبدِ الملكِ بنِ مَروانَ: جاءه وفدٌ للتهنئةِ يتقدَّمُهم غلامٌ، فغضِب فوبَّخ حاجبَه وقال: ما شاء أحدٌ أن يدخلَ علينا حتى دخَل الصبيانُ؟! فابتَسم

الغلامُ وقال: أيُّها الأميرُ، إنّ دخولي عليك لم يُنقِص من قدرِك، ولكنّه شرَّفني.

بمعنى أنّك بَقِيتَ في مقامِك ولكن أنا تَشرَّفتُ.. قال له: أصابَتنا سَنةٌ أذابت الشحمَ، وأصابَتنا سَنةٌ أكلَت اللحمَ، وأصابَتنا سنةٌ دَقَّت العظمَ، ومعكم فضولُ أموالٍ، فإن كانت لنا فعلامَ تَحبِسونها عنّا؟ وإن كانت لله فنحنُ عبادُه، وإن كانت لكم تصدَّقوا بها علينا... قال: والله ما تركَ لنا هذا الغلامُ في واحدةٍ عذرًا.

دخَل وفدٌ على سيدِنا عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.. من الحجازيِّين يتقدَّمُهم طفلٌ صغيرٌ فانزعَج، قال له: اجلِس وليقُم مَن هو أكبرُ منك سِنًّا، قال له: أصلَح الله الأميرَ، المرءُ بأصغرَيه قلبِه ولسانِه، فإذا وهبَ الله العبدَ لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا قد استحقَّ الكلامَ، ولو كان الأمرُ كما تقولُ لكان من أُمَّتي مَن هو أحقُّ منك بهذا المجلسِ.

إذًا رُبِّي الطفلُ تربيةً صحيحةً باحترامِ شخصيتِه وإعطائه الثقةَ. المبدأُ الصحيحُ أن ليس هناك طفلٌ لا يَغلَط، الأبُ المُربِّي يُوطِّئ نفسَه على خطأ ابنِه، لكن البطولةُ ألا يُعادَ الخطأُ، يجبُ أن تَرفعَ هذا الشعارَ:

ليس العارُ أن تُخطئَ.. العارُ أن تبقى مُخطئًا، ليس العارُ أن تجهلَ.. العار أن تبقى جاهلًا.

المُلاحَظُ أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يحترمُ الأطفالَ ويُحبُّهم، ومحبّةُ الأطفالِ واحترامُهم جزءٌ أساسيٌّ من التربيةِ.

أخرَج البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ وأبو داودَ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبِيُّ ﷺ أحسَنَ الناسِ خُلُقًا، وكانَ لي أخٌ يُقالُ له: أبُو عُمَيرٍ. قال: أحسَبُه

فَطِيمًـا، وكانَ إذا جـاءَ قال: «يـا أبا عُمَيرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيرُ؟». نُغَـرٌ كان يَلعَبُ به، فربما حَضَرَ الصَّلاةَ وهو في بَيتِنا فيَأمُرُ بالبِساطِ الذي تَحتَهُ فيُكنَسُ ويُنضَحُ، ثم يَقُومُ ونَقُومُ خَلفَهُ فَيُصَلِّي بِنا.

قاعدة مهمة:

إذا دخَلتَ إلى بيتِك، بيتٌ صغيرٌ متواضعٌ، طعامٌ متواضعٌ، أثاثٌ متواضعٌ، زوجـةٌ وسـطٌ، تسـتطيعُ أنت أن تجعـلَ فيه البهجةَ بنفسـيتِك الطيّبـةِ، بمَرحِك وابتسـامتِك وعطفِك، بإيناسِـك لأطفالِك، وهناك بيتٌ قطعةٌ من الجحيمِ كلُّه خنـاقٌ وعـراكٌ وسِـباب، أنـت بإيمانِك واسـتقامتِك ونظرِك البعيـدِ تجعلُ من البيتِ جنّةً.. السعادةُ لا تأتي بالمالِ، لا تأتي بالبيتِ الواسعِ، لا تأتي بالأثاثِ، لا تأتي بالطعامِ الطيبِ، تأتي بالودِّ والحُبِّ.. قد تأكلُ أخشـنَ أكلٍ مع أولادِك وهم راضون مسرورون.

عن أَيُّوبَ بنِ مُوسَى، عن أَبيه، عن جَدِّهِ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «ما نَحَلَ والِدٌ ولَدَهُ نُحلًا أفضَلَ من أدَبٍ حَسَنٍ».

يعنـي أنّ أكبـرَ مزيّةٍ يُعطيهـا الأبُ لابنِه.. الخُلُق الحسـن. العوامُّ يقولون: «المُربَّى غالـي». يعنـي الطفـلَ الخلـوقَ.. هـذه آلافُ الملاحظـاتِ وآلافُ التوجيهـاتِ وآلافُ المتابعـاتِ حتـى أصبَح مُهذَّبًا، والطفلُ المُهذَّبُ شـيءٌ لا يُقدَّرُ بثمنٍ، لا أعتقدُ أنّ في الأرض أبًا أسعَدَ من أبٍ يرى ابنَه صالحًا.

النبيُّ عليه الصلاة والسلام علّمنا، رأى رَجلًا معه غلامٌ فقال للغلامِ: «مَن هـذا الرجـلُ؟» قال: أبي، قال: «أبوك؟! فـلا تمشِ أمامه، ولا تَجلِس قبله، ولا

تَستسِبَّ لـه، ولا تدعُهُ باسـمِه».. توجيهٌ دقيقٌ.. ماشٍ أنـت وابنُك، ماشٍ أنت وأبـوك، يجبُ أن تُبقِيَ أباك يمشـي أمامَك، دخَلـتَ للغرفةِ فلا تَجلِس قبل أن يَجلِسَ، ولا تعمَل عملًا يُسـبِّبَ له سِـبابًا، لا تُنادِه باسمِه.. هذه قاعدةٌ عَلِّموها لأولادِكم.

وروى الطبرانـيُّ عـن عائشـةَ رضـي الله عنهـا قالـت: كان عليـه الصـلاة والسـلام يقول: «ما بَرَّ أباه مَن سَـدَّد إليه الطرفَ بالغضبِ» أي: نظَر إلى والدِه نظرةَ ازدراءٍ.. هذا عاقٌّ لوالدَيه.. يعني أنّ أقلَّ إساءةٍ تُعَدُّ عقوقًا:

لو دَفعتَ البابَ بقوةٍ فكأنّك قلت له: أُفّ، يُحدِّثُكَ على الهاتفِ طلبتَ منه مبلغًا وليس معه، فتَضايقتَ وأغلقتَ السـماعةَ في وجهِه، سـوف تودِّعُه على الهاتفِ فتُغلِقُ السماعةَ في وجهِه؟! هذه إساءةٌ بالغةٌ جدًّا، «ما بَرَّ أباه مَن سَدَّد إليه الطرفَ بالغضبِ».

وعـن عُبـادةَ بنِ الصامتِ: أنّ رسُـولَ الله ﷺ قال: «ليس مـن أُمَّتِي مَن لم يُجِلَّ كَبيرَنا ويَرحَم صَغيرَنا ويَعرِف لِعالِمِنا حَقَّهُ».

نَفى عنه عن أن ينتسـبَ لأمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسـلام: «مَن لم يُجِلَّ كَبيرَنا ويَرحَم صَغيرَنا ويَعرِف لِعالِمِنا حَقَّهُ».

وكان النبـيُّ عليـه الصلاة والسـلام يُعلِّمُ الصِّغـارَ إذا قَرعوا بابًـا أن يُعطوا ظهرَهـم للبـاب، تجدُ الآن الطفلَ يطـرقُ البابَ فتجدُه أمام البـابِ هكذا؛ كأنّه يُراقبُ البيتَ!! فتفتحُ المرأةُ مستعجلةً فيَراها كما هي، فالسُّنةُ إن طرَقت البابَ أن تُعطِيَ ظهرَك للبابِ يَمنةً أو يَسرةً.

وعن عُمَرَ بنِ أبي سَلَمةَ قال: كُنتُ غُلامًا في حِجرِ النَّبيِّ ﷺ وكانَت يَدِي تَطِيشُ في الصَّحفةِ فقال لِي: «يا غُلامُ، سَمِّ الله، وكُل بيَمِينِك، وكُل مِمّا يَلِيكَ». وتكلَّمنا عن ذلك في آدابِ الطعامِ.

وعن أبي هُرَيرةَ، عن رسُولِ الله ﷺ أنّه قال: «مَن قال لِصَبيٍّ: تَعالَ هاكَ، ثم لم يُعطِهِ فهي كَذبةٌ».

طرَق بابَ الدارِ فيقولُ له الأبُ: قُل: والدي ليس موجودًا. قُل له: أنا لست هنا! ما هذه «ليس هنا!!»، معناها أنّ الأبَ كاذبٌ، أو يقول له: «بابا يقولُ لك: هو ليس هنا»!

تخرجُ مع ابنتِها إلى مكانٍ وتقولُ أمام الأبِ: لم نَخرُج، بنتٌ صغيرةٌ شاهَدت أمَّها تكذبُ، خرَجت وعادت مع والدتِها وقالت: لم نَخرُج. هذه أخطاءٌ كبيرةٌ جدًّا، وقدوةٌ سيئةٌ يُحاسَبُ عليها الآباءُ.

كان عليه الصلاة والسلام من أحسنِ الناسِ خُلُقًا:

حَدَّثَنا أنسٌ رضي الله عنه قال: خَدَمتُ النَّبيَّ ﷺ عَشرَ سِنينَ، فما قال لي: أُفٍّ، ولا لِمَ صَنَعتَ، ولا ألَا صَنَعتَ.

قال أنَسٌ: كان رَسُولُ الله ﷺ من أحسَنِ الناسِ خُلُقًا، فأرسَلَنِي يومًا لِحاجَةٍ فَقُلتُ: والله لا أذهَبُ وفي نَفسِي أن أذهَبَ؛ لِما أمَرَني به نَبيُّ الله ﷺ. فخَرَجتُ حَتَّى أمُرَّ على صِبيانٍ وهم يَلعَبُونَ في السُّوقِ، فإذا رَسُولُ الله ﷺ قد قَبَضَ بقَفايَ من ورائِي، قال: فنَظَرتُ إليه وهو يَضحَكُ فقال: «يا أُنَيسُ، أذَهَبتَ حيث أمَرتُكَ؟» قال: قُلتُ: نَعم، أنا أذهَبُ يا رَسُولَ الله. قال أنَسٌ: والله لَقد

خَدَمتُهُ تِسعَ سِنِينَ، ما عَلِمتُهُ قال لِشَيءٍ صَنَعتُه: لِمَ فَعَلتَ كَذا وكَذا؟ أو لِشَيءٍ تَرَكتُه: هَلّا فَعَلتَ كَذا وكَذا!

ثم إنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام يَعِدُ كلَّ أبٍ عنده بناتٌ:

عن أبي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: مَن كان له ثَلاثُ بَناتٍ أو ثَلاثُ أَخَواتٍ أو ابنَتانِ أو أُختانِ، فأحسَنَ صُحبَتَهُنَّ واتَّقَى الله فِيهِنَّ فَلَهُ الجَنَّةُ». مَن كان له ثلاثُ بناتٍ أو أخَواتٍ... بنتٌ فاتها قطارُ الزواجِ تكونُ أحيانًا عبئًا على أخيها، أمّا المؤمنُ فليست بعبءٍ عليه، هذا الحديثُ يُثبتُ أنّ الجنةَ لمَن ربَّى بناتِه أو أخَواتِه، قال: أختٌ أو بنتٌ... هذه إضافةٌ رائعة.

وعن صَفوانَ بنِ سُلَيمٍ أنّه بَلَغَه أنّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أنا وكافِلُ اليَتِيمِ له أو لِغَيرِهِ في الجَنَّةِ كَهاتَينِ إذا اتَّقَى» وأشارَ بإصبَعَيه الوُسطَى والَّتِي تَلِي الإبهامَ.

وكان عليه الصلاة والسلام يَصُفُّ عبدَ الله وعُبيدَ الله وكثيرًا من بني العباسِ رضي الله عنهم، ثم يقولُ: «مَن سبَق إليَّ فله كذا وكذا».

عن عَبدِ الله بنِ الحارِثِ قال: كان رَسُولُ الله ﷺ يَصُفُّ عَبدَ الله وعُبَيدَ الله وكَثِيرًا من بَنِي العَبّاسِ ثم يَقُولُ: «مَن سَبَقَ إلَيَّ فَلَهُ كَذا وكَذا». قال: فَيَستَبِقُونَ إليه فيَقَعُونَ على ظَهرِهِ وصَدرِهِ فيُقَبِّلُهُم ويَلزَمُهُم.

يصفُّهم في نسقٍ ويقفُ بعيدًا عنهم، ويقول: «مَن سَبَقَ إلَيَّ فَلَهُ كَذا وكَذا». قال: فَيَستَبِقُونَ إليه فيَقَعُونَ على ظَهرِهِ وصَدرِهِ فيُقَبِّلُهُم ويَلزَمُهُم. يصفُّهم في نسقٍ ويقول: تعالَوا إليَّ تَسابَقوا، ومن شدّةِ السرعةِ يقَعون على ظهرِه وصدرِه ويُقبِّلهم ويلتزمُهم.

أردتُ من هذه الأحاديثِ والمواقفِ والقصصِ أن تقِفوا مع أخلاقِ النبيِّ ﷺ مع الصغار، ليس هناك منزلٌ إلا وفيه صغارٌ.

بهدوئك وحلمِك،

ومحبتِك وعدلِك بين أولادِك،

وأنت اتصالُكَ بالله يجعلُ عندك قوةَ جذبٍ وإشعاع

والانقطاعُ عن الله يُسبِّبُ جفوةً؛ لأنّ ظُلمةَ المعاصي تنعكسُ على الأولادِ والزوجةِ.

والتربيةُ الإسلاميةُ تحتاج إلى باطنٍ قويٍّ، ولا يقوى باطنُ الإنسانِ إلا:

بالذكرِ وتلاوةِ القرآنِ،

ومجالسةِ الصالحِين،

وقيامِ الليلِ،

ومجاهدةِ النفسِ.

فالمنزلُ يُمكنُ أن يكونَ قطعةً من الجنةِ بابتسامةٍ لطيفةٍ وبمداعبةٍ، كان إذا دخَل بيتَه بَسّامًا ضحّاكًا، كان يقولُ: أكرِموا النساءَ، والله ما أكرَمهنَّ إلا كريمٌ، البناتُ الصغارُ المؤنِساتُ الغالياتُ.

قد يكونُ منزلُكَ جنةً بأيِّ مُستوًى ماديٍّ،

بأيِّ موقعٍ،

بأيِّ مِساحةٍ،

بأيِّ دخلٍ،

بأيِّ أثاثٍ،

فبواسطةِ إيمانِك،

واستقامتِك،

وبمحبتِك هؤلاء الصغارَ يُصبِحون أصدقاءك، وهكذا كان عليه الصلاةُ والسلام يُحبُّ الصغارَ ويحترمُهم ويُسلِّمُ عليهم، حتى في بعضِ الأحاديثِ أنّه كان يتسابقُ معهم: شيءٌ لا يُصدَّق! في بعضِ الأحاديثِ كان يُركِبُهم أمامه على الناقةِ ليَفرَحوا.

أخي المربِّي:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

يعني.. على قدرِ استطاعتِك اعتَنِ بالصغارِ، أفرِحهم وأحِبَّهم وأكرِمهم؛ لكي يَنشَؤوا مؤمنِين طاهرِين، لكي يكونوا قُرّةَ عينٍ لك، لكي يكونوا صدقةً جاريةً من بعدك:

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنّ رَسولَ الله ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقَطَعَ عَمَلُه إلا من ثَلاثٍ: صَدَقةٍ جارِيةٍ، وعِلمٍ يُنتَفَعُ به، وولَدٍ صالِحٍ يَدعُو له».

ويقولُ الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ:

حَرِّض بَنِيكَ عَلَى الآدَابِ فِي الصِّغَرِ كَيمَا تَقَرَّ بِهِم عَينَاكَ فِي الكِبَرِ
فَإنَّمَا مَثَلُ الآدَابِ تَجمَعُهَا فِي عُنفُوَانِ الصِّبَا كَالنَّقشِ فِي الحَجَرِ

وجميلُ أثرِه من فوزِهم بمثلِ أجرِ صلاحِه، وقبيحُ ضِدِّه من شقائهم بمثلِ وزرِ ضلالِه وانحرافِه، لا سيما في هذا الزمانِ الذي أصبَحت فيه الرذيلةُ

فضيلةً، والفضيلةُ رذيلةً، فلا بدَّ من تَعليمِهم العلمَ الشرعيَّ الذي أشَرنا إليه في الكتابِ، وتحذيرِهم من خطرِ الهواتفِ النقّالةِ والإنترنت ووسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ، وما تدعو إليه من رذائلَ.

وصرفِهم عن التعلُّقِ بها، وربطِهم بأهلِ الله من العلماءِ والصالحِين، فكما ذكَر المصنِّفُ أنّ والدَيه إمّا يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، وإن كانا مُسلِمَين فمُسلِمٌ.

اللهمَّ اجعَل أبنائنا وأبناءَ المسلِمين أجمعِين من عبادِك الصادِقِين الصالحِين الذين تُحبُّهم ويُحبُّونك.

اللهمَّ اجعلَهم أوفرَ عبادِك حظًّا في الدنيا والآخرةِ، واجعَلهم من أوليائك وخاصّتِك الذين يَسعى نورُهم بين أيديهم وبإيمانِهم، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون، اللهمَّ اجعَلهم حفَظةً لكتابِك، ولدينِك ودعاةً ومجاهدِين في سبيلِك، ومبلِّغين عن رسولِك سيدِنا محمدٍ ﷺ.



قال المصنِّف رحمه الله تعالى:

[١٠٥] فَهَــذِهِ «رِيَاضَــةُ الصِّبيَــانِ» جَمَعتُهَـــا مَنظُومَـــةَ المَعَـــانِي
[١٠٦] مُفِيــدَةٌ لِــكُلِّ مَــن قَرَاهَــا وَدَبَّـــرَ الأَشـــيَا بِمُقتَضَاهَـــا
[١٠٧] واللهُ يَهــدِي الــكُلَّ لِلرَّشَــادِ بِهِ اســتَعَنتُ وَهْوَ خَــيرُ هَادِي
[١٠٨] ثُــمَّ الصَّــلَاةُ بَعدَ حَمــدِ رَبِّي عَلَى النَّبِيِّ المُصطَــفَى مِن كَعبِ
[١٠٩] وكُلِّ آلٍ لِلنَّـــبِي وتَابِــعِ مَا لَاحَ بَرقٌ في السَّــحَابِ الهَامِعِ

الشرح:

بيَّن المصنفُ تسميةَ هذه المنظومةِ بـ«رياضةِ الصبيانِ»، وقد حَوَت دُرَرًا من قواعدَ، وصِيغَت تطبيقاتُها التربويةُ في أجملِ قلائد، فكانت نافعةً لمَن قرَأها متدبرًا، وألقى إليها السمعَ بقلبٍ شاهِد.

وجعَل خاتمتَها: دعاءً وسؤالًا لله بالرشادِ، واستعانةً به على الهدايةِ، ثم حمدًا له، وصلاةً على رسولِه ﷺ، وآلِه، وأتباعِه أجمعين، وأيُّ أمرٍ يُبدَأُ فيه بالصلاةِ والسلام على رسولِ الله ﷺ ويُختَمُ بها هو من أبرَكِ الأعمال، لذلك درَج جميعُ العلماءِ من أهلِ السنّةِ والجماعةِ على ذلك في مؤلَّفاتِهم وفي دُعائهم وسائرِ أعمالِهم.

لِـمَ لَا نُصَلِّـي دَائِمًـا عَلَيـهِ وَكُـلُّـنَـا مُـفـتَـقِـرٌ إلَـيـهِ
صَلَّـى عَلَيـهِ الله كُلَّمَـا ذُكِـرْ وَمَـا تَلَا تَالٍ فَهَل مِـن مُدَّكِرْ؟
بِـهِ نَظَـلُّ فِي ظِـلَالٍ وَسُـرُرْ لَـولَاهُ كُنَّا فِي ضَلَالٍ وَسُـعُرْ

قَـد عَظُمَـت نِعمَتُـهُ عَلَينَـا   لَـولَاهُ لَـم نَعلَـم وَلَا اهتَدَينَا
فَاجعَـل مَدِيحَهُ وَمَـدحَ الآلِ   وَمَدحَ مَـن وَالَاهُ رَأسَ المَالِ
تَبلُـغ بِـذَاكَ غَايَـةَ الآمَـالِ   فِي حَالِكِ الحَـالِ وَفِي المَآلِ

الصلاةُ والسلامُ على النبيِّ محمدٍ ﷺ من أعظمِ القُرُباتِ وأفضلِ الطاعاتِ التي حثَّ عليها الشرعُ، وقد ورَدت في فضلِها نصوصٌ كثيرةٌ من القرآنِ والسنّة.

ومن أبرزِ فضائلِ الصلاةِ والسلامِ على النبيِّ ﷺ:

١ـ امتثال أمر الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالصلاةُ على النبيِّ ﷺ استجابةٌ مباشرةٌ لأمرِ الله.

٢ـ الحصول على شفاعة النبي ﷺ:

قال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى عليَّ حين يُصبِحُ عشرًا وحين يُمسِي عشرًا أدرَكَته شفاعتي يومَ القيامةِ». (رواه الطَّبراني).

وقال النبي ﷺ: «إذا سَمعتُم المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقول، ثم صَلُّوا عليَّ، فإنّه مَن صَلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنّها منزلةٌ في الجنّةِ لا تَنبغِي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل لي الوسيلةَ حلَّت له الشفاعة». (رواه مسلم).

٣ـ تكفير الذنوب ورفع الدرجات:

قال النبي ﷺ: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه بها عشرًا، وحطَّ عنه بها عشرَ خطيئاتٍ، ورفَع له بها عشرَ درجاتٍ». (رواه مسلم).

٤ـ سبب في استجابة الدعاء:

قال النبي ﷺ: «كُلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يُصلَّى على النبيِّ ﷺ». (رواه الطَّبَراني).

٥ـ طريق إلى القرب من النبي ﷺ يوم القيامة:

قال النبي ﷺ: «أولَى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليّ صلاةً». (رواه التِّرمِذي).

٦ـ سبب لنيل البركة والخير في الدنيا والآخرة:

الإكثارُ من الصلاةِ على النبيِّ ﷺ يجلبُ البركةَ في الرزقِ والأعمالِ، ويُدخِلُ السكينةَ على القلوبِ.

٧ـ سبب في محبة النبي ﷺ:

الإكثارُ من الصلاةِ والسلام عليه يغرسُ محبتَه في القلوبِ، وهذه المحبةُ شرطٌ للإيمانِ؛ كما قال النبي ﷺ: «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ووالدِه والناسِ أجمعِين». (رواه البخاري).

٨ـ ذكر العبد عند الله ورد السلام من النبي:

قال النبي ﷺ: «ما من أحدٍ يصلِّي عليَّ إلا صلَّت عليه الملائكةُ، ما دام يصلِّي عليَّ، فليُقِلَّ العبدُ من ذلك أو ليُكثِر». (رواه أحمد).

٩ـ سبب في تفريج الهموم وغفران الذنوب:

قال النبيُّ ﷺ لمَن سأله عن تخصيصِ الدعاءِ له بالصلاةِ عليه: «إذًا تُكفى همَّك، ويُغفَر لك ذنبُك».

عن أُبيٍّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسولَ الله، إنّي أُكثِرُ الصلاةَ عليك، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟

قال: «ما شئتَ».

قال: قلتُ: الربُعَ؟

قال: «ما شئتَ، فإن زِدتَ فهو خيرٌ لك».

قلت: النصفَ؟

قال: «ما شئتَ، فإن زِدتَ فهو خيرٌ لك».

قال: قلت: الثُّلثَين؟

قال: «ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك».

قلت: أجعلُ لك صلاتي كُلَّها؟

قال: «إذًا تُكفى همَّك، ويُغفَرُ لك ذنبُك». (رواه التِّرمِذي).

١٠ـ صلاة الملائكة على المصلي على النبي ﷺ:

قال النبي ﷺ: «ما من عبدٍ يُصلِّي عليَّ إلا صلَّت عليه الملائكةُ، ما دام يُصلِّي عليَّ، فليُقِلَّ العبدُ من ذلك أو ليُكثِر». (رواه أحمد).

١١ـ سبب في الهداية والثبات على الحق:

الإكثارُ من الصلاةِ على النبيِّ ﷺ يزيدُ الإيمانَ ويُرسِّخُ اليقينَ في القلوبِ.

١٢ـ استجابة الدعاء:

قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يُصلَّى على النبيِّ ﷺ». (رواه الطَّبَراني).

فالصلاةُ على النبيِّ تفتحُ أبوابَ القَبولِ للدعاءِ.

١٣ـ البركة في الحياة والعمل:

الإكثـارُ مـن الصـلاةِ على النبـيِّ ﷺ يجلـبُ البركةَ فـي الـرزقِ، والعمرِ، والأعمالِ، ويزيدُ القربَ من الله.

١٤ـ ذكر المصلي عند الله:

قال النبيُّ ﷺ: «إنّ الله قال: مَن صلَّى عليك صَلَّيتُ عليه، ومَن سلَّم عليك سلَّمتُ عليه». (رواه أحمد).

١٥ـ علامة على محبة النبي ﷺ:

الإكثـارُ من الصـلاةِ عليه دليلٌ على صدقِ الحـبِّ واتباعِه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدِه وولدِه والناسِ أجمعِين». (رواه البخاري).

جـزَى الله الإمامَ الرَّملـيَّ والإمامَ الغَزاليَّ خيرَ الجزاءِ على ما قدَّماه خدمةً للإسلامِ والمسلمِين بهذه التوجيهاتِ في هذه الآدابِ للصبيانِ، وما تَركوه من تراثٍ زاخرٍ من العلمِ الشريفِ.

* * *

خلاصة:

الصلاةُ والسـلامُ على النبيِّ ﷺ عبادةٌ عظيمةٌ، تجمعُ بين محبّةِ النبيِّ ﷺ واتباعِـه، وبيـن الامتثالِ لأمرِ الله والرجـاءِ في فضلِه وكرمِـه، فالإكثارُ منها فيه خيرُ الدنيا والآخرةِ.

خاتمة الكتاب

الحمـدُ لله الـذي بنعمتِـه تتـمُّ الصالحـات، والصلاةُ والسـلامُ على سـيِّدِ البريّاتِ، محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه الطيِّبين الطاهِرين.

وبعـدُ، فقـد انتَهى بنا المقامُ في هذا الكتابِ إلى ختامِ شـرحِ منظومةِ «رياضةِ الصبيـان» للإمـامِ الرَّمليِّ رحمه الله، وهي منظومةٌ جليلـةُ المقصد، عظيمةُ النفعِ، جمعَـت بيـن تهذيبِ السـلوكِ وتقويـمِ الاعتقاد، بأسـلوبٍ يناسـبُ المبتدئين من الصبيانِ ومَن في حُكمِهم، مما يَجعلُها لَبِنةً مباركةً في بناءِ شخصيةِ الطفلِ المسلِم.

وقد حاوَلنا في هذا الشـرحِ ـ الموسـومِ بـ«نسـائمِ الريحان» ـ أن نكشـفَ المعانـيَ، ونوضِّحَ الألفاظَ، ونربطَ بين الأشـعارِ والمقاصدِ التربويةِ، بما يعينُ المعلِّمين والآباءَ وطلبةَ العلمِ على حُسنِ الفهمِ والتطبيق.

فجاء الشـرحُ مزيجًا من البيانِ اللغويِّ، والتوجيهِ السـلوكيِّ، والإشـاراتِ التربويةِ المسـتفادةِ من النصوصِ الشـرعيّةِ، مع وقفاتٍ تعليميةٍ تُبرِزُ الجوانبَ المهاريّةَ والعقديّةَ والسلوكيّةَ، التي ينبغي ترسيخُها في نفوسِ الناشئةِ.

وإنّني إذ أضعُ القلمَ في نهايةِ هذا العملِ، أسـألُ الله تعالى أن يتقبَّلَه بقبولٍ حَسنٍ، وأن ينفعَ به أبناءَ المسلمِين، ويجعلَه خالصًا لوجهِ الكريم، وأن يكتبَ له القبولَ والانتشارَ، وأن يغفرَ لصاحبِه ما كان فيه من تقصيرٍ أو خطأ.

وصلَّى الله وسـلَّم وبارَكَ على سـيدِنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعِين، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

خلاصة الكتاب

كتاب «نسائم الريحان في شرح رياضة الصبيان للإمام الرَّملي» هو شرحٌ تربويٌّ وعلميٌّ لمنظومةٍ تعليميةٍ ألَّفها الإمامُ الرَّمليُّ رحمه الله لتقويمِ سلوكِ الصغارِ وتعليمِهم أصولَ الدينِ والآدابَ الشرعيةَ.

وقد تناوَل هذا الشرحُ أبياتَ المنظومةِ بالبيانِ والشرحِ والربطِ العمليِّ، مع توضيحِ المفرداتِ، وتوجيهِ المعاني، وبيانِ ما فيها من فوائدَ عقديةٍ وتربويةٍ وأخلاقيّة، بأسلوبٍ سهلٍ يناسِبُ الطلابَ والمربِّين.

ويهدفُ الكتابُ إلى تربيةِ الجيلِ الناشئِ على العقيدةِ الصحيحةِ، والسلوكِ القويمِ، والمحبّةِ لرسولِ الله ﷺ، والتمسُّكِ بآدابِ الإسلامِ، من خلالِ محتوًى علميٍّ راسخٍ، وتقديمٍ مبسَّطٍ يناسبُ أعمارَ المتعلِّمين.

فالكتابُ لَبِنةٌ تعليميّةٌ وتربويّةٌ تجمعُ بين الأصالةِ والمعاصَرةِ، وتخدمُ الهدفَ الأسمَى في بناءِ الشخصيّةِ الإسلاميّةِ المتزنةِ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة